

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية



مقالات الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في مجلة الوعي الإسلامي

«مقالات حصرية نشرت في المجلة ما بين ١٣٨٥ - ١٤٠٠هـ للشيخ محمد الغزالي المتوفى عام ١٤١٧هـ»



الإصدار الثاني عشر
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

- دولة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

الإصدار الثاني عشر

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

العنوان

ص.ب: ٢٣٦٦٧ الصفاة

الرمز البريدي 13097 الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦- ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:

www.alwaei.com

إشراف

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي





وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

مقالات الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في مجلة الوعي الإسلامي

«مقالات حصرية نشرت في المجلة ما بين ١٣٨٥ - ١٤٠٠هـ
للشيخ محمد الغزالي المتوفى عام ١٤١٧هـ»



الإصدار الثاني عشر
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م


بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ووهب له العقل ليعقل عن ربه ما شرعه وأبان، وأنزل القرآن تبصرة للعقول والأذهان، أحمده حمداً يملأ الميزان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ كل يوم هو في شأن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلى الناس كافة بالدليل والبرهان، اللهم صلّ على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى، قد أعزّ العلم والعلماء، وشرّفهم في الأرض والسماء، وهم في الناس كالنجوم، يهتدون بها في البر والبحر، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم قدوة الأتقياء، بل هم صفوة الأولياء، فإن العالم قائم في الأمة مقام الأنبياء، وهو سراج الأمة وضياؤها بلا مراء، يبين لهم الأحكام، ويميز لهم الحلال من الحرام، ويخرجهم بفتواه من الآثام، ويوضح لهم شرائع الإسلام، فيا له من شرف ما أعلاه، ومن عِزٍّ ومنصبٍ ما أسماه، وما أخطره على مَن لم يتحرَّ في فتواه، ولم يراقب في علْمه وعمَله مولاه، فالعلماء سُرُج الأرض، وكلّ عالم مصباح زمانه، يستضيء به أهل زمانه وعصره، وصدق من قال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرفُ

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها ... وإن نأى عاد في أكنافها التلف

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ ﴾؛ أي: موت علمائها وفقهائها، فإن بهم صلاح الدين، وقمع المعتدين، ومعرفة رب العالمين.
ومن علماء هذا العصر والزمان، الداعية الكبير في سبيل الرحمن، العالم الجليل والشيخ النبيل، الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (ت ١٤١٦ هـ) الذي

كانت له اليد الناصعة في تاريخ الأمة، لما له من الجهاد العلميّ الطويل؛ وقد أكرم الله تعالى هذا العالم الجليل فميّزه في كتاباته العلمية والدعوية والأدبية، كما أنه مميز في خطابته ومحاضراته ودروسه، وذلك من فضل الله تعالى الذي يخصّ به من يشاء.

ولقد مضى ما يقارب أربعة عشر عاماً على وفاة ذلكم الداعية المحنّك المُلهم، وهو العالم الفذ الذي عاش حياته متألما مهتماً بأمر أمة الإسلام شرقاً وغرباً، ومما أعانه في مسيرته الإصلاحية عمقه في المعالجة، وإبداعه في التوجيه، فهو أديب مبرّز، وبليغ مفوّهٌ، وفهامة نبيهٌ، وهو غواصٌ في المعاني، لأنه يحترم عقله وعقول من يقرأ له، ومن أجل ذلك كانت كتبه ومقالاته حاضرة دائماً في أوساط المثقفين وطلبة العلم، وكما قيل: «بحسبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم».

إنه عاش حياة البصير بحقيقة ما ينبغي أن يقال ويكتب، فلذلك كان فارساً من فرسان الكلمة، ورائداً من روّادها، وإنك لتلمحه من بعيد وهو يتأوه من حال من تنكب السبيل السوية التي ينبغي أن تطرق إلى سبل غاية في الإزعاج، غارقة في الفوضى؛ إنه يقول: (من كنوز السنة؛ ص:١٤٧) «الإسلام يريد رجلاً جياش العاطفة بالعطاء، صادق الحس بآلام الغير، ينطلق كالسهم في تفريجها دون توقف، ولو كان يتعامل مع غير أبناء دينه، إن النبع السيال لا يحبس بره عن محتاج».

وإن الجدية التي صبغت حياة الشيخ الجليل، وخلعت على كتاباته لوناً من العمق، لا يخلو من روائع البيان والأدب، هي التي جعلته غير مهتم بمحسنات الألفاظ ووسائل بديعها؛ لأنه كان منشغلاً باللب عن القشور؛ لذلك كان من أهم ما يدندن حوله هذا الرجل الرمز أن يتشبث المسلمون إلى آخر رمق من حياتهم بالإسلام جملة وتفصيلاً، وألا يفرطوا أبداً في شعبة من شعبه، حتى يحولوا دون الذئاب المتنمرة يمنة ويسرة المتهامسة -حقداً وحسداً فيما بينها.

لقد كان يتأمل بحرارة أن يحيا المسلمون يومهم وغدهم وسائر حياتهم معيشة كدحٍ وكفاحٍ ودفاع عن تعاليم الإسلام أمام مؤامرات لا ينقصها الذكاء والخبث ولا المهارة، وذلك مستلزم - ولا بد - فراق الأوهام والأحلام والسذاجة التي تبلغ حد الغفلة.

إن الشيخ الغزالي- كما وصفه العارفون به-: «يحمل روح الرافعي وتألقه، وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه».

وإذا كان الرجل بهذا الميزان وتلك المنزلة؛ فإنه لشرف لنا في مجلة «الوعي الإسلامي» أن نراجع أرشيفنا، ونستخرج منه ما كان الشيخ خصنا به من سنوات عديدة، من مقالات دفعنا إلى إخراجها الحرص على نشر تراث الشيخ ونفع الأمة به، وهي مقالات متنوعة متفرقة، تشد القارئ إليها.

وبهذا الإصدار الجديد الثاني عشر تؤكد مجلة «الوعي الإسلامي» على اهتمامها البالغ بتراث علماء الأمة وصفوة مفكريها، فهي لا تتوانى في إخراج النافع المفيد مرة بعد مرة؛ مما تجمع لديها من كنوز نابعة من قلوب امتلأت بالعلم والشفقة على حال هذه الأمة، وهي إذ تقدم هذا الإصدار لقرائها، ترجو الله تعالى أن يجعل فيه النفع للجميع، وأن يجعله خالصاً لوجه الله الكريم مُوجباً لرضوانه العظيم.

رئيس التحرير

فيصل يوسف العلي



ترجمة الشيخ الغزالي

مولده: ولد الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا في الخامس من ذي الحجة سنة ١٣٣٥هجرية، الموافق الثاني والعشرين من سبتمبر ١٩١٧ ميلادية، في قرية "نكلا العنب" التابعة لمحافظة البحيرة بمصر، وسمّاه والده "محمد الغزالي" تيمنًا بالعالم الكبير أبو حامد الغزالي المتوفى في جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ .

نشأته: نشأ الشيخ في أسرة كريمة محافظة، وله خمسة إخوة، فأتم حفظ القرآن الكريم بكتّاب القرية في العاشرة، يقول الشيخ الغزالي عن نفسه وقتئذ: "كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غدوي ورواحي، وأختم القرآن في تتابع صلواتي، وقبل نومي، وفي وحدتي، وأذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن مؤنسا في تلك الوحدة الموحشة".

والتحق بعد ذلك بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، وظل به حتى حصل منه على شهادة الكفاءة، ثم الشهادة الثانوية الأزهرية، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة سنة ١٣٥٦هـ الموافق ١٩٣٧م، والتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وبدأت كتاباته في المجلات المتنوعة أثناء دراسته بالسنة الثالثة في الكلية، بعد تعرّفه بكثير من الدعاة والعلماء، وبعد أن تخرج في سنة ١٣٦٠هـ = ١٩٤١م، تخصص في الدعوة والإرشاد حتى حصل على درجة العالمية سنة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م، وعمره ستة وعشرون عاماً، وبدأت بعد ذلك رحلته في الدعوة من خلال مساجد القاهرة، وقد تلقى الشيخ العلم عن الشيخ عبدالعظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبوزهرة والدكتور محمد يوسف موسى وغيرهم من علماء الأزهر الشريف.

وفاتــه:

لقي الشيخ ربه وهو في الميدان الذي قضى فيه عمره كله، حيث كان في مؤتمر للدعوة الإسلامية بالرياض، واحتدّ النقاش في مسألة متعلّقة بالعقيدة، فانبرى الشيخ موضّحًا ومعلّمًا فأصيب بأزمة قلبية تُوفي على أثرها -رحمه الله- في التاسع عشر من شوال ١٤١٧ هـ = التاسع من مارس ١٩٩٦م، ودُفِن بالبقيع في المدينة المنورة.

من مؤلفات الشيخ الغزالي:

١- الاستعمار.. أحقاد وأطماع

٢- الإسراء والمعراج

٣- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

٤- الإسلام في وجه الزحف الأحمر

٥- الإسلام والأوضاع الاقتصادية

٦- الإسلام والاستبداد السياسي

٧- الإسلام والطاقات المعطلة

٨- الإسلام والمناهج الاشتراكية

٩- الإسلام وقانون الأحوال الشخصية

١٠- التعصب بين المسيحية والإسلام

١١- الجانب العاطفي من الإسلام

١٢- الحق المر

١٣- الحياة الأولى (ديوان شعر)

١٤- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي

١٥- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر

١٦- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث

٤٠- علل وأدوية

٤١- فقه السيرة

٤٢- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء

٤٣- في موكب الدعوة

٤٤- قذائف الحق

٤٥- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة

٤٦- كفاح دين

٤٧- كنوز من السنة

٤٨- كيف نتعامل مع القرآن

٤٩- كيف نفهم الإسلام

٥٠- ليس من الإسلام

٥١- مائة سؤال عن الإسلام

٥٢- محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع

٥٣- مستقبل الإسلام خارج أرضه

٥٤- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

٥٥- مع الله.. دراسات في الدعوة والدعاة

٥٦- معركة المصحف في العالم الإسلامي

٥٧- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث

٥٨- من هنا نعلم

٥٩- نحو تفسير موضوعي

٦٠- نظرات في القرآن الكريم

٦١- هذا ديننا

٦٢- هموم داعية

(١)

حول انتشار الإسلام

كيف يُعَلِّل المبشرون والمستشرقون سر انتصار الإسلام

العدد (٢) صفر (١٣٨٥هـ) يونيو (١٩٦٥م)

الإسلام شهادة بأن الله حق، وشهود لآثار ألوهيته في صحائف الكون، وصوغ للحياة النفسية والاجتماعية وفق ما أوحى الله لرسله، وإعداد أجيال البشر الحاضرة والمستقبلة للسير على هذا الصراط، ما نبض في أبدانهم عرق، وخالج أفئدتهم شعور.

والإسلام من قبل ذلك علاقة عامة بين الكائنات كلها وبين بارئها الأكبر جل جلاله، فالعلم من عرشه إلى فرشه فقير أبدا إلى ربه، قائم به، خاضع له، عان لأمره، وتلك حقيقة علمية لا يماري فيها إلا أحمق.

ومن ثم فإن التمرد على الله شذوذ مستغرب، والازورار عن دينه خطأ مبين، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾(آل عمران: ٨٣).

إن الإسلام لله هو الصلة الطبيعية الفذة بين المخلوق والخالق.

وإذا كان البشر في هذا العصر يتواضعون على حقائق هندسية وكيماوية وفلكية مقررة، ففي صدر هذه الحقائق يجب أن يعرف أن الله واحد، وأن السيرة التي يرتضيها من عباده دلالة على انقيادهم له، وتحقيقا لما يحبه لهم من خير، هي سيرة محمد بن عبدالله، فهو الإنسان الكامل الذي التقت في شخصه المثل الرفيعة للإنسانية كلها.

إن الشهادة بأن الله واحد بيان لحق الخالق على المخلوق.

والشهادة بأن محمدًا رسول الله بيان للطريق التي يسير فيها المخلوق كي

يرضي الخالق، وهاتان الشهادتان هما الدعامة الأولى للإسلام.

وقد فهم المسلمون من نصوص دينهم، أن صاحب الرسالة الخاتمة جاء متممًا لما مهد إخوانه الرسل والأنبياء السابقون.

وأن هؤلاء كانوا دعاة للإسلام بمعناه الشامل العميق.

وأن مرّ الزمان وتفريط الأتباع طمسا معالم الرسالات السابقة، وأتاحا للغلو والابتداع والتحريف أن تعدو على طبيعة الدين ووجهته.

فلم يكن بد من رسالة عامة ثابتة تعيد الحق إلى نصابه، وترد الكلم إلى مواضعه، وتجلو كل ما غشى وجه الفطرة من خرافة وهوى، وتضمن ألا يتكرر في المستقبل ما حدث في الماضي من زيغ وشذوذ.

فكان هذا القرآن الذي غلب الزمن، وبقي محفوظًا من كل ريبة. وكان رسوله الذي نشر الحق إلى أبعد مدى يبلغه جهد بشر، والذي صدع أركان الباطل، فمادت بعد لأي ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ **(النحل: ٦٣، ٦٤)**.

منهج الصحابة في نشر الدعوة

وانطلق صحابة محمد وأتباعه في أقطار الأرض يحملون البلاغ السماوي الأخير. وانطلق الصوام القوام الخاشعون المخبتون إلى كل فج عميق، يعرضون الإسلام على الناس، باللغة العالمية التي يفهمها أهل الأرض كلهم جميعًا، لغة الخلق الزكيّ، والسلوك العالي، نعم، إن الجيل الذي حمل الإسلام، وعبر به الأبعاد الشاسعة أرى الناس من نفسه نماذج رائقة، فدخل الناس في دين الله عن إعجاب ورغبة.

وما كادوا يتعمقون في هذا الدين، ويتعرفون دخائله، حتى صاروا حراسا على دعوته العامة مثل العرب الذين جاءوا به، أو أشد!.

وقد وقع قتال في أثناء سعي العرب لتحرير الشعوب السجينة، وفك الأغلال عنها، وهل كان يمكن قمع الاستعمار القديم، أو الحديث إلا بالسلاح؟

إن أنبل قتال وقع على ظهر الأرض، هو ما خاضه أتباع محمد لرد الرومان إلى أوروبا من حيث جاءوا، ولكسر شوكة المجوسية في فارس.

وإلا فكيف يتصور امرؤ راشد أن أربعة آلاف عربي مثلا يصلحون قوة غازية لفتح مصر وتوطيد الإسلام فيها جيلًا بعد جيل؟

إنه لولا انبهار الأمم بالدين الجديد، وتجاوبها معه، وإحساسها بأنه هدية الأقدار إليها، ما دانت لأهله، ولا دخلت فيه.

ماذا عسى يصنع أربعة آلاف رجل في قطر كمصر، أمام عشرات الألوف من جند الرومان ومشايعيهم؟

وهب أنهم جن في الوغى، وأن خصومهم هباء، ما الذي جعل جماهير الشعب تسالم الوافدين، ثم تنشرح صدرا بعقائدهم، ثم تهب هي لنصرتها بعدما اعتنقتها؟

إنها طبيعة الحق عندما يحسن عرضه، وتنزاح العوائق أمام الرغبة فيه.

وما مصر إلا مثل لشقيقاتها التي كانت عانية في أسر الرومان، ثم شاعت أنوار الصدق في هذا الدين، فهوت إليه قلوبها، ثم حملت لواءه إلى يوم الناس هذا عن اعتزاز وحب.

لا إكراه في الدين

وعمر الباطل يطول بين الناس بمقدار ما تطول غيبة الحق عنهم، ولعل لهم عذرا في البقاء عليه ما داموا لا يعرفون غيره.

وقد كان الناس على نحلهم الأولى قبل الإسلام بين راض بها عن قصور، أو راض بها عن اقتناع، فلما ظهر الدين الجديد وتيسرت المقارنة والمقابلة، بدأ التحول العظيم، يشمل سواد الشعوب هنا وهناك، فما مضى قرن على البعثة حتى كان الإسلام ملء السمع والبصر، وكانت أجهزة الدولة الإسلامية ترقب هذا التحول من بعيد وهي دهشة، بل إن بعض الولاة استبقى ضريبة الجزية على من يدخل في الإسلام! كأن وظيفة الحاكم تعويق الناس عن الإيمان لا إغراؤهم باعتناقه.

وما نذكر هذه القصة إلا لنشير إلى كذب من يزعمون أن شائبة إكراه وقعت في انتشار الإسلام.

إن الدولة لم تستخدم قط أداة قسر على ترك دين واعتناق آخر كما وقع ويقع في أقطار أخرى لخدمة أديان أخرى.

وما حاجة الإسلام إلى الإكراه، ومبادئه تنساب إلى القلوب من تلقاء نفسها، لأنها الفطرة، وتعاليمه تنساق إلى العقول كما تنساق البديهيات التي يلقاها الفكر السليم، ولا يستطيع أمامها مراء؟

إن البيئة الحرة أخصب مكان لازدهار الإسلام، ولولا شقوة الناس ما نصبوا العوائق أمام رسالته ولتركوها تبين عن طبيعتها في هدوء.

مستشرق يزيف الحقائق

ومنذ أيام وقع في يدي كتاب من هذه الكتب التي يؤلفها المبشرون والمستشرقون ويملأونها بالطعون في الإسلام، والضغن على نبيه، ولما كنت قد أَلِفْت تهجم القوم، فإني لم أفزع لما ورد في الكتاب من تهم أعرف ويعرف غيري قيمتها.

لكن الكتاب الذي قرأته تضمن عبارات في التعليق على انتشار الإسلام أرى من المصلحة إثباتها، لأنها ترد نجاح الإسلام، وارتفاع شأنه إلى خلل طارئ على القوى المعارضة لا إلى صلاحيته الذاتية، وأصوله النفسية والفكرية.

قال المؤلف المذكور: إذا أمعنا النظر فيما كتبه مؤرخو الكنيسة منذ القرن الثالث للميلاد ألفينا حال الأمة النصرانية لذلك العهد بعيدة جدا عما وصفها به بعض المصنفين من تقوى وصلاح.

وذلك أنها فضلًا عن كونها لم تكن مؤيدة بالعقيدة الفعالة والغيرة والتقوى، ولم تكن راسخة على أساس التعليم الصحيح، وعلى الاتحاد وثبات الإيمان، كان رعاتها مشتغلين بالمطامع الشخصية يتخذون العويص من مسائل الدين ذريعة للمشاجرات والمماحكات، وقد انقسموا فيها إلى فرق وبدع لا تعد، ونفوا من صدورهم ما ندب إليه الانجيل من الموادعة والمحبة والمؤاساة، وعدلوا إلى المناوآت والضغائن وسائر المفاسد، حتى إنهم بينما كانوا يتماحكون في أوهامهم في الدين أضاعوا جوهر الدين نفسه، وكادت مشاجراتهم فيه تستأصله.

ومعظم ما ننكره الآن على بعض فرق النصرانية من باطل العقائد، إنما نشأ وتأصل في تلك الأعصر المظلمة، فعاد بالنفع على الإسلام، وأعان على انتشاره.

ونخص من تلك العقائد بالذكر عبادة القديسين والصور، فإنها قد بلغت وقتئذ مبلغًا يفوق كل ما نراه اليوم عند بعض فرق النصارى.[1]

أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضي، وانتقض حبلها بمماحكات الأريوسيين والنساطرة واليعاقبة وغيرهم من أهل البدع.

الصراع على منصب الأسقفية

أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك داماسوس وأورسكينوس في المشاجرة على منصب الأسقفية- أي أسقفية روما- وما أفضى إلى احتدام

(١) لا تزال التماثيل تملأ الكنائس في الشرق والغرب إلى يومنا هذا، وهي تماثيل ترمق برهبة وحب، وتقبل أقدامها التماسا للبركة.

نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما، حتى إن الوالي لما رأى أنه لا قبل له بقمع هذا الشر انصرف عن المدينة وترك المتنازعين وشأنهما، وكان الفوز بعد ذلك لداماسوس.

قيل استمر القتل في الناس في هذه النازلة حتى بلغ عدد القتلى في كنيسة سيكينيوس وحدها مائة وسبعة وثلاثين في يوم واحد.

ولم يكن من العجيب أن يشتد حرصهما على تبوء ذلك المنصب المهم، لأن من يتبوأه يصبح ذا دنيا عريضة، وينال من صلات السيدات الرومانيات ثروة وافرة، فيخرج في المواكب والأبهة بالمركبات والمحفات، مسرفا في ترف العيش أكثر من إسراف الملوك، خلافا لما كان عليه أساقفة المدن الصغيرة من الاقتصاد والزهد ولو بعض الشيء.

ثم قال «فلما فشا في أولياء الأمور وأرباب الدين هذا الفساد في العقائد والأخلاق والسيرة نشأ عنه بالطبع فساد سيرة العامة من الناس فأصبحوا، على اختلاف طبقاتهم، وليس لأحدهم هم سوى جمع الأموال من الوجوه المحللة والمحرمة ثم إتلافها في سرف العيش وانتهاك حرمات الله»[1].

هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب.

في بلاد العرب

«أما حالها في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا- يقصد بلاد العرب- فلم تكن خيرًا من ذلك، فقد اشتهرت هذه البلاد منذ القديم بكثرة البدع، ولعل ذلك ناشئ عن حرية القبائل واستقلالها».

«فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت في الجسد ثم

(١) هذه حال جماهير الناس في أوروبا اليوم، أن المذاهب المادية تسيطر على أخلاقهم وأحوالهم، وفنون الإباحة تجعلهم عبيد شهواتهم، والسر في ذلك عدم وجود الإيمان الصحيح الذي يملأ فراغهم النفسي والفكري، وهذا المؤلف وأمثاله يطعنون مع ذلك في الإسلام بدل أن يخلوا له الطريق ليحل المشكلة.

يا باري القوس بريا ليس يحسنه   لا تظلم القوس أعط القوس باريها

تنشر معه في اليوم الآخر، وقيل إن اريجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب».

«وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب ولا نقول نشأت فيها».

فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هي الله[١].

وفضلًا عن ذلك فقد اختلط بالعرب أيضًا في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة لجأوا إليها هربا من اضطهاد القياصرة، فأدخل محمد كثيرا من عقائدهم في دينه كما سنرى[٢].

أما اليهود الذين كانوا في سائر البلاد أذلاء لا يعتد بهم، فقد قويت شوكتهم في بلاد العرب، حيث لجأ كثير منهم إليها على أثر خراب بيت المقدس، وهودوا كثيرا من ملوك العرب وقبائلهم.

ولذا كان «محمد» في بادئ أمره يداريهم حتى إنه أخذ عنهم كثيرًا من مقالاتهم ورسومهم وعاداتهم تألفا لهم لعلهم يشايعونه، لكنهم جريا على سننهم المألوفة في العناد لم ينقادوا له بل ناصبوه العداوة، وكانوا من أشد خصومه، يحاربونه ويكايدونه دائمًا، ولم يتأت له قهرهم إلا بعد المشقة والعناء وتعريض نفسه لمهالك أودت بهم آخر الأمر[٣].

---

(١) هذه البدعة التي يرى المؤلف أنها انتشرت بين العرب قديمًا، ليست في الحق من مخترعات القدماء وحدهم، بل إن العصر الحاضر شهد مجمعًا مسكونيًا في روما جعل مريم فوق البشر!.

(٢) هذا هراء يشيع بين جمهرة المبشرين والمستشرقين والبراهين متكاثرة متضافرة على تفاهته.

(٣) الإسلام يحسن إلى أهل الكتاب جميعًا ما دامت مسالكهم معتدلة، فإذا أبوا إلا إهانته أو إساءته فلا بد من أن يدفع عن نفسه ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ **(العنكبوت: ٤٦).**

وما ذكرناه من شدة بغضهم له ولّد في قلبه آخر الأمر بغضًا شديدًا لهم فصار يعاملهم في باقي عمره بأقبح مما كان يعامل به النصارى ويكثر الطعن فيهم في قرآنه.

وقد تابعه المسلمون على ذلك إلى يومنا هذا فهم يفرقون بين اليهود والنصارى، ويعدون اليهود أحقر أمة على وجه الأرض وأذلها.

المسلمون بين الفرس والروم

وقد قال بعض من اشتهر بسداد الرأي في السياسة: إنه لا يتسنى لأحد أن يسود قوما وينشئ دولة ما لم تساعده الفرص، فإذا علمت هذا جزمت بأن اختلال أحوال النصرانية كان من الفرص التي أعانت محمدًا من الجهة الواحدة على نيل مآربه- كما أن وهن قوى الروم والفرس أطمعه من الجهة الأخرى في الظفر بمراده فيما يقدم عليه من هاتين المملكتين اللتين كانتا قبل ذلك من القوة على ما هو معلوم، ولو كانتا باقيتين على بأسهما لكانتا، ولا شك، حطمتا الإسلام وهو في مهده، وهم ينسبون فوزهم ذلك إلى دينهم الجديد، والعون الإلهي الذي وصل إليهم بسببه.

مسكين هذا المؤلف! إنه يحاول حجب الشمس بكفه، كيف يتصور عاقل أن العرب من غير الإسلام كانوا يستطيعون هزم الروم والفرس مهما ضربت الحرب بينهما واشتد الخلاف؟ لنفرض أن بين الروس والأمريكان نزاعًا، فهل معنى ذلك أن تستطيع المكسيك مثلًا الاستيلاء على الدولتين الكبيرتين؟ إن الإسلام خلق العرب خلقًا جديدًا، وبه وحده وقعت معجزة الفتح.

مشكلات التثليث

إن الرجل ينسب انتشار الإسلام على حساب الرومان خاصة إلى ما ساد بينهم من اختلاف مذهبي وشهوات بدنية ونفسية، ويرى أن هذا الاختلاف لفظي لا حقيقي، وأن تلك الشهوات موقوتة لا دائمة.

ونحن نصدقه في نصف ما قاله، ونخالفه في النصف الآخر، أو نصدقه فيما قاله ونخالفه في العلل التي ذكرها.

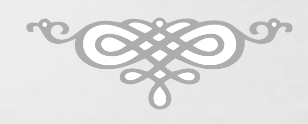
إن التثليث مولد ذاتي للخلاف على تراخي العصور.

ومشكلاته حقيقية لا شكلية.. وذلك بخلاف التوحيد المطلق الذي قرره الإسلام، ثم إن الإنسانية بعد نموها الفكري الظاهر، الذي لم يعهد مثله في تاريخها الأول تحتاج في إقناعها العقلي وتربيتها النفسية، وتنظيمها الاجتماعي والسياسي إلى دين يكافئ هذا الامتداد في مواهبها وخصائصها.. دين يشبع تعاونها الروحي، وتألقها الذهني.

إنها بحاجة إلى الدين الذي تعاون النبيون جميعًا على إبلاغ أصوله وتوطيد أركانه، ثم جاء صاحب الرسالة الخاتمة، فأعطاه صورته النهائية الحقيقية المشبعة.

وإذا لم تعترف أوروبا بهذا الدين، فستبقى آخر الدهر فريسة المذاهب المادية شرقية كانت أم غربية. وستبقى صريعة الشهوات التي تغتال الطهر في الأنفس، والعدل بين الأمم...

ولله الأمر من قبل ومن بعد.





(٢)

الإيمان ميلاد جديد لحياة الإنسان

العدد (٦) جمادى الآخرة (١٣٨٥هـ) أكتوبر (١٩٦٥م)

الإيمان شيء فوق ما يتصور كثير من الناس.

إنه ليس رأيًا في شخص من الأشخاص، أو حكما في قضية من القضايا، أو اعتناقًا نظريًا لفلسفة من الفلسفات، أو اصطباغًا نفسيًّا بلون من ألوان الفن.

إنه تعامل جاد خطير بين طرفين أحدهما الحي القيوم، وعلاقة تشد المرء من أخفى أغواره وأبرز أحواله إلى من نشَّأه من عدم، ورباه من ضياع.

وكما يلتحق العاطل بوظيفة جديدة تستغرق أوقاته، وتصون حاضره ومستقبله يلتحق الإنسان بركب الإيمان فيصبح ويمسي وهو مشغول بواجبات وضعه الجديد، ووسائل قيامه به ونجاحه فيه.

الرسالات فجر الإنسانية

وقد بيّن الكتاب العزيز أن الناس قبل دعوة الله أشباه موتى، وأن انقيادهم للمرسلين مشرق فجر جديد في أنفسهم وأفكارهم وأخلاقهم ومسالكهم.. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ...﴾ **(الأنفال: ٢٤)**.

إن الحياة الحقيقية ليست صورة اللحم والدم، ولا اكتناز العضلات وقوة الحركات.. كلا، فتلك حياة يشترك فيها البشر والسباع والدواب والزواحف، بل لعل حظوظ الأنعام منها أوفر.

الحياة الحقيقية هي هذه الصلة التي تنشأ مع الله بعد معرفته.. هي هذا الانتظام الجديد مع أوامر الله ونواهيه بعد أن أعلن اللسان هذه البداية

بقوله ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ...﴾ (آل عمران: ١٩٣).

أجل، مع هذا الإقرار السمح لا يبطئ المؤمن في الانتقال إلى عالمه الجديد، حيث يسلم وجهه لله وحده، ويتحرك فوق ظهر هذه الأرض وفق ما يطلب منه مولاه.

فهو محكوم في امتداده وانكماشه وحبه وبغضه وسلمه وحربه بحدود الحلال والحرام والثواب والعقاب وطلب الزلفى من ربه، والوجل من طرده..

هذا الإيمان ينشئ حياة جديدة كل الجدة..

إننا نعد الزنجي التائه في مجاهل إفريقية إنسانا متأخرًا جدًّا بالنسبة إلى زميله عالم الذرة في أرقى البيئات.

ففكرة أحدهما عن الكون والحياة تغاير كل المغايرة فكرة الآخر، ولا شك أن مسافة التخلف بين هذا وذاك بعيدة، إن هذا البعد يساوي كذلك مسافة التخلف بين امرئ يعرف الله وآخر يجهله.

الغافل حيوان ضائع

إن ذلك المرء الغافل عن ربه- مهما ارتقى وضعه المادي- حيوان ضائع.. ربما كان حيوانًا ذكيًّا في بعض الأمور، بيد أن جهله بالله هوى به إلى أسفل سافلين، فهو ليس متأخرًا فقط، إنه ميت ولو حلق في أجواز الفضاء.

إن الجهل بالله ظلمة كالحة السواد شديدة الوحشة، ولذلك يقول الله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

والفارق بين المؤمن والكافر يتضح من هذا الوصف الذي قررته الآية.

فللمؤمن نوره الذي يمشي به بين الناس..

ترى ما هذا النور النابع من حياة الإيمان؟

إنه نور الضمير المشع في حناياه، يعرف به الخير من الشر، ويميز المعروف من المنكر..

وهل يرجح الإيمان ويستحق التكريم إلا بهذه الميزة؟

المقطوعون عن الله لا تلفتهم إلا الحياة الدنيا ومآربهم منها، وما يتورعون عن قتل ولا ختل، ولا إفك ولا غش.

أما الموصولون بالله فهم طلاب كمال وعدل، وعفاف وتقوى.

وما تنتشر البركة في الأرض والطمأنينة في المجتمع إلا في ظلال هذا الإيمان، الذي يشق طريقه في ضمان السماء.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ...﴾ (**فاطر: ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢**).

الإيمان بالله حياة

أجل، إن الإيمان حياة، وقد شبه النبي ﷺ عمل الإيمان في الأنفس بعمل المطر في الأرض «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير... الخ».

وهل سمي الوحي روحًا إلا لأنه يحيي القلوب الميتة، ويبصّر الضمائر الضريرة؟

إن فيصل التفرقة بين الإيمان الصحيح والإيمان المزيف أن الأول يولد به المرء ولادة جديدة ويحيا به حياة رشيدة، أما الآخر فلا يصنع شيئًا.

الأول يتحول قوة دافعة إلى فعل الخير ونصرة الحق، كما يتحول الوقود في الآلة إلى حركة دوارة، أما الآخر فصفر.

الأول يعيد تشكيل الكيان الإنساني على نحو يجعل المرء تابعًا لله في هذه الدنيا، فهو باسمه يصول وباسمه ينطلق. أما الآخر، فالإنسان تابع هواه فحسب.

مطاردة الإيمان المزيف

وإذا كانت الدول تكافح تزييف النقد المتداول بين الناس ضبطًا لقيم الأشياء، وحربًا على البطالين والسراق، فما أحرانا بمطاردة الإيمان المزيف حتى تبقى لليقين الصحيح قيمته وآثاره ومنافعه المادية والأدبية.

ولو عقلنا لعرفنا أن الحفاظ على صحة الإيمان أهم من الحفاظ على سلامة الذهب والفضة وما يمثلهما من أوراق.. ولنسرد من كتاب الله الكريم بعض الدلائل التي تشرح ما نقول.

في الحياة التي ينشئها الإيمان لا مكان للشك وللريبة مهما أظلم الجو واربد الأفق، بل يجب على أهل الإيمان أن يتماسكوا ويصبروا ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ...﴾ (**الحجرات: ١٥**).

ومواقف الإيمان ليست محصورة ولا محددة في مسلك واحد، فما تملي به أعباء الحق يجب الانقياد إليه مهما تغايرت الظروف.

فبعض الناس قد يكلف بالانتقال هنا أو هناك، والبعض الآخر قد يكلف بالثبات في مكانه والبذل من ماله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (**الأنفال: ٧٤**).

ويستحيل في ظل حياة يقيمها الإيمان أن يسير الخطأ دون نكير يلاحقه

أو يبقى العوج دون نصيح يطارده وإن طال المدى وفدحت التكاليف.

فشيمة المؤمنين- كي يتجنبوا الخسار- التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد يفزع بعض الناس من بطش الجبابرة فيستكينون، أو تغريهم طراوة العيش فيستلينون، بيد أن الإيمان الصحيح ينشد رضا واحدا ويقلق من غضب واحد.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ...﴾ **(الأنفال: ٢)**.

وهناك من يشغله توطيد مكانته الخاصة عن أي أمر آخر، فهو يريد أن يستبي القلوب بكل ما أوتي من مواهب.

الرياء مهلكة الإيمان

وفي عصرنا هذا شاعت عبادة الفرد للجماهير وعبادة الجماهير للفرد.

أما أن يبصر الإنسان وجه الله فيما يعمل ويترك، ويتحرى ذاته فيما ينفق ويمسك فلا مكان لذلك في نفسه.

وهذا هو الرياء الذي يحبط الأعمال، ويكشف عن خراب القلوب من معنى الخير.

قال الجنيد: لو أن عبدًا أتى بافتقار آدم، وزهد عيسى، وجهد أيوب، وطاعة يحيى، واستقامة إدريس، وود الخليل، وخلق الحبيب، وكان في قلبه ذرة لغير الله، فليس لله فيه حاجة.

والحق أن لصوق الرياء بقلب واستبداده به مهلكة للإيمان وممحقة للمثوبة.

إن الغيث ينزل بالأرض الخصبة، فيكشف عن صلاحيتها للنماء والخير،

وينزل بالصخر فيكشف عن جفاف طبيعته وقسوتها وإقفارها.

وكذلك ضرب الله المثل للمرائي ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ **(البقرة: ٢٦٤)**.

إن الحياة التي ينشئها الإيمان تتسم بالإخلاص العميق والتجرد التام لله رب العالمين.. ولنتجاوز هذه النماذج المتناثرة في وصف الحياة التي ينشئها الإيمان لنقول إن الإيمان عمل حاكم في تحويل الغرائز والعواطف الإنسانية من وجهة إلى وجهة.. الإنسان العاري من أي صبغة دينية أو مذهبية يجوع ويشبع، ويفرح ويحزن، ويغضب ويحلم، ويتكبر ويتواضع، ويحنو ويقسو، وييأس ويرجو... إلى آخر ما يعتري الطبيعة البشرية البحتة من عوارض لا تخلو عنها أبدًا.

والإيمان المعزول عن هذه العوارض لا يثيرها، ولا يسكنها إيمان مغشوش.

وقد تحدث علماء التربية قديمًا عن ضرورة خوف الإنسان من الله ورجائه فيه وإنابته إليه واعتماده عليه... إلى غير ذلك من أحوال نفسية فاضلة.

وهذا حسن، لكنه تصوير جزئي للحقيقة المنشودة، أو تصوير جانبي للحياة التي ينصب الإيمان سرادقها الرحب.

والتصور في ذلك جاء نتيجة أفهام الناس، وما أحسبه مرادًا لهؤلاء العلماء الكبار.

إننا جميعًا متفقون على أن الإيمان صبر وشكر، وخوف ورجاء.

تمام الإيمان

بيد أن البعض فهم أن هذه المشاعر يدخل بها الإيمان على النفس مع

بقاء هذه النفس على طبيعتها العامة تخاف الله حينا وتخاف غيره حينا، وترجو الله حينا وترجو غيره حينا... وهكذا.

وليس ذلك هو المراد ولا هما تمام الإيمان وخلوصه من الشوائب.

فالمؤمن في تعامله مع الله وتوحيده له وإدراكه لأسمائه الحسنى وصفاته المحيطة يبني سلوكه في الحياة على التفرغ الكامل لمولاه والارتباط المطلق به وحده والتجاهل لما عداه.

وليس التوحيد أن نكفر بأصنام الحجارة، ثم نجعل من المال صنمًا أو الجاه صنمًا أو المرأة صنمًا أو الحاكم صنمًا، ثم نتوجه ببعض مشاعرنا أو كلها إلى هذه الأصنام الجديدة.. فإذا أغلب النشاط الظاهر والباطن لها وإذا أقله لله الصمد!

إننا بالملاحظة العابرة نحس أن كثيرًا من الناس يبخسون الخالق من أحر عواطفهم، على حين يتجهون بهذه العواطف المشبوبة إلى غيره، فأي إيمان هذا؟

وهذا هو السر في أن البعض يزعم أنه يرجو الله مثلًا، فإذا فتشت في سلوكه لم تجد لذلك الرجاء أثرًا.

ما بال دينك ترضى أن تدنسه
وأن ثوبك مغسول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس

لقد انهارت حضارات دينية كثيرة لأن العنوان الذي عرفت به يغاير الحقيقة التي تحيا بها.

ويوم يفلت زمام النفس الإنسانية من قيادة الإيمان الصاحي، ويقع في يد الهوى الطائش فهيهات أن يغني عنوان أو تجوز خدعة!

إن المعصية تولد قوية غالبًا، لأن وراءها انفعالات عنيفة، فهل يراد أن يولد الإيمان ضعيفًا لأنه واهي الصلة بالمشاعر الجياشة في النفس الإنسانية؟

إذا لم يكن الإيمان حياة عميقة الجذور في أغوار الإنسان فهو إيمان معلول يحتاج إلى الطبيب كي يصح ويستقيم.

فالتوكل على الله مثلًا يجب أن يكون في نفس المؤمن أرسخ من الاعتماد على السلطة في نفس الجائر المستعلي.

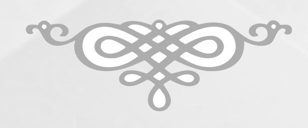
وإيثار الآخرة يجب أن يكون أقوى في نفس المؤمن من اشتهاء العجلين للدنيا.

وعلى ضوء هذا تفهم قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ...﴾ (**البقرة: ١٦٥**).

أما أن ترى الملحد أيقظ عقلًا من المؤمن، وأرهف حسًّا، وأعلى همة، فهذا هو الإيمان الكذوب.

إن المواهب الأدبية تفتق بالإيمان كما تفتق الأكمام عن أزهارها.

وإن الإيمان ليخلق من الموت حياة حافلة بالقوة والنماء جديرة بالبقاء والاحترام.



(٣)

بيعة ثم بيعة

العدد (١٣) محرم (١٣٨٥هـ) إبريل (١٩٦٦م)

في سبيل تحقيق السمو النفسي والاجتماعي لا يفرق الإسلام بين جهاد المرء لبلوغه الكمال في خاصة نفسه، وجهاده لتوطيد الحق في أرجاء المجتمع الكبير.

فإن الدعوة إلى الخير لا تسوغ من عليل القلب مضطرب السلوك، كما أن سليم القلب شريف السيرة لا يسكت على بيئة مضطربة الضمير مهتزة الخلق.

والحضارة الحديثة تفرق بين السلوك الشخصي، والسلوك العام، وربما قبلت من الرجل أن يكون له جانبان، أحدهما رديء في حياته الخاصة، والآخر حسن في حياته العامة.

وهذا الانشطار في النفس الإنسانية غير مقبول ولا معقول من الناحية الدينية.

وقد كان الإسلام بعد عشر سنين على ظهوره في مكة يعاني آلام الغربة الروحية والحصار الاقتصادي والاستضعاف الشائن، وكان المسلمون جديرين بقبول النصرة من أي يد تمتد بها.

وجاء من يثرب وفد أنعش الآمال في فرج يبدد هذا الضيق، وضياء يكشف تلك الغمة، ولكن الرسول الكريم استقبل هذا الوفد، ليعلمه قبل كل شيء أصول العقيدة السليمة، ويمسكه بمعاقد العمل الصالح.

إن الأنبياء لا يكافحون بمرتزقة يحملون السيف في أيديهم، وإنما يحاربون برجال يستبطنون الإيمان والشرف في قلوبهم وسلوكهم.

وهذا ما تنضح به الكلمات والوصايا والخطب التي وعاها التاريخ في بيعتي العقبة الصغرى والكبرى.

في البيعة الأولى جاء الرجال الذين شرح الله صدورهم بالإسلام.

ولقد لقيهم النبي بالعقبة، وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده، والاستمساك بفضائل الأعمال والبعد عن مناكرها.

عن عبادة بن الصامت: «بايعنا رسول الله ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.

قال: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا، فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر»[1]. هذا ما كان محمد ﷺ يدعو إليه وكانت الجاهلية تتكره عليه.

أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة، ويود للأرض الفساد؟

أتم وفد الأنصار البيعة، ثم قفل عائدًا إلى يثرب، فرأى النبي أن يبعث معهم أحد الثقاة من رجاله ليتعهد نماء الإسلام في المدينة ويقرأ على أهلها القرآن ويفقههم في الدين، ووقع اختياره على مصعب بن عمير ليكون هذا المعلم الأمين.

ونجح مصعب أيما نجاح في نشر الإسلام، وجمع الناس عليه، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد- دائمًا- في طريق كل نازح غريب، يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ويعم الإيمان والعمل، والخلق والسلوك.

ولا تحسبن مصعبًا كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق. فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له: هذه القارورة تقدمها لك العذراء وهذا الرغيف يهديك إياه المسيح.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٢٧٥٤.

وربما فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث لا يريدون.

هذا ضرب من التلصص الروحي، يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين.

والذين يمثلون هذه المساخر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم، فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم فلا تنس القوى التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو.

أما مصعب فكان من ورائه نبي مضطهد، ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهازي الفرص، كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة قبسها من محمد ﷺ، وإخلاص لله جعله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته.. ثم هذا القرآن الذي يتأنق في تلاوته، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب، فإذا بالأفئدة ترق له، وتتفتح للدين الجديد.

وعاد مصعب إلى رسول الله بمكة قبيل الموسم الحافل يخبره بما لقي الإسلام من قبول حسن في يثرب، ويبشره بأن جموعًا غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مس شغافهم وبصر أنار أفكارهم وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين.

بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا -دون شك- تاريخه القريب والصعاب الهائلة التي لقيها، وحز في نفوسهم أن يستضعف إخوانهم في مكة وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلى الله، فلا يجد إلا آثمًا أو كفورًا.

ولذلك تساءلوا- وهم خارجون من المدينة قاصدين البيت العتيق- حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية. وآن لها أن تنفس عن

حماسها وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية.

قال جابر بن عبدالله: فرحل إليه منا سبعون رجلًا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا يا رسول الله، علام نبايعك؟ قال ﷺ تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقوموا في الله، لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني- إذا قدمت عليكم- مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة- وهو أصغر السبعين بعدي- فقال: رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف.

فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه.. فبيّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله.

فقالوا: يا سعد، أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها فقمنا إليه رجلاً رجلًا فبايعناه.

وعن كعب بن مالك: نمنا تلك الليلة- ليلة العقبة- مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدي.

موقف للعباس

فلما اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ جاءنا العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويستوثق له، فلما جلس كان أول متكلم، قال: يا معشر الخزرج إن محمدًا منا حيث

قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك.. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم من الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع أزرنا، فبايعنا رسول الله، فنحن- والله- أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر.

فاعترض هذا القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ- أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال- يعني اليهود- حبالا وإنا قاطعوها.

فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم النقباء، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي.

تلكم بيعة العقبة، وما أبرم فيها من مواثيق، وما دار فيها من محاورات.

إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود، كلا، فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

مغانم؟ أين موضع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص.

هؤلاء السبعون، مثل لانتشار الإسلام عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخاص.

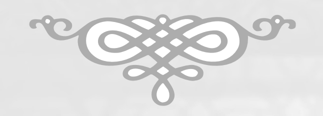
فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعي التضحية، مع أن معرفتهم بالنبي كانت لمحة عابرة، غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول.

بيد أنها لم تزل، بل ربت على مر الأيام، وما زادتها الأحداث إلا صلابة وتألقًا.. والمعروف أن بيعة العقبة أنقذت الإسلام من جبروت الوثنية في مكة، ومهدت للهجرة التي بدأ بها تاريخه الطويل.

إلا أن هذه البيعة- إلى جانب ذلك- كانت نداء الإنقاذ الذي نجا به الإسلام من المآزق المتضايقة.

ففي غزوة حنين، عندما فر الطلقاء والضعفاء للجولة الأولى، أمر رسول الله ﷺ عمه العباس، وكان جهير الصوت فنادى يمنة ويسرة: يا أصحاب العقبة، فثاب الرجال المؤمنون إلى صاحب الرسالة ينعطفون نحوه، وقد هاجت في مشاعرهم أقدس الذكريات فكانت الجولة الأخرى وجاء بعدها النصر.

ألا ما أجل عهود الشرف في تاريخ الدعوات!



(٤)

صدق المعرفة ووحدة الوجود

العدد (١٨) جمادى الثانية (١٣٨٦هـ) سبتمبر (١٩٦٦م)

درجات المؤمنين في معرفة الله متفاوتة إلى حد بعيد.

ولا تقبل هذه المعرفة- ابتداء- إلا إذا كانت صحيحة، مطابقة للواقع.

فإذا شاب هذه المعرفة جهل فاضح كالشرك أو التجسيد ردت في وجه صاحبها ولم تغن عنه شيئًا.

والمعرفة الصحيحة مراتب، فالذي يعرف ربه معرفة واضحة غير الذي يعرفه معرفة غائمة.

ووضوح الرؤية للغاية المنشودة شيء آخر غير الاندفاع بإحساس غامض ونظر مختلط.

والمعرفة العميقة غير المعرفة السطحية، الأولى تبقى على اختلاف الظروف والأخرى قد تهتز مع الاختبارات العارضة.

والمعرفة الآلفة المستمرة غير المعرفة العابرة المارة.

فقد تعرف إنسانًا معرفة جيدة، وتنشغل عنه بأمور كثيرة أو قليلة، وقد تعرف آخر معرفة صحبة واستقرار.

والذي يعرف ربه كلما شعر بحاجة إليه، فإذا انتهت حاجته شغلته نفسه، غير الذي أنشأ علاقة مع ربه يتعهدها بالتحبب والتردد على ساحته، فهو موالٍ له معتز بصلته.

والمعرفة الموقنة الناشطة التي تجعل المؤمن يسارع في الخيرات، وينهض بالتكاليف غير المعرفة الكسول الوانية التي يصحبها التفريط في الواجب أو استثقال أدائه.

والمعرفة العاصمة من الدنايا الكابحة للجماح غير المعرفة المنهزمة أمام النزوات.

والمعرفة المورثة للتوكل على الله في مواطن القلق والفزع غير المعرفة التي تجعل المرء ضارعًا للخلق ذليلًا أمام أصحاب الحول والطول.

إن الإيمان يزيد وينقص، وآثاره في النفس والحياة تمتد وتنكمش.

والزيادة والنقصان ليسا في أصول المفهوم العقلي، وإنما في كمه وكيفه، فالصوت من الفم العادي يتضاعف ألف مرة عندما يمر بمذياع ضخم البوق بعيد الصدى.

والإيمان في بعض النفوس قد يتحول إلى حياة تصبغ الشعور والفكر وتهيمن على الحركات والسكنات، وتجعل صاحبها في نهار دائم من الأنس بالله وإلف عظمته.

ومن ثم لا يتفاضل المسلمون في أصل عقيدة التوحيد، وإنما يتفاضلون فيما يبلغه التوحيد في نفوسهم من أبعاد وآماد.

ومن الجور أن نسوي بين العميق والضحل، والمتين والضعيف.

وأقدار المؤمنين عند الله وحظوظهم من مثوبته تتبع درجات إيمانهم على ما شرحنا.

واكتمال الإيمان يوصل إليه بعد جهاد طويل، ورياضة متصلة.

ومن الخير أن نعترف بمدخل العناية العليا في هذا المضمار، فإن الفالحين يغرسون جميعًا لكن حصيلة الثمر في كف القدر.

وما من جهد يذهب هدرًا، حاشا لله، فهو القائل ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ **(العنكبوت: ٦٩)**.

والمشكلة ليست في أن الله جل جلاله يثيب من قصده، فهو مثيب مجيب،

وإنما الذي يجب أن يعرف بحسم أن العبد في هذا الميدان محتاج إلى سعة الفضل لا إلى ضمان العدل، وأن ما يأخذه إن كان أجرًا على عمل فلن يعدو المرء مكانه، أما إن كان تطولًا من ذي الجلال والإكرام فـ ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ **(آل عمران: ٧٣، ٧٤)**.

ولذلك لا يسبق إلا فقير متجرد من الدعوى، متعرض للمنحة، متطلع إلى عطاء المنعم الواسع تبارك اسمه.

وإذا أحب الله إنسانًا رطب بذكره لسانه وأنعش به جنانه ويسّر له ما يرده إليه إن بعد، وما يقيمه على الصراط إن شرد.

والدرب الموصل إلى الله قد تكفل الإسلام بوصف مراحله ومعالمه، فليس هناك شيء وراء كتاب الله وسنة رسوله.

إلا أن عواطف الإيمان قد تهيجها عواطف مشابهة وإن اختلف سببها، وهذه طبيعة البشر، إذا غمرهم شعور ما، فإن هذا الشعور قد يجيش في جوانحهم بعد سكون لأبعد المثيرات.

وتأمل كيف يبكي متمم بن نويرة أخاه مالكا:

وقال أتبكي كل قبر رأيته

لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا

فدعني فهذا كله قبر مالك

وجيشان العواطف المؤمنة عند جمهور العارفين هو الذي جعلهم ينقلون إلى ميدان الحق معاني قيلت ابتداء في مواقف تافهة وصغيرة.

ومن هنا ناجوا الله بقول الشاعر:

إن بـيـتـا أنـت سـاكـنـه
غـيـر مـحـتـاج إلـى الـسـرج
وجـهـك المـأمـول حجتنا
يـوم يـأتـي الـنـاس بـالـحـجـج

وهي أبيات من قصيدة في الغزل.

وكذلك ناجوا الله بقول الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة
ولـيـتـك تـصـفـو والأنـام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبـيـنـي وبـيـن الـعـالمين خـراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكـل الـذي فـوق الـتـراب تـراب

وهي أبيات قيلت في مدح سيف الدولة.

والحق أنه كثير على بشر أن يخاطب بهذه المعاني، فالله جل شأنه أولى من يناجى بها.

ولا نريد أن نقف عند تلك الخطرات، بل يهمنا أن نصف حقيقة العبودية التي تنضح بهذه المعاني، أو تتجاوب معها، وحسبنا في ذلك الكتاب والسنة.

إن القرآن الكريم ينقل الإيمان من ميدان التصورات النظرية المعزولة إلى ميدان الشعور الحي المأنوس الواقع.

ففي مجالسنا، حيث نسمر، أو نجد يجب أن نعد بين الحضور رب العالمين ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ

أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ﵞ (**المجادلة: ٧**).

وهذا الإحساس بالحضور الإلهي له نتائجه من رغبة ورهبة، والله جل شأنه يريد أن نشعر بهذه الهيمنة الشاملة، وأن نحسب حسابها فيما نفعل ونترك ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ...﴾ (**يونس: ٦١**).

وفي الخريف الماضي كنت جالسًا وحدي في حديقة تحت إحدى الشجرات، فسقطت علي ورقة جافة، فتلفت في مكاني أنظر هنا وهناك وعلى لساني قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ...﴾ (**الأنعام: ٥٩**).

قلت لنفسي إن الله يعلم بسقوط هذه الورقة الآن... وقلبتها بين أصابعي أتأمل في ظهرها وبطنها، وأتفرس في شبكة العروق اليابسة المنتشرة بين الوسط والأطراف.

ومددت بصري فإذا أوراق كثيرة ساقطة، ووجدت أني إن استطعت عد هذه الأوراق الكبيرة فمن المستحيل أن أعد الأوراق الصغيرة تحت الشجيرات الأخرى.

قلت ذلك وأنا بين بضع شجيرات في بقعة لا تذكر من أرض الله، فكيف بما تنفضه رياح الخريف في القارات الخمس؟

ثم قلت وعلم ذلك إن أعيى العادين في عصر واحد لكثرته الهائلة، فكيف بإحصاء ما تساقط على مر القرون من بدء الحياة إلى منتهاها؟

وأخذتني حيرة وروعة وأنا أتابع سلسلة هذه الصور، ثم وأنا أمسك مرة ثانية بالورقة الجافة وأتساءل: كيف نسجت مادتها وكيف تمت صباغتها.

إن الخضرة في وجهها هذا غير الخضرة في وجهها الآخر، ثم إن أطراف الورقة مزخرفة بمنحنيات متناسقة كثيرة.

وستعود هذه الورقة طينًا وتنبثق من ظلمات الأرض مرة أخرى ورقة ناضرة يانعة.. وهي في كل آن من هذه المراحل فقيرة الفقر كله إلى الخالق المصور الذي يتولى إيجادها.

إيجادها وحدها؟ كلا بل الألوف المؤلفة، والألوف المؤلفة في كل بستان وحقل، كان أو يكون.

وعدت أقرأ الآية كلها من جديد ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ...﴾ **(الأنعام: ٥٩)**.

والقرآن الكريم مشحون بالمشاهد التي تعلم الناس «مقام الإحسان» والتي تدرجهم في مراتب العبودية على مقدار طاقاتهم العقلية والنفسية.

والفقيه في سيرة صاحب الرسالة صلوات الله عليه وسلامه يدرك أنه بلغ في عبوديته لله مدى من الاستغراق والإشراق تنقطع دونه همم الخلائق كافة.

وسنلمح إلى ذلك في مقال تال.

والأساس العقلي للشعور بوجود الله يقوم على ما تقرر في علم التوحيد من أن أقسام المعلوم ثلاثة «واجب» و«مستحيل» و«ممكن».

فالواجب يستحق الوجود في ذاته ولا يتصور عدمه.

والمستحيل يستحق العدم من ذاته ولا يتصور وجوده، والممكن ما لا يستحق من ذاته عدما ولا وجودا، وإنما وجوده إن وجد، من واجب الوجود وحده.

والعالم كله، ما نعرف منه وما لا نعرف، ما نبصر وما لا نبصر، من هذا القسم الأخير.

حياته عارية من غيره، تستوي في ذلك الجراثيم التي تسكن ألوفها المؤلفة رأس إبرة، والكواكب التي تتهادى في دارات الفضاء بين شروق وغروب، إنها جميعًا تستعير وجودها وحراكها ونظامها من الله ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ

خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (**طه: ٥٠**).

والشعور بهذه الحقيقة العلمية تجاوب مع الواقع الذي لا ريب فيه، ولعل ذلك ما أوحى بهذه الأبيات التي جرى بها قلم مؤلف لا أذكر اسمه:

الله قل، وذر الوجود وما حوى

إن كنت مرتادا بلوغ كمال

فالكل دون الله إن حققته

عدم على التفصيل والإجمال

من لا وجود لذاته من ذاته

فوجوده في الحق محض خيال

ونحن نزكي هذا الإحساس لكنا نلفت النظر إلى شطط يعتريه ويفسده، فمن حق الله ألا نغفل عن وجوده، ومن حقه أيضًا ألا نجحد أو نجهل ما أوجد.

بل إننا لن نعرف الله المعرفة الصحيحة إلا إذا درسنا العالم الذي خلقه وأودع في تضاعيف هذا الخلق دلائل عظمته، ومعاني أسمائه الحسنى.

والإيمان الذي دعا إليه القرآن الكريم هو ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير وما انبث في جوانبه من أحياء.

إنك تستطيع أن ترى الله في كل شيء، أي تستطيع أن ترى قدرته وإبداعه ومجده، وتستطيع أن تلمح أنه القيم على كل شيء، في أغوار الأرض وأبعاد السماء.

عندما أعلن الإحصاء الأخير لسكان الأرض ساورني خاطر محدود:

هناك أكثر من ثلاثة آلاف مليون إنسان يعيشون على ظهر هذه الكرة، قلت لنفسي: إن الله من وراء ثلاثة آلاف مليون عقل يجري فيها تيار الفكر

بطيئًا أو قويًا، ترى فيم يفكر كل واحد من هؤلاء؟

ومن وراء ثلاثة آلاف مليون قلب تجيش بالرضا أو القلق، بالفرح أو الحزن، بالرجاء أو اليأس، ترى ما يشغل كل قلب من هذه القلوب؟

من وراء ثلاثة آلاف مليون جسد تغلي الحياة في أعضائها ويجري الدم في عروقها وتنقبض وتنبسط بالزفير والشهيق رئاتها.

ما أكثر هؤلاء! ومع ذلك فالله من ورائهم محيط ولأمورهم مدبر وفوقهم قاهر وعليهم قيوم.

هم وحدهم؟ كلا، هم والأصول التي انحدروا منها والفروع التي تنشأ عنهم إلى ما شاء الله جل جلاله.

هم وحدهم؟ كلا، وعوالم الأحياء الأخرى التي تزحم البر والبحر، وتنتشر في ملكوت نجهل منه أكثر مما نعرف ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ **(الأنعام: ١٣)**.

ما أوضح شيء في عالمنا هذا؟ الشمس في حجمها الضخم، وما يضطرم في كيانها من نار ونور؟

إن الحريق المستعرة في جوفها وسطحها ترمي باللهب على مسافات هائلة هي بعض مظاهر الجبروت الإلهي في التكوين.

فهل بعد ذلك يضعف الإحساس بالخالق ويقوى الإحساس بالمخلوق؟

وحدة الوجود خرافة

إن الشعور بالوجود الإلهي يجب أن يكون حيًّا غامرًا لدى أولي الألباب.

لكن الكون شيء غير صاحبه، والعالم شيء غير الله، ومعرفتنا بالله فيما أوجد لا تعني أن الوجود هو الموجود.

ومن السخف أن يرتكس الفكر الإنساني في هذه الحمأة.

إن الآلة شيء غير من اخترعها، والقصر شيء غير من بناه.

وقد خلقنا الله وكلفنا، ورتب على تكاليفه مثوبات وعقوبات، وأنزل بذلك كتبًا وبعث رسلًا.. فكيف نجرؤ على وصفه بالهزل والتزوير في ذلك كله؟

ولقد أحصى العلماء العناصر التي يتكون منها العالم، وقرروا ما لكل عنصر من خصائص لا تزيد ولا تنقص، فكيف توصف هذه العناصر بعد ذلك بأوصاف الألوهية؟

إن القول بوحدة الوجود هو- عند التأمل- نفي للألوهية وإثبات للكائنات وحدها.

فالماء مثلًا مادة معروفة، وقد شرح الكيمائيون أسلوب وجودها من عنصريها الأساسين.

وهي من قبل ومن بعد لن تكون إلا الماء.

فالزعم بأنها إله أو جزء إله تخرص علمي سيسقط من تلقاء نفسه، وتبقى بعد ذلك العناصر وحدها دون أي وصف إلهي.

ومن ثم قلنا: إن وحدة الوجود عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

وفلسفة وحدة الوجود، أو خرافة وحدة الوجود، تفكير هندي قديم، والقوم يتصورون أن هذا العالم أزلي أبدي، وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى- وقد تكون أجساد حيوانات- وأن قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور، وتبدأ من حيث تنتهي، وهكذا دواليك إلى ما شاء الله، والله- في أوهامهم- هو هذه العمليات المتكررة.

والغريب أن هذه الوحدة الموهومة قد تسللت إلى بعض الديانات السماوية وبين يدي قصيدة لشاعر عربي تصور هذه الأسطورة المنكورة تصويرًا تامًا، قال.

عل الوجود هو الله الذي اتجهت
هذي النفوس إليه بالعبادات
له العوالم أعضاء مرددة
فيها الحياة على بعد المسافات
وما الأثير وما الأجرام سابحة
فيه، سوى الدم، يغلي بالكريات
ما كان قط عن الأشياء منفردًا
بل هن فيه لصون الذات بالذات

❖ ❖ ❖

تعاشق الكل، من أعلى الشموس إلى
أدنى الرمال إلى أخفى الذريرات
لو قال كن، كان للتكميل مفتقرًا
وكان في حاجة الماضي إلى الآتي
سر التحول والتكرار مطردًا
هذي البدايات من تلك النهايات
رباه أشرق لروح منك منبثق
أما أنا فيك من بعض الخليات؟
حاولت ترويض عقلي فاندفعت به
في مدحض زيق بالعبقريات
فخذ بكفي، ولا تغضبك فلسفتي
وعدها لي من بعض الحماقات

وهذا الذي قاله الشاعر حماقة لا ريب فيها، ومن حق رب العالمين أن تغضبه تلك الفلسفة السمجة، وأن يسخط على كل من يعتنقها ويروجها.

ومن العجائب أن بعض المتصوفة من المسلمين قد انزلق إلى هذه الهاوية وينسب إلى الحلاج قوله:

سبحان من أظهر ناسوته

سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا

في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه

كلحظة الحاجب بالحاجب

وقد دفع الحلاج دمه ثمن هذا الحمق.

ولا أدري كيف يقول مسلم، بل كيف يقول عاقل بوحدة الوجود، إن كان حقًا يؤمن بالله ويصدق المرسلين؟

لو كانت الأرض لؤلؤا ومرجانا ما صح أن تكون ذاتا لله، فكيف وهي إلى جانب ذلك حصى وبعر، ولو كانت زهرًا فهناك الشوك، ولو كانت وفاء وأمانة فهناك الغدر والخيانة.

إن الصاروخ المنطلق في مداره شيء غير الإنسان الذي أطلقه، كذلك العالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيره ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ **(الزمر: ٦٢، ٦٣)**.

وأظننا أوضحنا بعد البون بين الإحاطة الإلهية التي يحسها المؤمنون ووحدة الخالق والمخلوق التي يتوهمها الخراصون.

ثم إن العارفين بالله المشاهدين لقيوميته قد يستغرقون في حالات من التأمل العميق تطول أو تقصر، والاستغراق العقلي أو النفسي في أمة ما ليس بدعا في شؤون الناس.

وقد يفجأني أحيانًا أمر من الأمور فأحشد له كل ما في كياني من انتباه إلى أن أفرغ منه.

وللعلماء نوادر في ذهولهم العلمي وغلبة بحوثهم على تصوراتهم.

وليس مستغربًا أن يجتذب الحب الإلهي بعض أولي الألباب فيشغلهم عن ذاتهم، وينتقل بهم من مآرب الأرض إلى أشواق السماء.

إلا أن هذه الأصول عوارض لا تصبغ الحياة الإنسانية طولًا وعرضًا.. وهذه بداهة لا تنال إلا أصحاب السناء الفكري والنفسي.

أي أنها شارات اكتمال ثقافي وعاطفي، فلا يمكن أن يحسها أهل البلادة والقصور، إن التألق طبيعة الشخصية المتقدة لا الشخصية المعتمة.

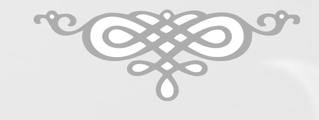
ويبقى أن نتساءل: ما مدى هذا الاستغراق؟ والجواب أن لحظات الانتباه الذهني موقوتة بطبيعتها، فما يزعمه البعض أنه مجذوب طول عمره إلى الحضرة الإلهية دعوى غير مسلمة.

نعم هناك ألوف المؤمنين المتفانين في مرضاة الله الراغبين إليه البانين حياتهم وفق مراده، ولكن ذاك شأن غير ما نحن بصدده.

والمثال العلمي الأكمل للمعرفة التامة والإقبال العظيم على الله يؤخذ من سيرة رسول الله ﷺ، فإن انتباهه المشدود إلى الله تبارك وتعالى ما أوهى حسه بالحياة ولا علائقه بالخلائق..

ومن هنا فسيرة المجاذيب من المتصوفين الذاهبين عن الوجود المادي، نعدها نحن حالات مرضية لا أمارات صحة.

فإذا انضم إلى هذا الذهول ما يقال من فناء عن النفس أو فناء في الله، وما يضيفه الخيال المعتل في مثل هذه الحالات من صور حلول أو اتحاد، كل ذلك لا يمكن وصفه إلا بأنه اختلال في القوى المعنوية، أو ضرب من الخيال. إن المتفاني في عشق امرأة لا يحوله الهيام إلى ضلع منها أو جهاز في بدنها.. والإيمان صراط مستقيم لا يتحمل ذرة من هذا الاعوجاج.





(٥)

من مزاعم الروحية الحديثة

(١)

العدد (٢٠) شعبان (١٣٨٦هـ) نوفمبر (١٩٦٦م)

عند بعض المتدينين طيبة تبلغ حد السذاجة، وإيمانهم بالغيب- إذا تجاوز حدود الكتاب والسنة - قد يكون ثغرة تنفذ منها الأساطير، وتضار بها حقيقة الدين.

وقصة تحضير الأرواح التي شاعت في عصرنا هذا قد اكتنفتها أوهام شتى، وسرت في ركابها أفكار ينكرها الإسلام.

ولكن لما كان الموضوع نفسه مثيرًا، ولما كان مضادًّا بطبيعته للمادية التي فرضت نفسها على العلم والسلوك، فإن كثيرًا من الناس هش له بدوافع حسنة، وظن أنه يستطيع نصرة الإيمان عن طريقه، ونحن نريد معالجة هذه النزعة من أساسها على ضوء ما نحفظ من كتاب ربنا وسنة نبينا.

ولعل إحقاق الحق في هذه القضية يضع الحدود لجدل كثير، ويغلق الأبواب أمام ترهات لا آخر لها.

ونتساءل أولًا: هل الأرواح في العالم الآخر- أعني فترة البرزخ- تستأنف نشاطها العام على نحو ما كانت تسير في الحياة الدنيا، وأن وسائلها في عالمها الجديد أوسع دائرة وأعظم اقتدارا؟

إن بقاء الأرواح بعد الممات عقيدة لا ريب فيها، وهي عقيدة جميلة مشرقة، حبذا لو ذكرنا الناس بها حينا بعد حين، فإن صورة الموت ترسمها الأذهان في إطار قابض عفن.

وأكثر الناس- في هذا العصر- يظن الموت مرادفا للبلى والفناء، ونهاية العهد بالإحساس والحياة والضياء.

وهذه الأفكار من نضح المادية التي تسود عالمنا الأرضي، أو هي من بقايا الجاهلية الأولى في فهم الوجود وقصة الخليقة.

والدين ضد هذه الأوهام، ونصوصه جازمة بأن الآخرة حق، وأن الموت نقلة من عالم إلى عالم، ومن وجود مستيقن إلى وجود مستيقن.

لكن هل الأرواح بعد هذه النقلة تستأنف سلوكها الأول- كما يقول معتنقو الروحية الحديثة- وأن بعضها يشتغل بالوعظ والإرشاد، وبعضها يشتغل بالطب وعلاج المرضى، وبعضها يشتغل بالنصح الفردي وحل المشكلات العارضة، وبعضها يتسكع دون عمل، وبعضها يمد يده بالأذى للأحياء، وبعضها يدور مذهولًا لا يدري أنه مات... هكذا يكتب الروحانيون في رسائلهم، بل إن بعض الأرواح عندما استحضر طلب سيجارا يدخنه... الخ، هل هذه سمات العالم الروحي ووظائفه؟

وهل صحيح أن ضروب الخدمة الاجتماعية تتاح لكثير من الأرواح لعلها ترقى وتنال رضوان الله وغفرانه، أو لعلها تكفّر عما فاتها في الماضي الأول أيام الحياة الدنيا؟

هنا نختلف مع دعاة هذه النحلة أشد الاختلاف وتفترق بنا الطرق فيذهبون حيث شاءوا، ونثبت نحن على ما بيّن الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

الإسلام قاطع في أن ميدان العمل الإنساني هو هذه الحياة الدنيا. وأن المرء- في فترة الأجل الموقوت له- يبتلى بفنون التكاليف، ويتعرض لامتحانات شتى، وأن نجاحه وسقوطه يتقرران جميعا عند انتهاء عمره على هذه الأرض، وهو بالموت مباشرة يبدأ مثوبته أو عقوبته.

قضي الأمر، وطويت أوراق الامتحان، ومن سجلاتها وحدها يكتب من أهل اليمين، أو من أهل الشمال، ليس هناك مجال آخر لتكليف ولا تعرض آخر لامتحان، ولا استئناف لحكم أو طلب لفرصة جديدة.

نعم، فوق هذا الثرى وحده يكلف الإنسان أن يؤمن بإله لا يراه، لكن يرى آثاره ويعرف أدلته.

ويكلف بإيثار الخير وإن ضحى بشهوته العاجلة، ونزل عن رغباته الحاضرة، ويكلف بالإعداد لليوم الآخر، والبذر للحياة المستقبلة موقنا بعالم الغيب، وإن كان مغمورًا بعالم الشهادة.

فوق هذا الثرى وحده وخلال العمر المقدور له يصنع الإنسان مصيره المرتقب، ويستحيل أن تتاح له فرصة أخرى لمتاب إن كان خاطئًا، أو لارتقاء إن كان قاصرًا، فإن الموت فاصل قائم بين حياتي العمل والجزاء، أو حياتي البذر والحصاد.

واسمع إلى إجابة الله للمجرمين وهم يلقون جزاءهم العدل:

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ **(فاطر: ٣٧)**.

وهذه الإجابة الإلهية تكرار لما قد يسأله المجرمون عند ساعة الاحتضار، عندما تذهب السكرة وتجيء الفكرة، عندما يتلهفون على ماض ضاع سدى فيقول أحدهم:

﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ **(المؤمنون: ٩٩، ١٠٠)**، نعم إلى يوم البعث لا مكان لعمل، لا استئناف لنشاط، لا فرصة لتوبة، لا مجال لترقيع ما فسد.

إن مجال العمل المطلوب والتوبة المنشودة في هذه الدنيا وحدها، والمرء في عافية من بدنه، وفسحة من أجله وإقبال من أمله.

فإذا دنت ساعة الرحيل عن هذه الدنيا أخذ الكرام الكاتبون يطوون دفاترهم دون اكتراث لتوبة الغرغرة أو يقظة الضمير الصاحي بعد فوات الأوان.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ **(النساء: ١٧)**.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ...﴾ **(النساء: ١٨)**.

والواقع أن قبول الإيمان من كافر في هذه اللحظات أو قبول التوبة من مفرط، أشبه ما يكون بقبول الغش في الامتحان وحسبان الطالب الذي يتلقف عونا من هنا وهنا- ليستطيع كتابة شيء في ورقته- مساويا للطالب الذي عكف على الدراسة، وسهر الليالي في انتظار هذه الساعة، وشتان بين الرجلين، ومن ثم كان الجواب الأعلى لما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **(يونس: ٩٠، ٩١)**

وهذا المعنى الساري في آيات القرآن طولا وعرضا ترى مثله في أحاديث النبي ﷺ : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له» (صحيح مسلم - رقم ١٦٣١).

وتلك بداهة آثاره في الدنيا تخلفه بعد حياته ويجري عليه أجرها ما شاء الله.

ومن فضل الله على كثير من خلقه أن جعل لهم رصيدا مفتوحا من المثوبة النامية الباقية ما بقي عملهم متجدد النفع مطرد الفائدة.

فإن العمل الصالح قد يكون محدود الدائرة لا يتجاوز خيره خطًّا معينًا، على حين يؤلف البعض كتابًا يسير هداه مع الأجيال، أو يصنع دواء يستشفى به المرضى في القارات كلها.

لكن بدء هذا العمل النافع الواسع كان في حياة صاحبه، وأثناء الاختبار المقرر على ظهر هذه الأرض، أما بعد الممات فلا تكليف بعمل، ولا مجال لابتلاء، ولا ملحق لنجاح أو رسوب.

قال علي بن أبي طالب: ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الدار المقبلة ولا تكونوا من أبناء الدار المدبرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل.

وخطب النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فقفوا عند نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ امرؤ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار». (المزي - رقم : ٤).

وتوكيدًا لهذا المعنى، وانتهازًا لفرصة العمل في الدنيا قبل مغادرة الدنيا وفي أثناء العمر المتاح قبل انقضاء العمر ومفارقة الحياة يقول الرسول الكريم:

«أيها الناس، كأن الموت في الدنيا على غيرنا قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون، نبوئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة.. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، ورحم أهل الذل، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن زكت نفسه وحسنت خليقته، وطابت سريرته، وعزل عن الناس شره، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة ولم يعدها إلى البدعة».[١]

---

(١) حديث موضوع، قاله ابن عساكر.

ولا تخالط مسلمًا ذرة من الشك في صدق الجزاء المكتوب للصالحين والطالحين، وأن مطالعة هذا الجزاء تبدأ مع مفارقة الروح الجسد، ورحيل الإنسان عن هذه الدار.

فإما هبت نسائم النعيم على أهل التقوى واستقبلتهم بشريات الفوز والنصر.. وإما تطاير شرر الغضب على أهل الإلحاد والعصيان، ورأوا عواقب زيفهم عارًا ونارًا.. وذلك معنى الحديث: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» (الترمذي - رقم ٢٤٦٠).

الأرواح بعد الموت يستغرقها الجزاء المقدور لها على ما قدمت في حياتها الأولى.

وتصوُّرُ أنها تستأنف العمل بعد الموت في ميدان ما، بيننا نحن الأحياء تصور معتل منكور، لا صلة له بالدين، ولا يعتمد على أثارة منه.

فكيف بعد تعاليم الإسلام الواضحة- على ما أسلفنا- يجيء قوم فيزعمون أن الأرواح تعمل بعد الموت، وأنها تشتغل بالطب والتعليم حينا، والتسول والاعتداء حينا، وأنها تشارك الناس أحوالهم، وتقف حيث هي في انتظار من يشير إليها لتحضر في قفة أو دلو، أو ما شاكل ذلك.

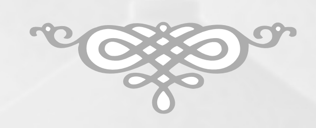
ثم إن الجزاء الذي صوره القرآن في عشرات السور لا تلمح له أثرًا، بل تكاد تظنه صفرًا، فيما يصور به الروحيون مذهبهم العجيب، فلا جرم أن نرى الذهاب إليه انصرافًا عن الإسلام نفسه، وريبة في كتابه وسنته.

إنني أعلم- كغيري من المسلمين- أن الأرواح المجرمة تحبس في سجنها الموحش القاسي، وتلقى من العنت ما يشغلها عن السياحة والتسكع في شتى القارات، تنتظر من يحضرها لتسأل فتجيب، وأعلم أن الأرواح الطيبة مرحة في بحبوحة النعيم الإلهي، وأنها قد تعرف ما يلقى الأهل والأقربون، وأنها ترقب مجيئهم من دار الغرور إلى دار الحبور، وأنها لا تتكلف تسبيحًا وتحميدًا، فقد أصبح ذلك طبيعة لها كالتنفس لأهل الأرض، نعم نحن نعرف

من كتاب ربنا وسنة نبينا أطرافًا من ذلك الأمر المغيب، وليس وراء ذلك العرفان إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا.

ومع هذه المعرفة المستيقنة فإن المشتغلين بتحضير الأرواح لا بأس عليهم أن يستحضروا روح كارل ماركس ليقول لهم إنه في نعيم مقيم، وكم من كافر حضروا روحه لتعلن سرورها بعالمها الجديد.

ولقد رأيت أن أسترسل وراء هذه الكائنات التي قالوا إنها أرواح تشتغل بهداية البشر، فتتبعت مواعظها، وقرأت ما أملت من كتب وألفت من خطب، فماذا وجدت؟ وجدت من خلال العبارات المحمومة المتلقاة عن طريق الوسطاء أن الروحية دين جديد، له تعاليم جديدة، وسرعان ما وازنت بين هذا الدين وتعاليمه والإسلام الحنيف وما جاء به، فأدركت أن التعاليم الجديدة مجموعة خرافات نبتت من الأرض، ولم تنزل من السماء، وأن من أوحى بها ليسوا أرواحًا هادية وإنما هم مردة الجن.





(٦)

من مزاعم الروحية الحديثة
(٢)

العدد (٢٤) ذو الحجة (١٣٨٦هـ) مارس (١٩٦٧م)

تتضافر الجماعات المشتغلة بتحضير الأرواح على الترويج لديانة جديدة تحل محل الديانات القديمة، وتنسخ تعاليم الأنبياء الأولين، وترسم للعالم طريقًا أخرى تصلح لطوره المعاصر، وتلتقي فيها شتى الأجناس والنحل.

ولا يحتاج المرء إلى عميق ذكاء ليرى أن الروحية الحديثة بما وفدت به من تعاليم تقوم على وحدة الوجود، فالله والعالم شيء واحد.

وعلى تناسخ الأرواح وخلود الحياة المأنوسة لنا الآن، فلا فناء للدنيا، وليس هناك يوم للبعث والحساب العام.

وعلى أن الشرائع القديمة قد استنفدت أغراضها، والروحية الحديثة هي التي ستهدي العالمين بوحيها العصري المتقدم.

ويبلغ هذا الخبل الروحي مداه عندما يكذب رسالة محمد، ويؤكد الإشاعات حول عيسى وصلبه، بل هنا ينكشف القناع عن الأهداف التي تعمل لها الروحية الحديثة، والنيات الاستعمارية التي تختبئ خلفها.. ومن الذي يختلق هذه الترهات ويروج لها، عالم الأرواح الذي اتصل بالبشر فجأة لينير لهم الطريق.. ونريد أن نقف القراء وجها لوجه أمام النصوص التي تشرح هذه الروحية الحديثة، منقولة عن الصحائف التي ينشرها أتباعها، ويتحمسون لها أشد الحماس..

في كتاب للجمعية الإسلامية الروحية اسمه «التوحيد والتعديد»، يقول الروح الرائد لهذه الجمعية «إني صوت منبعث من السماء ينادي أهل الأرض

أن آمنوا بالله.. إني أحمل رسالة هداية من السماء أعد خطواتها بدقة عباد مخلصون لله تجمعوا في ملكوته الأعلى.. إن دوري هو دور رسول يبلغ الرسالة، ولقد جاهدت لأكون أمينًا في إيصال ما حملته» ص ٤٥، ص٤٨.

ثم يقول مسيلمة الجديد، نبي الروحية الحديثة: تذكروا دائمًا أنكم في الله، وأن الله فيكم. واسم هذا الروح الرائد للجمعية الإسلامية الروحية «سلفربرش»، ويقول «سلفربرش» هذا، في كتاب الحكمة الذي تلقاه عنه أتباعه: «نحن جميعًا جزء من الروح الأعظم، وأنتم في مجموعكم مع بقايا الحياة الأخرى تكونون الروح الأعظم، ولا وجود لله خارج هذه المجموعة، ولو أن هذا القول لا يمكنني البرهنة عليه إلا أنه يحسن قبول كلمتي في هذا الصدد» ص٥٢.

وهناك روح آخر اسمه «هوايت هوك» يهيب بالناس قائلًا: «يجب أن نتحد في هذه الحركة، في هذا الدين الجديد! وأن تسودنا المحبة وأن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم.. رسالتي- أي دعوة «هوايت هوك» زميل «سلفربرش»- أن أواسي المحروم، وأساعد الإنسان على تحققه في نفسه من الله سبحانه، الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض! وهو لن يدرك ما في مقدوره حتى يحس بجزئه الملائكي الإلهي... (العدد ١٢٧ من مجلة عالم الروح) وفي كتاب التوحيد والتعديد الذي أوحى به «سلفربرش» يقول: إن اليوم الذي تنتشر فيه التعاليم الروحية في عالمكم سيكون فجرًا ليوم سعيد.. إذ ستزول الفوارق بين الشعوب وتهدم الحواجز بين الأجناس، وتذوب الفوارق بين الطبقات، وتتلاقى الأديان حول حقيقة واحدة كما نبعت من حقيقة واحدة» ص ٥٧.

وهذا المعنى تؤكده مجلة «عالم الروح» في العدد ١٢٦ إذ تقول «إن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية، وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم

الروحي طريقة جديدة للحياة، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته، وسوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد، وبين العقائد والأديان».

وفي كتاب التوحيد والتعديد- تعاليم «سلفربرش»- يقول «إذا كان التعصب للأديان في وهم إقامة المناسك معطلا عن التلاقي في صعيد واحد، وهو معطل فعلا ! فإن الأديان ليست في المناسك، فلتترك البشرية هذا جانبًا، ولنتلاق في مقابلة هذا الأمر الجديد من الاتصال الروحي» ص ١٨٣.

وهذا الكلام المنطوي على استهجان المناسك الدينية واعتبارها مثار اختلاف البشر هو ما يقوله الروح الآخر «هوايت هوك» إذ يصرح بأن «الروحية تحتضن الجميع ولا تستثني أحدًا، يقول الناس في زمانكم إن الطقوس والفرائض عديمة النفع، ولكن طقوسي وفرائضي تنحصر في تدريب الناس على تركيز القوة الروحية».

وظاهر من هذا التوافق أن مروجي الروحية يعملون لغاية مشتركة، وأن العبادات المقررة لا وزن لها عندهم.. وتبدو قيمة النصوص الدينية فيما جاء بكتاب التوحيد والتعديد، إذ يقول الكاتب دون حياء «إن القصص الديني عن آدم ونشأته وزوجه وولده ليس تاريخًا من وجهة النظر العلمي، كما يتوهم بعض المتعصبين للأديان...» إذن ما هو يا مسيلمة الجديد؟

يقول «إنه تكييف تقريبي للعقل البشري عن النشأة بدءًا من الفرد ذكرًا كان أم أنثى، وعن تكرار هذه النشأة في عوالمها، سواء على هذه الأرض، ومنها كانت النشأة ابتداءً ومظهرًا، أو بالارتداد من عالم الروح بعثًا.. فآدم الحقيقة عليها وآدم الخليقة منها أمران تصويريان للعقول لا يدرك لهما أول ولا يعلم لهما كنه ولا ينقطع لهما فعل أو وجود» ص١٠١.

وهذا كلام ساقط مفترى من أوله إلى آخره وهو ترديد لفكرة تناسخ الأرواح، وخلود الدنيا وإنكار الجزاء، وهو إلغاء لرسالات السماء كلها، وطعن خبيث في قواعدها ومناهجها وأخبارها ووصاياها.

والغريب أن هذا الهدم الديني العام الوافد من أوروبا يتلقاه ناس منا على أنه فجر روحي جديد، ويقول عنه مستشار قانوني يرأس جمعية إسلامية روحية: «إذا كان الاتصال الروحي في هذا العصر يأتينا ممن أسميناه الغرب فإن الله اليوم يأتي بالشمس من المغرب كما جاء بها قديمًا من المشرق».

وهذا كلام هزل، فإن هذه الروحية المزعومة حرب على الله والمرسلين، ولا نشك في أن الحاقدين على الإسلام الكارهين لأمته، المعوقين ليقظته، هم الذين يدبرون مؤامرتها وينسجون حبالتها.

وللاستعمار الثقافي أساليب ماكرة خفية لتدويخ الفكر الإسلامي، وبث الفوضى في جنباته، والدعوة إلى الروحية الحديثة بعض هذا الهجوم على حقائق الإسلام وتعاليم نبيه، واسمع إلى ما يقول الدجال «سلفربرش»- وهو الروح المرشد لبعض الجمعيات عندنا- في كتابه «الحكمة العالية» «مازال المسيح في عالمنا هو أعظم من نعرف، ولم يحدث قبل يومه أو بعده أن ينزل الإلهام الإلهي إلى الأرض بالقدر الذي نزل عليه».

ثم يستتبع هذا الدجال تكذيبه لنبوة محمد فيقول: «كان عيسى آخر الأنبياء والمعلمين، ذاك الذي ولد من أبوين يهوديين» ص ٥٣.

ثم يزعم أنه صلب لأنه بشَّر بتعاليم تخالف كنيسة عهده ص ٤٦.

ومن غرائب الروحية الحديثة أنها توافق أخس المذاهب المادية في مهاجمة الأديان السماوية والطعن عليها، خصوصًا الإسلام، فيقول «سلفربرش»: لا توجد جنة ذهبية ولا جهنم نارية، إنما هذا هو تصور هؤلاء المحدودي النظر.. لا تقيدوا أنفسكم بكتاب واحد ولا معلم واحد ولا مرشد واحد، فولاؤنا لا لكتاب ولا لدين ولا لعقيدة، ولكن للروح الأعظم وحده.

ولكي يزين للناس التحلل من عقيدة الإيمان بالله يقول:

حيثما ينتقل الإنسان للعالم الآخر فلا عبرة بما كان يظنه أو يعتقده، وإنما

العبرة بما أداه من خدمات للعالم، فحينما يهوي الجسم المادي إلى الأرض، فكل عقائد الجنس البشري التي قاتل وجاهد من أجلها طويلًا وتفرق شيعًا وأحزابًا تبدو جوفاء وعبثًا لا معنى له ولا هدف، لأن هذه العقائد لم تساعد على تزكية الروح ذرة واحدة. ص ٢٨، ١٢٤، ١٤٩ - كتاب «الحكمة العالية». وينكر «سلفربرش» فكرة بدء الخليقة، كما ينكر أيضًا فكرة نهاية الخليقة فيقول: لا أستطيع القول إنه يومًا ما لم يكن هناك ضوء، ثم وجد في اليوم التالي، إن عالمكم ما زال يحتفظ بفكرة أن الخليقة بدأت على مثال ما ورد في قصة جنة عدن، هذا ليس صحيحًا.

لقد كان هناك دوامًا تطور في عمل مستمر، ليس حقًا أن الكون كان معدومًا ثم بدأ فجأة، الكون كان دائمًا موجودًا، نحن نعرف أن الكون لا بداية له ولا نهاية (ص ١١٠ - كتاب الحكمة العالية).

وهكذا يتضح لنا أن كل ما يقول دعاة هذه النحلة الخبيثة من أن دعوتهم تؤيد العقيدة الدينية وتدعمها إنما هو ضرب من الخداع والدجل.

ويعلنها «سلفربرش» هكذا بصراحة وجلاء فيقول: لا يهم إذا كان الرجل مسيحيًّا أو كافرًا، المهم هو ما يفعله في حياته.

أعطني الرجل الذي لا يعتنق أي دين، الذي لا يركع لذكر اسم الله، ولكنه أمين، ويحاول أن يخدم، ويمد يده للضعيف، ويساعد الكلب الأعرج، الرجل المملوء شفقة للمنكوبين، والذي يعاون من هم في ضائقة بحرارة، ذلكم أكثر تدينا ممن ينتسب إلى أي دين. (ص ١٠١ - كتاب الحكمة العالية) وهكذا يروج الإلحاد تحت ستار التنويه بمكارم الأخلاق.

كأن الدين عد الفضائل نافلة، أو كأنه لم يتوعد بأشد النكال طوائف الكذبة والخونة، ومانعي الخير، وكارهي الناس.. ولكن الروحية الحديثة تحتال للقضاء على الدين كله، وخصوصًا الإسلام، بوضع مبادئها في إطار براق من حب الإنسانية والعطف عليها، ومن المتاجرة ببعض الكلمات المطاطة

في هذا المجال المفتعل، مع أن الإنسانية حين تكذب الوحي، وتتنكر للمرسلين، وتهمل أوامر الله ونواهيه تنسلخ من فطرتها، وتهوي إلى أسفل سافلين.

وما قيمة العالم كله يوم يجهل ربه، ويهمل هداه؟

ونتساءل: أرواح مَنْ مِنَ الموتى هي التي تبنت إبلاغ هذه الرسالة الخسيسة لأهل الأرض؟ أرواح الصالحين من المؤمنين؟ كلا، فهؤلاء عرفوا الله عن طريق موسى وعيسى ومحمد، فيستحيل أن يخرجوا على كتبهم، ويتنكبوا طريقهم، ولو أتيحت لهم - جدلًا - فرصة العودة إلى الأرض، والعودة إليها بعد الموت مستحيلة، لما دعوا الناس في هذا الزمان إلا إلى اتباع محمد، والأخذ من قرآنه وحسب.

أهي أرواح الفجرة من العصاة؟ كلا، فهؤلاء بعدما غادروا الحياة ملكتهم حسرة قاتلة على زيفهم أيام الدنيا، ثم هم في أيدي حراس غلاظ شداد، قد أمسكوا بخناقهم توطئة لحساب شاق.. فكيف يتصور أنهم عادوا إلى الحياة الدنيا عن طريق الاتصال الروحي يستأنفون التزوير والتضليل؟

إننا لا نشك في أن مبادئ هذه الروحية الحديثة هي من عبث مردة الجن، الذين استغفلوا نفرًا من أبناء آدم، واصطادوهم إلى هذه المجالس، مجالس الأشباح والأوهام، أو مجالس تحضير الأرواح، كما يقال، ليملوا عليهم هذا المنكر من القول.

وما أكثر عبث الجن بالإنس! وأوسع طرقه! ولذلك يندد القرآن الكريم بأطراف هذه الفتنة فيقول: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ **(الأنعام: ١٢٨)**.

ولا غرو فإن الشيطان يستحلي إغواء أبناء آدم، كما يستحلي أبناء آدم أكل السحت وارتكاب الزنا.. وعقبى هذه المتع كلها جهنم.

وفي عصرنا هذا أخذت سخرية الشياطين من البشر هذه الطريقة التي لم تؤلف من بدء الخليقة، فطلع علينا من يزعم أن أرواح الموتى اتصلت به لكتابة ونشر دين جديد للناس، واستمعنا إلى أبواق الظلام، فإذا هي تجدد الوثنيات القديمة، وتحارب هدايات الله، وتصد عن قرآنه العظيم، الكتاب الذي استوعب الوحي كله، والأثر الفريد الباقي الذي يقدم لعباده الحق الخالص النقي.

ولئن كنا نستنكر التعلق بما يسمى مجالس تحضير الأرواح على الأجانب الجهلة بالإسلام، إننا لنستغرب من بعض المسلمين عدم مبالاتهم بالموضوع ونتائجه، فربما سمح أحدهم لنفسه- طمعًا في استكشاف غيب أو إبراء مريض- أن يحضر هذه المجالس، وربما وضع الجن له طمعًا في كلمة تصدق أو حاجة تقضى فيلقي لها زمامه كله، فإذا هو بعد حين ناكب عن الصراط المستقيم.

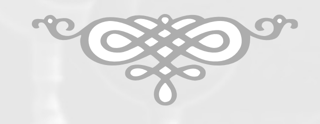
وللجن قدرة أبعد مدى من قدرة البشر، إنهم يغزون الفضاء بطاقاتهم العادية من زمان قديم، ولكنهم لا يعلمون الغيب.

وما يكون غيبًا أحيانًا بالنسبة لنا قد يكون عيانًا بالنسبة لهم، والحدأة لا تعلم الغيب إذا كانت ترى من الجو ما لا نراه نحن تحت أقدامنا.

فإذا استطاع شيطان أن يعرف بعض ما نجهل، عن الأشخاص أو الأشياء- وهي معرفة محدودة، وقد تكون مغلوطة- فليس هذا علمًا بالغيب.. وبالتالي فإن ما يثرثر به في مجالس التحضير لا يدل على شيء ذي بال، ولا يسوغ أبدًا أن يكون ذريعة لترك ما نعلم من شرائع الإسلام.. لكن هذه المجالس للأسف ولدت لنا في هذا العصر مسيلمة آخر، وسجاحًا أخرى، والجنون فنون..

إننا نحن المسلمين نؤمن بالمادة وبما وراء المادة، نؤمن بالحياة الحاضرة وبالحياة المقبلة، ولإيماننا مصادر وثيقة من كتاب معصوم وسنة مضبوطة، ولا يليق بنا أن نأذن للأوهام بأن تتسرب إلى هذا الإيمان.. ثم إن الأحكام الشرعية عندنا تفرق تفريقًا حاسمًا بين اليقين العلمي، والظن العلمي، والرأي العلمي.. وهي تستبعد ابتداء الرؤى والإلهامات من مصادر المعرفة الشرعية العامة.. والعيب المأخوذ على بعض المتدينين، والذي قد يصيب الدين نفسه إصابة جسيمة، أنهم يخلطون في سلوكهم وفهمهم بين الرأي واليقين، أو بين الأحلام والحقائق.

ونحن ننصح المسلمين أن يحذروا على أنفسهم من هذا الخلط. والله ولي التوفيق.



(٧)

التصوّف الذي نريده

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) يوليو (١٩٦٧م)

مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملًا وتأملًا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب..

والإسلام المكتمل ليس «نظرية» علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال.

إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير، مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح.

وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ ...﴾ (**الحجرات: ٧، ٨**) ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية... نعم يوجد ناس لهم عقول ذكية وسير هابطة، ولا نشك في أن هؤلاء مرضى، والأدواء التي أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء، والمفروض أن من يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئًا ما معرفة حسنة، ثم يجيء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل، وهذا التناقض ضرب من الجنون الذي يرى في كل مكان، ولا يودع أصحابه مستشفيات المجانين!

إن الأمراض التي تعتري الشخصية الإنسانية كثيرة جدًا، وهذا الجنون الجزئي هو ما أشار إليه القرآن الكريم في تقريعه للأشرار من العلماء: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (**البقرة: ٤٤**).. نعم فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف!

لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق، ما يعترض التيار الكهربائي عندما ينقطع السلك الحامل له، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الانطلاق إلى مداه.

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

أما الثروة الطائلة من النظريات والفقر المدقع في المشاعر النبيلة والاتجاهات الكريمة فليس تدينًا مقبولًا.

والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟

وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

كيف نجعل المرء مشتاقًا إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته؟

وكيف نجعله هيابا لذاته؟ فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته، ويفزع من مساخطه.

كيف يشهد المرء ربه في مجالي السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا السؤال.

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف

الناس على حدوده وحقائقه، فأي العلوم أكثرت بهذه الأسئلة وطال نفسه في الحديث عنها؟

إنني لست متصوفًا، وما أحب أن أنتسب إلى فرقة من فرق المسلمين.. بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين، وأن المتصوفة- برغم شطحاتهم وغلطاتهم- هم الذين أفاضوا في هذا الحديث.

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية، وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلهية المغيبة ما كان يعييهم أن يحببوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته بأسلوب علمي محكم.

لقد كان ذلك والله أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العقيمة في الذات والصفات!

إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقياه ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم.

ولنسأل أنفسنا أولًا، ما هي مصادر ثقافتنا الخاصة؟

تعتمد الثقافة الذاتية، أو الثقافة التقليدية للمسلمين على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، على هذين الأصلين تقوم علوم الدين، وإليهما كذلك تستند علوم الحياة وفنونها.

وفي عصرنا الأول استطاعت شُعب الثقافة المختلفة أن تقيم حضارة متوازنة الجوانب متكاملة الغايات.

وعندما ننظر إلى عالمنا المعاصر نجد أن شجرة العلوم والفنون تتفرع في أرجائه المختلفة، وتظلل أنحاءه البعيدة في اتساق يستحق التنويه.

هناك العلوم الآلية والرياضة، وهناك الفلسفات والآداب، هناك علوم التربية والأخلاق، وهناك أبحاث القانون وشرائعه الخاصة والعامة، ولكل ميدان أسلوبه في صوغ حقائقه وتقرير أدلته.

ومع الإنصاف وبعد النظر لا يزعم رجل في هذه الميادين أنه أحق بغيره من الحياة، وأنه يغني كل الغناء عندما يزول سواه.

نعم، للقوانين مثلًا مكانها الوطيد في المجتمع، ولكن هل معنى ذلك أن الدنيا تستغني عن الوعظ والتربية؟

وفي ميدان القانون قد يشتجر عالمان على صياغة عبارة، وقد يختلفان في بقاء أو حذف حرف من حروف الجر.. وذلك بديهي في ميدان تضبط فيه الحقوق، وتحرس الدماء، ويفصل في الخصومات.

فهل معنى ذلك أن المجالات القائمة على المعنويات المحضة وملاحظة النفس الإنسانية تفقد قيمتها؟

كلا! إن عالمنا الحاضر تجاور فيه الباحثون عن أسرار الفضاء إلى الباحثين عن المعادن في أغوار الأرض، وتجاور فيه قول الشعر إلى تفتيت الذرة.. والحياة تسع الجهاد الأدبي والعلمي لتلك الفئات كلها! ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...﴾ **(البقرة: ١٤٨)**.

والدراسات العلمية عندنا يجب أن تنسق ذات بينها حتى تستأنف كفاحها النبيل لخدمة الإسلام وإبلاغ رسالته، ولا معنى لخصومة بين فرع وفرع وميدان وميدان.

غير أننا لحظنا آسفين أن الفقهاء والمفتين قديمًا اشتبكوا في منازعات حادة مع المتصوفة والعباد، وأن كلا الفريقين تجهم للآخر، ولم يستفد مما عنده.

وكانت نهاية القطيعة بين الفريقين أن وجدنا فقهًا لا روح فيه، وفقهاء لهم سمت الدين وليس لهم قلبه الحاني الطيب، وأن وجدنا تصوفًا لا دراية له،

ومتعبدين تحفل سيرتهم بالخرافات والبدع.. وفي العصر الأخير كادت علوم الدين تنقطع علائقها بالكتاب والسنة إلا بقايا من النظر الكليل والتطبيق القليل، والأمر يتطلب عودًا سريعًا إلى هذه الأصول واستمدادًا مباشرًا منها.

قد تقول: إن هذا التصوير غير دقيق، وإنك واهم حين تتهم علماء الكلام والفقه بأنهم قصروا في ميدان التربية وغرس التقوى والأنس بالله في نفوس الناس وأن هذا الفراغ المتروك هو الذي ملأه المتصوفة.. وأرى أن الموضوع يحتاج إلى مزيد إيضاح:

إن علماءنا الأوائل كانوا يجمعون بين سعة العلم وصدق الصلة بالله، والأجيال التي استمعت إليهم كانت تفيد منهم الأمرين معًا.. نضارة القلب المتجه إلى الله، وإشراق الفقه الذي يضيء الطريق إليه..فهم علماء ومربون في وقت واحد..

وإني لأرمق بإجلال وحب رجلًا مثل البخاري.. بدأ كتابه الصحيح بحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»

وختمه بحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

كان وجه الله هدفه أول سطر خطه، وكان وجه الله أمله، وحمده وتنزيهه شغله آخر سطر خطه، وبين البداية والنهاية أودع الرجل علمه الغزير وحفظه الكثير..

والبخاري معروف بأنه من علماء السنة، بيد أني أظلم الرجل وأشباهه من الأئمة حين أجعلهم علماء متخصصين في فرع واحد من علوم الشريعة على النحو الذي اصطلح عليه الأخلاف.

فالبخاري- في نظري- عالم بالإسلام كله، من تفسير وحديث وفقه وعقيدة وسيرة... إلخ.

والميزة التي غلبت عليه وشهر بها لا تدل إلا على تفوق فقط في هذه الوجهة من الدراسة أو على عناية بها فرضتها الظروف المحيطة.

ومثل ذلك يقال في الخلفاء الأربعة، والأئمة الأربعة، ونظرائهم.

فعمر حاكم وواعظ ومرب وفقيه وليس رجلًا سياسيًا فحسب..

وأبوحنيفة فقيه وسياسي وداعية إلى الله، وليس رجل دراسة فقهية فقط.. والاستقاء المباشر لهؤلاء من الكتاب والسنة جعلهم يتركون فيمن حولهم جملة المعارف والانطباعات التي يتكون منها المجتمع الإسلامي الناضج الوعي، الراشد السلوك.

إن اتصال أرواحهم بالوحي الإلهي، واستضاءة ضمائرهم بصاحب الرسالة، جعلهم على اختلاف وظائفهم العلمية والعملية رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار، جِنًّا في القدرة على الحياة، ملائكة في قيادها باسم الله.

وهذا الضرب من الناس أسمى من أن يصاغ أو يقاس بالمصطلحات العلمية الحديثة.

وجهد علوم الدين بعد أن تفرعت أنهارًا شتى من الينابيع الأولى كجهد علوم الطب التي تستهدف-مع كثرتها- صيانة البدن الإنساني.. إن هذه العلوم المشتقة من الكتاب والسنة تلتقي جميعًا عند تكوين الإيمان ومطالبه.

ولا بد أن يكون من بين هذه العلوم، علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التي تحجب المرء عن ربه، وتلصقه بالتراب، أو التي تهتم بأشكال العبادات ولا ترتبط بمعناها وحكمتها.

ما يكون اسم هذا العلم؟ لا يهمني ذلك، لنسمه التصوف، أو لنتخير له ما نستحب من عناوين.. فالأمر سواء. إن شر ما يصيب المتدينين هو تحول الطاعات إلى عادات تؤدى في غيبة العقل وغفلة الشعور.

والمراسم الدينية- والحالة هذه- معطوبة الثمار، وربما بقيت وبقي إلى جوارها طبع لم يهذب، وخلق لم يقوم.

ما الذي يوقظ القلب الغافي، ويعيد إليه حرارة الحياة ونشاطها؟

إن تعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم وآمالهم إلى الله جل جلاله، شيء خطير، ولا بد من إقامته على أسس فنية محترمة.

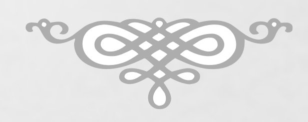
وفي عصرنا هذا لا بد من الاستعانة بمقررات علم النفس، والاستعانة بما في الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور، ولا أحسب أحدًا يماري في حاجة الناس إلى هذا اللون من المعرفة والتربية.

والنزاع الذي نشب قديمًا بين خصوم التصوف وأصدقائه لا يتصل بما نحن فيه، إنه كان نزاعًا على قيمة بعض التصرفات والأقوال التي يجب أن تخضع للمقررات الإسلامية.

وإني أعترف بأني حسنت صلتي بالله كثيرًا على أثر كلمات قرأتها للغزالي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم وابن عطاء الله السكندري مع ما بين أولئك جميعًا من تفاوت المشرب واختلاف النظرة..

وقد نستطيع التعرض لما تفاوتت فيه أحكامهم، لكن ما أؤكده هنا هو أن المعنى الذي شرحناه آنفًا قدر مشترك لدى الجميع، وأننا في هذه الأيام بحاجة إلى تجديده وتجليته..

إنه معنى يشع من الكتاب والسنة أولًا وآخرًا ويجعل عالم الإيمان براقًا بالحب، مزدانًا بمعية الله في الغدو والآصال..





(٨)

أشرف وظائف المرأة

العدد (٣١) رجب (١٣٨٧هـ) أكتوبر (١٩٦٧م)

التلطف مع الإناث والرفق بهن آية اكتمال الرجولة ونماء فضائلها، وهو أدب يبذل للنساء عامة سواء كن قريبات أم غريبات، كبيرات أم صغيرات، ومع استقامة الفطرة الإنسانية قلما يتخلف هذا المسلك العالمي.

وليس مرده- فيما نرى- الرقة لضعف المرأة وإسداء الجميل لها، بل مرده إحساس الرجال بأنهم أهل الثقة وموضع الفضل، وأنهم عند حسن الظن إذا طلب الضعيف الحمى أو طلب القلق الأمان!

والغربيون يترجمون هذا الإحساس بتقديم المرأة على الرجل في الخطاب، وتقديمها عليه في الدخول والخروج والجلوس وغير ذلك، وهو ضرب من المعاملة ظاهره الإيثار، وإن كان باطنه مثقلًا بالأوزار.

ونريد أن نتأمل في أساليبنا- نحن العرب والمسلمين- مع المرأة، وأن نقابل بين ما انتهى إليه الإسلام في هذا الشأن وبين ما وصل إليه مفكرو الغرب، ونقدة الحضارة الحديثة، ومن الخير أن ننفي أولًا زعمًا شاع بين الناس أن العرب في جاهليتهم كانوا يهينون الأنثى، ويغضون من مكانتها، نعم هناك سفهاء صنعوا ذلك وعرفوا به، بيد أن الأمم لا تؤاخذ جملة بما يقترفه رعاعها، كيف والشعراء العرب ما كانوا يفتتحون قصيدهم إلا بالغزل؟ مستعرضين شمائلهم أمام من أحببن، أو متغنين بمآثر نسائهم خلقًا وخلقًا، واسمع لعمرو بن معدي كرب يقول:

لما رأيت نساءنا	**يفحصن بالمعزاء شدا**
وبدت لميس كأنها	**بدر السماء إذا تبدى**
وبدت محاسنها التي	**تخفى وكان الأمر جدا**
نازلت كبشهم ولم	**أر من نزال الكبش بدا**

وعمرو الذي يرغب أن يبدو في أشرف أحواله أمام حبيبته بدأ قصيدته تلك بقوله:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معــادن ومناقب أورثن مجدا

ويقول عمرو بن كلثوم، يصف نساء قومه وموقفهن عند احتدام المعارك:

على آثارنــا بيــض حســـان نحــاذر أن تقسم أو تهــونا
ظعائن من بني جشم بن بكر خلطن بميسم حسبا ودينا
يقتن جيادنا ويقلن: لســتم بعــولتنــا إذا لــم تمنعــونا

وليس يزري الأمة العربية إن كان بها من وأد البنات، ففي عصرنا هذا، وفي أزهى عواصم الغرب يظهر بين الحين والحين سفاحون مولعون بقتل النساء خاصة، بعد ختلهن بالألفاظ المعسولة، وبعد قضاء ما يبغونه من وطر، وهذه المآسي الفردية لا تتحمل سعة الدلالة، ولا يعدو عارها مرتكبيها.. واحترام العرب لنسائهم جاء ثمرة نضج الذكور، وعرفان الأنثى لوظيفتها الصحيحة، فالمرأة إما زوج حانية أو أم مربية، أو في طريقها إلى هذا المصير النبيل.

ووظيفة «ربة البيت» من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا من استكمل لها أزكى الأخلاق وأنقى الأفكار.. أليست هي حضانة الأجيال الجديدة وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتًا حسنًا؟ إن تصور المرأة في البيت إنسانًا قاعدًا لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأسرة، وتصور ربة البيت إنسانًا يجيد الطهي والخدمة فقط ضرب من السلوك الحيواني عرفته الأمم إبان انهيار حضارتها وسقوط مستواها العام.

ولقد كانت المرأة في صدر الإسلام- كما سنرى- ربة بيت من طراز رفيع، وما منعها ذلك من أن تكون في قمة الثقافة والاستقامة الاجتماعية، والنهوض بأمتها والانتصار لدينها.

جاء الإسلام العظيم، ومست رحمته حياة المرأة، فرد عنها طغيان القساة من الرجال وحرر إنسانيتها روحًا وجسدًا حين أتاح لها أن تتزود من العلم ما تشاء، وحصن حقوقها المالية حتى لا تذهب بها أثرة الأقرباء أو الغرباء، وربطها برسالة الأمة الكبيرة ودعوتها العامة، فهي في السلم أو الحرب عنصر فعال، وظهير قوي، وفي نطاق تعاليم الإسلام لا يقل وعي المرأة عن الرجل بقضايا الدين والدنيا، وما كان نساء الصحابة والتابعين جاهلات بكفاح الإسلام في أرجاء الجزيرة ضد الوثنية، أو جاهلات بكفاحه بعد ضد الفرس والروم.

ولكن توزيع الأعباء أعطى كلا الجنسين نصيبه من العناء دون تعسف، والإسلام يعرف المرأة قبل كل شيء ربة بيت وزوجة بطل وأم شهيد.. ويرفض تجنيد النساء للترفيه كما فعلت أوروبا في حربها الأخيرة، وكما تفعل في سلمها.. والملامح النبيلة للمرأة المسلمة تراها في الخنساء، التي جاهدت في حرب فارس، وحضرت موقعة القادسية الهائلة.. اشتركت بأبنائها الأربعة، وقبل أن ينزلوا ساحة الوغى، جمعتهم وزودتهم بنار من الإيمان، ونور من اليقين في كلماتها الخالدة المأثورة.

إن رائدات النهضة النسائية في بلادنا أقصر باعًا وأنزل رتبة من أن يفقهن هذا المثل.

فإحداهن تكره أن تكون أمًا لأربعة ولو فرضت عليها الأقدار أمومة أربعة ما أحسنت حضانتهم وتربيتهم وتوصيتهم حتى يبلغوا هذه الذروة.

إنها تريد أن تكون «رجلة» تتولى عملًا في المجتمع من هذه الأعمال التي تليق بالجنس الخشن، ولو أدركت ما ترجو ما نفعت نفسها ولا أمتها بشيء طائل.

وعندما يقال لها: تستطيعين صناعة المستقبل كما تبغين عندما تحسنين تبعل الرجل، وتنشئة الذرية الوافدة، يتورم أنفها ضيقًا وغيظًا. وربما قال قائل: هي في ذلك على حق، ويجب تذويب الفوارق المفتعلة بين الذكورة

والأنوثة، وترك المرأة تلج كل ميدان وتلي كل عمل، ويجب التغاضي عن ضعفها الموقوت، لأنه أثر القيود التي شلت حيويتها من قديم، وعندما تستوي مع الرجل على الركب وتتكافأ أمامها الفرص فلن تكون الأنوثة عائقًا عن منصب ما.

ونحن لن نرجع إلى الفقهاء الأقدمين نستلهمهم الإجابة على هذه الشبهة، وإنما نقتطف نبذًا من كلام العالم الفيلسوف «الكسيس كاريل»، فيها من الحقائق المقررة وما يدحض هذه الأوهام، قال: «للغدد الجنسية وظائف أخرى غير الدفع لإتيان عمل من شأنه حفظ الجنس، فهي تزيد أيضًا من قوة النشاط الفسيولوجي والعقلي والروحي.. فليس هناك خصي أصبح فيلسوفًا عظيمًا. أو عالمًا خطير الشأن أو حتى مجرمًا عاتيًا، لأن للخصيتين والمبايض وظائف على أعظم جانب من الأهمية.. إنها تولد الخلايا الذكرية والأنثوية وهي في الوقت نفسه تفرز في الدم مواد معينة تطبع الخصائص الذكرية أو الأنثوية المميزة على أنسجتنا وأخلاطنا وشعورنا، وتعطي جميع وظائفنا صفاتها من الشدة، فالخصية تولد الجرأة والقوة والوحشية، وهي الصفات التي تميز الثور القاتل عن الثور الذي يجر المحراث في الحقل.. ويؤثر المبيض في جسم المرأة بطريقة مماثلة، ولكن عمله يستمر فقط إبان جزء من حياتها، فحينما تبلغ المرأة سن اليأس تضمر الغدة بعض الشيء، وحياة المبايض القصيرة تجعل المرأة المتقدمة في السن أكثر ضعفًا من الرجل الذي تظل خصيتاه نشيطتين حتى سن متقدمة جدًا.

إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ إنها طبيعيًا أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محدودة يفرزها المبيض، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليمًا واحدًا، وأن يمنحا قوى واحدة ومسؤوليات متشابهة.. والحقيقة

أن المرأة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرجل، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. الأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي، فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين مثل قوانين العالم الكوكبي، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعًا لطبيعتهن من غير أن يحاولن تقليد الذكور، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب عليهن أن يتخلين عن وظائفهن المحدودة.

وهذا الكلام القائم على دراسة طبية ونفسية للجنسين معا هو الشرح الدقيق لقول رسول الله ﷺ «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال».

إن انسلاخ أحد الجنسين عن فطرته ليلحق بجنس ليس منه حرب على الطبيعة، والتواء بالأمور عن مجراها الصحيح، ولن يفيد العالم من ذلك إلا الخلل والفساد..

ومع رفضنا للنزعات المادية الواقعة في هذا الخطأ فنحن أحيانًا نلتمس عذرًا لأصحابها!

إن هناك صورة قائمة لأحوال المرأة في بعض المجتمعات تجعل الفزع منها يغري بالفرار إلى أي وجهة.

صورة امرأة تلهث وراء رجل يمتطي دابته، أو صورة امرأة تأكل ما بقي من فضلات الغذاء بعد شبع غيرها، أو صورة فتاة مقهورة الإرادة تتزوج ممن تكره أو محزونة فاقدة الميراث، لأن أهلها بطريقة ما حرموها إرثها، أو صورة بلهاء صفر العقل لا تعرف من علوم الدين ولا من علوم الدنيا شيئًا.

أو أنه لا وزن لحياتها ولا لجهدها ولا لرأيها، لأن البيئة التي أنبتتها جعلتها كذلك شخصًا كَلًّا على مولاه أينما يوجه لا يأت بخير!

هذه الصور التي التبست بأوضاع المرأة في بعض المجتمعات وحسبها المغفلون دينا وما هي بدين، بل هي رذائل ومحرمات يسخطها رب العالمين.. هذه الصور هي التي أطاشت الألباب القاصرة، ودفعتها إلى الأخذ من الحضارة الحديثة دون تبصر.

ونحن نغار على مكانة المرأة المسلمة، ونريد أن تسلم من لوثات عبيد الغرب، كما تسلم من لوثات الجامدين المقلدين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

كان يجب أن نهدي الثناء المدنية الحديثة لو أنها- حين اعترفت بإنسانية المرأة- دعمت جانبها الضعيف وحفظت حقوقها المهدرة وردت عنها عدوان من ضنوا عليها بالعلم والمال، والإسهام بحظ واضح في رعاية المصالح الخاصة والعامة.

لكن المدنية الحديثة- وشارتها الأولى عبادة الحياة- أدخلت المرأة في المجتمع بطريقة مريبة!

فبدلًا من أن تحصن أنوثتها ضد العبث تعمدت إطلاق الجانب الحيواني في البشر، وجعلت من أنوثة المرأة فتنة تبعثر الإثم في كل مكان! فالملابس لا بد أن تكون قصيرة تكشف ما فوق الركبة، ضيقة تبرز الصدر والأرداف، مثيرة تغري بتفصلها وتقسيمها على النظر الحرام والفكر الحرام.. والتقاليد التي أقرتها هذه المدنية الحديثة أن المرأة تظهر في الأحفال الساهرة شبه عارية، وأنها ينبغي أن تطعم وترقص مع شخص آخر غير زوجها! وأقطار الغرب في أوروبا وأمريكا ترى أن المتعة الجسدية في كل صورها حق طبيعي للفتى والفتاة.. وفرص التلاقي لإرواء الغريزة الجنسية، سواء بالزنا أو بما دونه، متاحة لمن يشاء.

وإذا كانت البيئة المؤمنة تفرض القيود على الملابس، وتباعد بين أنفاس الذكور والإناث إلى أن يلتقي الرجل بالمرأة في بيت الزوجية، فإن المدنية

الحديثة تعمل بدأب غريب على إثارة الشهية الجنسية بالليل والنهار، في البر والبحر.. وتستفز الغرائز الساكنة لتدفعها دفعًا إلى الاستمتاع الميسور، محظورًا كان أم غير محظور..

إنها مدنية تنشد اللذة وتطوع لها كل شيء، والمسحورون بها يحق فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ **(الإنسان: ٢٧)**.

ولما كانت الطبيعة البشرية قد تسكن إذا نالت ما تشتهي أو قد تهدأ إذا ألفت ما ترغب فإن زبانية النشاط الجنسي يكدون قرائحهم لخلق أزياء وأوضاع جديدة تلهب الذئاب الجائعة لتنطلق في كل فج وهي تصيح: هل من مزيد؟

ومن الحق أن نقول: إن الأديان السابقة كانت أعجز من أن تقف السيل الطام.

فقد كان الإنسان بذكائه العقلي أكبر منها وأمنع من تصديق نقائضها، كما أن ميوله كانت أشرس من أن تنقاد لتعاليمها الباهتة.. أما الإسلام فكان غافيًا في بلاده محتبس الضوء بين حكام الجور، وعلماء السوء، وعباد الغفلة! ومن ثم انطلقت المدنية الحديثة في طريقها لا تلوي على شيء، تطلب اللذة على ظهر الأرض من كل سبيل، وترى المرأة أولى هذه اللذاذات التي ينبغي أن تشبع فتتملاها كل عين.. وتلمسها كل يد.. والمدنية الحديثة الآن تفرض نفسها على القارات الخمس، ويكافح بعض المسلمين في جو مربد لينقذوا أقطارهم من هذا الشرود الجنسي الطافح، ولكنهم- إلى يوم الناس هذا - يحاربون في معركة انسحاب!

إننا نرفع صوتنا عاليًا بأن من حق المرأة أن تتعلم، ولا يستطيع أحد أبدًا أن يحرمها هذا الحق.. لكن من قال: إن التبرج والاختلاط ضرورات لا بد منها في الجو العلمي؟ وإذا كان الإسلام يأذن باختلاط ما في بعض المواطن

فهو اختلاط مصحوب بالحشمة والحياء وغض البصر وتقوى الله.. وهو يرفض بتة كل اختلاط يسمح بأن يخلو رجل بامرأة.. وبالتالي فهو يستنكر أحفال العري والمجون التي عرفتها وأشاعتها المدنية الحديثة.. وللمرأة أن تعمل في وظائف مناسبة، وفي ظروف خاصة، لكن على أساس أن عملها الجليل العتيد أن تكون ربة بيت وسيدة أسرة وأن يكون جو العمل غير ما تألف المدنية الحديثة.. فلا يليق حشر المرأة عارية الأذرع والسيقان في صفوف الرجال!

ولا يليق توظيفها لتعرض أوراقًا على مدير يختلي بها إذا شاء.. ونحن نعرف أن المرأة في أوروبا وأمريكا اشتغلت بالمصانع والحقول والشركات والجامعات لكن حصاد اللقاء البعيد عن معرفة الله واتباع شرائعه كان مرًّا.

إن المرأة قد تعمل إذا احتاجت لعمل أو احتاج إليها المجتمع.. ما يصدها عن ذلك أحد..

أما الزعم بأنها والرجل سواء في القدرات المادية والمعنوية فذلك ما ننكره، كيف وهي تلد وترضع؟ وحملها لولدها وحضانتها له يأخذان منها جهدًا مضنيًا.

ثم هي- من غير الحمل ونتائجه- تراح من العبادات المفروضة في دورات شهرية منتظمة، فكيف تكلف بالأعمال العادية وينتظر منها أن تساوي الرجل في الإنتاج؟

ولندع ذلك كله.

إن المشكلة ليست في عمل المرأة أيا كان نوعه! المشكلة في جو ذلك العمل! ولون المجتمع العام الذي يتم فيه، وهنا تبرز طبيعة الإسلام دون غضاضة.

فالإسلام دين يكلف الرجال والنساء بصلوات خمس كل يوم، وعندما تؤدى هذه الصلوات في جماعة- ولابد في كل أمة مسلمة من قيام هذه الجماعات من الفجر إلى العشاء- فإن الرجال يملأون الصفوف الأولى والنساء يملأن الصفوف المؤخرة.

وعلى النساء أن يخفين زينتهن وأن يرتدين ملابس سابغة، وعلى كلا الجنسين أن يغض طرفه إذا رأى الآخر! فإذا حدث أن نظر شخص إلى غيره نظرة مريبة وجب على من لاحظ ذلك أن ينهاه عن الإثم وأن يذكره بالله.. ومعنى هذا كله أن الاختلاط بمدلوله الواسع في المدنية الحديثة يأباه الإسلام إباء تاما ويرفضه رفضًا حاسمًا.

إن الجو الذي تعمل فيه المرأة هناك، في أوروبا وأمريكا، جو التكشف، وإبداء المحاسن، واختيار الأصدقاء، وحرية التلاقي والاختلاء، وحرية الجسد كما يقولون، أو جو نبذ الدين ظهريًا واجتياح حدوده دون نكير.. هذا الجو يستحيل أن يقبله الإسلام أو يرضى بدفع المرأة إليه.

إن الأسرة ذابت في أقطار أوروبا وأمريكا تحت اللهب الجنسي المشتعل في هذا الجو، وبقاياها التي لا يزال بها رمق لا تدل على خير، ولا تطمئن على غد طهور.

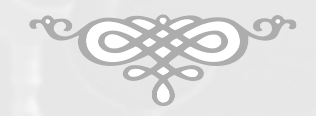
والمسلمون في فترة عصيبة من تاريخهم.. لقد داس الاستعمار بلادهم وسخر من تقاليدهم وترك طابعه الخاص على أغلب شؤونهم، وهناك كثيرون ينقمون على وضع المرأة القديم في البلاد الإسلامية، ويرون أن الاستظلال بلواء المدنية الحديثة أجدى وأفضل.. ونحن نرفض الأمرين معًا.. حبس المرأة في سجن الجهل والقصور وذوبان الشخصية وضياع المكانة، وإطلاق المرأة فتنة عاتية تنشر الإثم وتبيح المحارم.. لقد رأينا المرأة في صدر الإسلام، لا تقل عن الرجل علمًا، ولا جهدًا في خدمة دينها وأمتها وبيتها وولدها.. رأيناها في القادسية واليرموك في أشرف المواقف

وأجدرها بالتكريم.. ولم نرها أبدًا مجندة للترفيه عن الرجال، ولا رأيناها حسرت عن صدرها وركبتيها باسم العمل في المكاتب أو المصانع.

ويبقى أن نتساءل: لمن نكل وظيفة «ربة بيت» إذا استخرجنا المرأة من البيت لغير ضرورة ملجئة؟ إن هذه الوظيفة، من أرقى الأعمال- لو عقلنا- لأنها إنشاء الحياة وصيانتها وتعهدها حتى تؤدي رسالتها كاملة.

ونتساءل مرة أخرى: هل يقبل حكم الله في تحريم الزنا، وما يؤدي إليه، وما يغري به، أن نجعل الزنا- كما تقول عشيقة سارتر- أمرًا عاديًا لا يستقبح ولا يستهجن؟

إن القصة هنا ليست فتوى فرعية في مشكلة محدودة، إنما هي قصة الدين من ألفه إلى يائه.. قصة الإيمان بالله وتصديق المرسلين أجمعين!



(٩)

تصحيحات شرعية

واحة روحية

العدد (٣٣) رمضان (١٣٨٧هـ) ديسمبر (١٩٦٧م)

في هذا العصر اختفت تقريبًا المذاهب الداعية إلى الانطواء على النفس والعزلة عن المجتمع، وربما بقيت في ميدان الرهبانية، أو في مجال النزعات الخاصة بعض آثار الاستيحاش من الخلق، والابتئاس بالخلطة، لكن هذه البقايا لا تؤثر في قيمة الاتجاه الإنساني العام إلى التعاون والاختلاط، وبناء السلوك البشري على الإيلاف والاستئناس.

ونحن راضون عن هذا الاتجاه الجماعي الودود، فإن الانكماش عن الحياة العامة ليس شارة صلاح، ولا طريق إصلاح، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام، أو نشدانا للراحة مع ترك الدنيا تموج بما تموج به.

ورسل الله لم يتركوا الجماعات البشرية تسير حبلها على غاربها، ويقبعوا في صوامع قصية يتأملون ويتألمون، كلا.. لقد عاركوا الشر وعالجوا أسبابه، وتحملوا بجلادة ما تركه هذا العراك في أنفسهم وأهليهم من أحزان وكروب.

ولم يكن هناك بد من هذا المسلك، فإن الأفراد يعيشون غالبًا وفق التقاليد والعادات الشائعة في الأمة، ويبنون مكانتهم ووجاهتهم على الانسجام معها.

وهذه التقاليد والعادات كثيرًا ما تغلب فطرة الله في الأنفس، وتعمي عن رؤية آياته في الآفاق، فتنشأ الأجيال المقبلة بعيدة عن الصلاح والاستقامة، بحكم منابتها التي خرجت منها.

ومن ثم فلا طريق لنصرة الحق، وغلبة الخير إلا بالجهاد المضني لجعل عادة حسنة تغلب عادة رديئة، وتقليدًا صالحًا يغلب تقليدًا فاسدًا، وتيارًا نقيًا يغلب تيارًا ملوثًا.. وتلك هي الغاية من جهاد الدعوة.

ولعل الثواب الأعظم المرصد لخطوات المجاهدين يرجع إلى عظم آثارهم في الحياة، وامتداد النفع بكفاحهم المادي والأدبي.

ومن ثم فإن العباد العاكفين على طاعة الله في قمة جبل، أو جوف غابة، يطالعون من بعد غبار المعركة بين الحق والباطل، أو ييأسون من نتائجها، ويستريحون من متاعبها.. هؤلاء في الحقيقة ناس واهنو العزم والإيمان، هابطو المكانة في الدنيا والآخرة.

بل ربما لقي بعضهم الله بإثم الفار من الزحف، أو القاعد وراء المجاهدين.. إن الإسلام يمد أبناءه بفيض من اليقين يتجاوز أشخاصهم إلى ما حولها، فهم يتركون طابعهم كله أو بعضه على بيئتهم.

وإذا استعصت مواطن الشر على هذا الإيحاء الكريم، فهي أعجز من أن تبسط ظلمتها على القلوب المشرقة، وهي أعجز من أن تكرهها على الفرار والتواري عن الأعين.

وسيبقى أهل التقى في جنح الليل السائد منارات قائمة تومض بالحق فتهدي وتنجي.

ومع هذه المعاني التي شرحناها، نقرر أن المرء تمر به فترات يحتاج فيها إلى أن يخلو بنفسه، وينأى عن الناس بجانبه، ويراجع في صمت العزلة ما له وما عليه، ما أحسن وما أساء، وما يفعل وما يترك.

إن ضجيج المجتمعات أحيانًا يفقد الإنسان وعيه أو يكاد.

وأظن أنه قد ثبت علميًا أن مستوى الذكاء في زحام الجماهير يهبط، وأن التجمعات المنطلقة يحكمها رأي عام يشبه متوسط المحصول.

ومتوسط المحصول يتلاشى فيه الإنتاج العالي في جوار الإنتاج الرديء، إذ تذهب زيادة هذا في نقص ذاك.

ومن ثم وجدنا كثيرًا من الناس ينشدون أن يخلوا بأنفسهم، ليستعيدوا في خلوتهم حدة بصيرتهم، وتألق أذهانهم.

وما يستغني أولو النهى عن هذه الساعات الغالية، لا ليستجموا فيها، بل لتثوب إليهم مواهبهم، وترجع لهم خصائصهم ثم يواجهوا الدنيا بحقيقتهم الكاملة.

وفي الجاهلية الأولى رغب النبي ﷺ في العزلة، فكان يهجر أم القرى إلى غار منفرد في جبل أشم، ينقطع دونه لغو الناس وإثمهم.

وكان النبي الكريم يحاول في سكينة الغار أن يقترب من الحقيقة التي ضل عنها عالم غريق في الشرك والعصيان.

وقد طلع عليه فجر الوحي في أيام تحنثه، واستراحة فؤاده الشريف إلى حياة التأمل العميق، فلما حمل أعباء الرسالة، وشرع يخلص العالم من قيود الخرافة وآصار البغي، كان يستعين على جهاد الجماهير الشكسة النافرة بالساعات التي يخلو فيها إلى ربه، ويبصر فيها نفسه، وما يعمل وما يلقى.

وقد استحب لأصحابه - رضوان الله عليهم- أن ينسحبوا بين الحين والحين من مشاغل العيش، ومشكلات الأهل والولد، وأن يفروا إلى الله في بيته، ويعكفوا على ذكره وعبادته.. والاعتكاف في المسجد اطراح موقوت لشؤون الدنيا، وإقبال مضاعف على شؤون الآخرة، وإنابة جادة إلى الله، يشترك فيها الشعور واللسان، والظاهر والباطن.

وإذا كانت أيام رمضان قد اجتذبت الرسول ﷺ إلى غار حراء، راغبًا راهبًا ذاكرًا قانتًا، فإن هذه الأيام نفسها قد علّقت قلبه- بعد الوحي- بالمسجد، يأوي إليه، ويتحنث فيه هو وصحبه الأبرار.

وقد شهد المسجد النبوي بالمدينة المنورة ليالي وضيئة، لأولئك العابدين المنقطعين إلى الله، الآملين فيه، المعتزين به.

فلنطالع هذه الصورة الطريفة من مرويات البخاري ومسلم، قال أبوسعيد

الخدري: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال له: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك.

ثم قام النبي ﷺ خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان فقال: من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، إني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء.

قال أبوسعيد: وكان سقف المسجد جريدًا من النخل، وما نرى في السماء شيئًا، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهته، تصديق رؤياه[1].

أي ليلة سمحة مباركة كانت هذه الليلة التي اتصل فيها الذكر والتسبيح، وصاحب الرسالة ورجاله الأقربون عكوف على الطاعة والتلاوة يركعون ويسجدون، حتى جاءت سحابة تصب على أكناف المسجد ما شاء الله من رحمته، والمتهجدون دائبون على نسكهم، لا يلفتهم عن صلاتهم المطر النازل، فإذا سجد النبي ﷺ رفع وجهه الشريف وبه آثار من الماء والطين؟

لقد كانت هذه ليلة القدر، وهي كما قال الله ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ **(القدر: ٣)**.

رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات..

وقطيرات زمان ملأت كأس حياة..

وقد مضت السنة باستحباب اعتكاف المؤمنين في العشر الأواخر من رمضان، وكان النبي ﷺ إذا دخل الثلث الأخير شد مئزره، وأحيا ليله وأيقظ أهله.

وربما قال قائل: إن الاعتكاف على هذا النحو ليس عزلة، إنه عبادة

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٨٠).

جماعية، يؤديها المؤمن مع غيره، وذاك شيء غير العزلة التي حدثتنا عنها آنفًا!

ونجيب بأن الاعتكاف عبادة قوامها العزلة، فإن الإنسان عندما ينوي الاعتكاف يتفرغ لطاعة الله، والإقبال عليه، ويدع زوجته وشغله ولهوه.

وقد جعل الإسلام هذه العزلة في إطار المسجد، فلم يسمح بانقطاع في غار أو غابة، وذلك حتى لا تهي صلة المسلم بالجماعة.

والمسجد بقعة توحي بالعبادة والتبتل، وعلى العاكف أن يلم شمل نفسه، ويديم ذكر ربه، ولا يأذن لقطاع الطريق أو لصوص الأوقات أن يغلبوه على أمره.

إن المساجد قطع من هذه الأرض مساوية لها في المعدن، ولكنها ارتفعت قدرًا عند الله وعند الناس برفعة الغاية التي بنيت من أجلها، والعباد الذين يصطفون فوقها ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ **(النور: ٣٦، ٣٧)**.

ورأيي أن الاعتكاف ليست له مدة معينة، وأن الصوم حسن فيه إذا طال أمده.

وفترات الاعتكاف القصيرة فرصة متاحة لكل مسلم يريد بين الفينة والفينة أن ينعطف إلى ربه، لكن الفترات القصار تشبه التمارين الرياضية المحدودة من سباحة وجري، لها بلا ريب أثرها في الصحة العامة، غير أنها لا تدل على بطولة وتفوق.

والاعتكاف الذي يستغرق أيامًا لا يطيقه إلا قوم لهم مع الله معاملة، ولهم به إلف، وهل يتفاوت أهل الإيمان والعبادة إلا في ذلك المضمار؟

إن ما يسأم منه البعض قد يستلذه آخرون.

تدبر هذا الحديث عن ربيعة بن كعب -رضي الله عنه- قال: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله فبت عنده، فلا أزال أسمعه يقول «سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي» حتى أمل، أو تغلبني عيني، فأنام، فقال يومًا: يا ربيعة سلني فأعطيك، فقلت أنظرني حتى أنظر.. وتذكرت أن الدنيا فانية فقلت: يا رسول الله، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة، وفي رواية أسألك مرافقتك في الجنة.. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: من أمرك بهذا؟ قلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله لي، قال: إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

لقد كان رسول الله لا يفتر من ذكر حتى يمل كعب أو ينام، فلما طلب من رسول الله أن يصحبه في الجنة طلب منه أن يرشح نفسه لهذه المنزلة بإدامة الصلاة.

والإنسان الذي يكثر السجود يقبل على الله بنفس محب، ورغبة مشتاق، والاعتكاف على مثله يسير، طال أو قصر.

والاعتكاف اليسير أو الطويل ليس جلوس بطالة في المسجد كما يتوهم البعض! فإنك إذا قلت: شاطئ البحر متعة عنيت أن ذلك لمصطاف يستعين بالراحة على العمل، وبالاستجمام على استئناف الكفاح.

والمرء في مكابدته للمعايش، ومخالطته للخلائق قد يتيه في أودية الحياة، وينسى ما بعدها، فإذا انتزع نفسه ليذهب إلى المسجد مصليًا، فهو يذهب ليستعيد صوابه. فإذا بكر في الذهاب قليلًا، وقصد أن يفتح أقطار قلبه لإيحاء المسجد فهذا اعتكاف مشكور، وفي الحديث: «فإذا صلى لم تزل

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٢٦).

الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

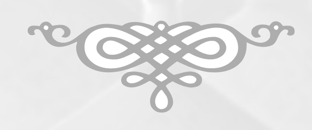
إننا في عصر ينشد الإنسان فيه المتاع المادي من ألف وجه، ويظن ما ناله منه حظًا جسيمًا، فلنلو زمامه إلى لون آخر من الكمال الإنساني الأسمى..

إن غدوة إلى ناد للقاء الزملاء متعة.. لا بأس!

ومن المتع التي لها مذاق آخر غدوة إلى المسجد لمناجاة الله، واللبث في حضرته.

فإذا استمكنت هذه العادة في القلب رفعت صاحبها إلى السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله.. فمن هؤلاء السبعة «رجل قلبه معلق بالمساجد»..

إن الاعتكاف سنة مهجورة، أو لعله سنة غير مفهومة، خصوصًا هذه الأيام التي دارت فيها الأهواء بالرؤوس كما تدور الخمر بشاربها.. وهو في حقيقته واحات روحية مزهرة على درب الحياة الطويل.





(١٠)

الهجرة

منطق اليقين

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨ هـ) مارس (١٩٦٨م)

نحن في عالم يسوده المنطق المادي، ويعد المحسوسات وما يتصل بها هي الوجود الذي لا وجود وراءه!

وجمهرة البشر أخذت تستكين لهذا التفكير، وتبني عليه سلوكها في الحياة، وفرحها أو حزنها لما يصيبها من نعماء وبأساء!

نعم، إنها تحت تأثير الدين تؤمن بما وراء المادة، وتأوي إلى هذا الإيمان في الساعات العصيبة.

بيد أن لغوب الناس على ظهر الأرض، وكدحهم لتحصيل ما يريدون إنما يثور غباره وراء ضرورات العيش ومرفهاته - أما الدار الآخرة وما يمهد لها فأمر قلما يخطر على البال، وإذا خطر فقلما يقترن بالشعور الجياش والفكر المستغرق والعزم الحديد!

وحقيقة الدين تنافي هذا المسلك الخامل، فإن الإيمان بالغيب قسيم للإيمان بالحاضر، ولا يصح تدين ما إلا إذا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله مثلما يتعلق بما يرى ويسمع في هذه الدنيا..

والغيب الذي أقصده هنا أوسع دائرة من عالم الملائكة مثلًا، أو مشاهد الجزاء الأخروي، أو المرويات التي أنبأنا الوحي بها، ولا نستطيع الوصول إليها بمداركنا.. الغيب الذي أقصده هنا ما يتصل بالسلوك الإنساني المأنوس لنا، أي ما ننبعث عنه في كفاحنا القريب لبلوغ ما نحب وإقصاء ما نكره!

إن النصر على الأعداء غيب.. خصوصًا إذا وهنت الوسيلة، وقل العون، وفدحت العوائق.

ولكن الإيمان بهذا النصر المأمول ينبع من الإيمان بالله وحده جل شأنه، ومن ثم فالمجاهد الموقن يمضي في طريق الكفاح المر، وهو واثق من النتيجة الأخيرة!!

إن غيره يستبعدها، أو يرتاب فيها.. أما هو فمعتقد أن اختلاف الليل والنهار يقربه منها وإن طال المدى.

فإذا قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **(الروم: ٤٧)** فإن الجماعة المؤمنة لا تهولها وعثاء الطريق، وضراوة الخصوم، وكآبة الحاضر.

إن إيمانها بالمستقبل يعزيها عن متاعب اليوم، ويشعرها بأنها غيمة عارضة توشك أن تنقشع ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ **(الرعد: ١٧)** والرزق- مثل النصر- غيب مرتقب. وعندما ينفق المؤمن ما عنده على أمل أن الله باعث خلفا له وعوضا عنه، فهو يسير على منطق اليقين المحض.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ لبلال- لما ادخر له صبرا من طعام: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالًا»[(١)].

ولماذا يخشى الإقلال وقد وعد الله أن يخلف على من أنفق؟ ووعده منجز لا ريب فيه.

إن هذا الإيمان بما عند الله هو الذي يرجح عند المؤمن جانب العطاء عندما توسوس له نفسه بالإمساك والمنع، خصوصًا مع التأميل في الحياة، والرغبة في سعة الثراء، والقلق من أحداث الزمان!

---

(١) رواه البزار برقم (٢٧٣) وغيره، وهو ضعيف كما ذكر ذلك العراقي في تخريج أحاديث الإحياء.

ولذلك جاء في الحديث «أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تحب الغنى وتخشى الفقر»، والإيمان العميق يجعل المرء كما وصف الرسول الكريم: «أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك».

كان المسلمون قبل الهجرة يملكون أنصبة وافرة من الإيمان بالمستقبل، يعتقدون أن دينهم لن يغلب- وإن ضعف اليوم حملته- ويؤدون فرائض الجهاد والبذل وهم راضون عن ربهم، راجون ما عنده.

والمجاهدون في سبيل الله بشر تجيش في أنفسهم المشاعر التي تجيش في نفوس غيرهم، من تقدير للحياة، والرأي العام، وكفالة الأولاد، وتأمين العيش لأنفسهم وأهليهم! بيد أنهم وازنوا بين مطالب الحق، وأشواق الدنيا، ثم آثروا وعد الله على وحي العاجلة.

وتأمل هذا الحديث الذي يصور الصراع النفسي لدى أنصار الحق، وكيف يخرجون من غباره أوفياء لله، أحقاء بكرامته، عن سبرة بن الفاكه -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه، فأسلم، فغفر له! وقعد له بطريق الهجرة فقال له: تهاجر، وتذر دارك وأرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر، فقعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك فمات، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة. وإن وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة»[1].

هذه طبيعة الاستمساك بالحق والتفاني في نصرته.

والواقع أن إيمان هؤلاء بالغيب مثل إيمان غيرهم بالمحسوس، إن الرجل

(١) رواه أحمد في المسند برقم (١٥٩٥٨).

الذي يقطع تذكرة للسفر من القاهرة إلى الاسكندرية لا يخامره شك في أن الاسكندرية موجودة وأن القطار المنطلق ذاهب به إليها!

والمجاهد المسلم يؤمن بأن الموت نداء الحق ينقله يقينًا إلى جنة عرضها السموات والأرض، إيماننا اليوم بأن السفر من عاصمة إلى عاصمة أو من قارة إلى أخرى يصل بنا إلى ما نريد!

وعندما يرتفع الإيمان بالغيب إلى هذه القمة الراسخة، فإن أصحابه ينتصرون بمبادئهم حتمًا وناشروها في الحياة نشرا لا يدركه طي، ومكتسحون ما يضعه المبطلون أمامهم من عوائق.

والمستقبل الذي تنتصر فيه الرسالة وينتصف فيه أصحابها يتكون من جزأين أحدهما قريب والآخر بعيد.

أما القريب ففي هذه الدنيا وعلى أرض الميدان الذي تدور فيها المعارك.. أما البعيد فعند الله حيث تتكشف خبيئات النفوس وينال المحقون والمبطلون جزاءهم العدل، وفي المرحلتين كلتيهما يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ **(القمر: ٤٤، ٤٥، ٤٦)**.. وجاء في سورة أخرى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ **(غافر: ٥١، ٥٢)**.

والمسلمون الأوائل لم تنقصهم الثقة في مستقبل الدعوة التي آمنوا بها وكل ما عناهم، أن ينهضوا بحقوق الدين الذي اعتنقوه، وأن يثبتوا على صراطه المستقيم مهما تكاثرت المحن وترادفت الفتن.

من أجل ذلك هاجروا لما اقتضاهم الأمر أن يهاجروا، وخاضوا غمرات الحروب لما كلفهم الحق أن يبذلوا النفس والمال.

ولو شققت عن ضمائر القوم لوجدت الهجرة عندهم أشبه بانتقال الموظف اليوم إلى بلد اتصل فيه رزقه أو نال فيه ترقية!

غاية ما هنالك من فرق أن هذا مسلك بدت فيه بواعثه المادية التي تواضع الناس على الاحتفال بها..أما المهاجرون الأوائل فهم ينتقلون من بلد إلى بلد، إقامة لدين مضطهد، ويعاملون رب العالمين وحده حين يحلون وحين يرتحلون، ويستيقنون من رضوانه، تعبوا أم استراحوا.

إن هجرات الأحياء على ظهر الأرض كثيرة، بل إن الطيور في الأجواء، والأسماك في المحيطات تقطع مسافات كبيرة وراء غاياتها المادية المحدودة، لكن الهجرة التي علت بها أقدار، وخلد بها أقوام، تلك التي قامت ودامت ببواعث الإيمان المحض، والغضب لله والارتباط بتعاليمه، والعيش بها أو الموت دونها.

ومع أن الوحي الأعلى لقن المؤمنين أن رسالتهم ستستقر، ورايتهم ستعلو، وأن الكفر سيذوب، وينخذل حزبه، إلا أنه تملق أفئدتهم بالمستقبل البعيد، أعني الدار الآخرة وما حوت من ثواب وعقاب ﴿ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ (**الزخرف: ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤**).

ولهذه الآيات معنى ينبغي أن نقف عنده طويلًا، فإن المؤمن المجاهد قد يترك هذه الحياة دون أن يعرف نتائج الصراع المحتوم بين الهدى والضلال، وهذا جائز، بل كثير الوقوع، لأن انتصار الحق ربما اقتضى هذا المؤمن نفسه أن يقدم حياته، فيكون استشهاده، واستشهاد غيره من المؤمنين الجسر الذي تعبر عليه المبادئ وتشق طريقها إلى مستقبل وطيد.

لكن هل ذهاب عدد قل أو كثر من أهل الإيمان يفيد الضالين شيئا؟ كلا، إن الانتقام الإلهي لاحق بهم يقينا.

ولذلك يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (**الزخرف: ٤١، ٤٢**).

والخطة المثلى أن يؤدي الإنسان واجبه المجرد دون استعجال المصير في هذه الدنيا، وألا يتعلق بالفوز الشخصي له، أو الاندحار الشخصي لخصومه.

فمن يدري؟ ربما رشد هؤلاء الخصوم يومًا، وتحولوا إلى الإيمان الذي جحدوه من قبل!

وفي أعقاب أحد، ومع مرارة الهزيمة التي أصابت المسلمين، يبين الله لنبيه هذه الحقيقة فيقول ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...﴾ (**آل عمران: ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨**).

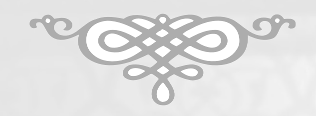
في إطار هذا اليقين العميق، لبى المسلمون النداء إلى الهجرة عندما طولبوا بالهجرة، واستجابوا لله ورسوله غير ضائقين ولا جازعين.

إن الحياة بالنسبة إلى المؤمن خط طويل يمتد مع الزمن لا يقطعه الموت، ولا يعروه الفناء.

والمؤمنون حين يغرسون في هذه الدنيا فهم يرقبون ثمار غرسهم في المستقبل القريب، أو المستقبل البعيد، بين أهليهم هنا أو عند الله هناك.

ولن يخامرهم قنوط لأن ما ارتقبوا تأخر ميعاده.

ولن يسأموا تكاليف الجهاد ولو كلفتهم أن يحرموا وطنهم الغالي، وأن يرغموا على ترك معايشهم به وذكرياتهم فيه.



(١١)

حقيقة وشريعة!

العدد (٤٠) ربيع الثاني (١٣٨٨هـ) يونيو (١٩٦٨م)

جلست يومًا أختم الصلاة وأردد الألفاظ المائة المأثورة، متدبرًا ما تدل عليه من تسبيح وتحميد وتكبير، بيد أن الشيطان سرق فكري دون أن أدري، فإذا أنا أسرح في إحدى القضايا، أستعرض أحداثها وأتتبع مراحلها وأتوجس من نتائجها! وغصت في أعماق القضية العارضة حتى ارتطمت بقاعها ولساني يحصي آخر الكلمات المائة التي تعقب الصلوات المكتوبة، لتكون ذكرًا بعد ذكر، وتحية بعد تحية!

وشعرت بتناقض بين حالي ومقالي، وسألني ضميري: أكنت حقا تذكر ربك، وتسبحه وتحمده وتكبره؟

ولم يكن للكذب مجال، لقد كان فؤادي في واد آخر، وإن كان لساني يردد ما تعوده من كلمات..

لقد كنت حاضرًا كغائب، أو غائبًا كحاضر، وما أستطيع الزعم بأني فيما هممت كنت من الذاكرين!

إن البون بعيد بين الكلمات التي ننطق بها، وبين معناها المصاحب لها، المخبوء تحت حروفها..

لو كانت إدارة الألفاظ على الشفتين تثبت معانيها للفور كما تدير أزرار الكهرباء فتسطع المصابيح للفور، لَكُنا في حال غير الحال، ووضع غير الوضع! ولكن المسافة شاسعة بين الكلمات ودلالتها الملاصقة.

وكم فينا من ببغاوات تجري على أفواههم كلمات جليلة، فإذا ذهبت تلتمس حقائقها في نفوس القائلين، وجدت الفراغ أو وجدت النقيض.

والمؤسف أن أغلب معاملتنا لله يسيل من هذه العين الحمئة!

إن أسوأ ما يعتري الفرائض المكتوبة والعبادات الرتيبة أن يؤديها المكلفون وهم في شبه غيبوبة، لا تلاحق عقولهم معانيها، ولا تحصل نفوسهم حكمتها.

ويقول علماء النفس: إن درجات الحس تتفاوت عند مباشرة المرء لشتى الأعمال، فقد يقع الإحساس في بؤرة الشعور وذلك في حالات الانتباه الكامل، وقد يهبط الوعي إلى حاشية الشعور عند ملاحظة أمور مألوفة.

وهناك منطقة شبه الشعور التي تصحب القيام بأعمال معتادة، وأظن بعض الدواب تشارك البشر في هذ الحالة، فهي إذا دربت على أشغال معينة أدتها بدقة- دون وعي طبعًا.

والتكاليف الدينية يوم تؤدى على أنها عادات مجردة، ليس معها الصحو العقلي المطلوب تصبح إلى الأدواء أقرب منها إلى الأدوية.

بل إن الكفار الصاحين الأيقاظ إذا التقوا في ميادين الحياة بعابدين من هذا النوع المخدر الغافي سرعان ما يسبقونهم سبقًا بعيدًا ويغلبونهم غلبًا أكيدًا.

إن الله شرع الدين موضوعًا وشكلًا، معنى ولفظًا، يقظة نفسية، وحركة بدنية، فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن فهو يعبث بالدين، ويتخذه لعبًا ولهوًا..

ويحسن أن نفرق هنا بين عدة أحوال، فإن المؤمن الجاد الصادق عندما يشرع في نسك، يقبل على الله معقود العزم حسن القصد..

وربما اختلس الشيطان شيئًا أو أشياء من عبادته، فهو يحزن لذلك ويتعلم الحرص والحذر، ومراتب المؤمنين في مدافعة هذه الغارات لا حصر لها..

وخيرهم من تنجح مجاهداته في صيانة عمله جوهرًا ومظهرًا، وأعجزهم من استغفله الشيطان فشتت لبه في متاهات ليس لها آخر كلما تقرب إلى الله بعمل..

ولا بد من استبعاد النيات الملتاثة في هذا المجال..

إنني أحيانًا أسمع الأغنية الدينية تصف مناسك الحج أو تعرض حياة الرسول، فيمتلئ قلبي بالرقة والضراعة.. ثم أستحضر سيرة المغني والملحن والعازفين فأحس فجوة رهيبة بين جلال ما يقال وفساد من يقول..

إن الفرق الماهرة في أداء هذه الألحان الدينية هي هي التي تستفز الشهوات الساكنة، وتزين مزالق الشر لألوف من الخلق وتجدد نشاط الأشرار كي يسترسلوا في غوايتهم.. ولذلك عندما أسمع مناجاة الله على لسان مغن أو مغنية أسأل النفس: أهذا ذكر الله حقا أم هي صنعة الكلام والتطريب وحسب؟

ولم التمثيل بالغناء الديني؟

هل تتبعت مجالس القرآن التي تحف بنفر من القراء المشهورين ورأيت ما يسود هذه المجالس من صخب وخفة؟

إن الصياح الطائش الذي يفتعله بعض السامعين يستخف للأسف هؤلاء القراء فتراهم ينسون الكتاب ومنزله، وما ينبغي له من إجلال وتوقير، ويحولون الآي إلى نغم معجب للجهال يزيدهم ولها على وله! ثم ينفض الحفل الماجن دون أن ينشرح بذكر الله صدر أو تدمع لخشيته عين، أو تنعقد على طاعته إرادة، ويئوب القارئ والسامعون إلى بيوتهم وهم يخوضون في غضب الله خوضًا!

إن ما يطلب من الناس ليس شيئًا صعب التصور أو عسر المنال، مطلوب من الإنسان العاقل أن يعي ما يقول، وأن يعنيه، وأن يفقه ما يسمع ويستوعبه، فهل هذا تكليف بما يبهظ الهمم؟ مطلوب من المصلي إذا وقف بين يدي الله أن يعرف من يناجي، فإذا قال: الله أكبر، كان شعوره أنه في حضرة الكبير المتعال عاصما له من الالتفات إلى غيره، ومحرمًا عليه الاشتغال بأمر دونه، وهذا سر تسمية افتتاح الصلاة بتكبيرة الإحرام.

مطلوب من التالي للوحي أن يفك اغلاق قلبه فإذا نودي سمع، وإذا بصر رأى، وإذا استثير نشط، وقد جاء في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ (**الفرقان: ٧٣**).

العلاقة بالله- على الحقيقة لا على التجوز- تطلب البعد عن آفتين، التوهم أو الخيال، والتميل أو التصنع.. الآفة الأولى تجعل المرء يرسل القول على عواهنه، وقد تخدعه نفسه فيخال الأمنية البعيدة حقيقة ماثلة. أو يخال الأمل السامي غاية سهلة.

وقوانين الإيمان لا تدع المؤمنين طويلًا بإزاء هذه الأوهام، بل ترميهم بالأحداث تلو الأحداث حتى ينكشف معدن النفس، فإما ثبت الإنسان عندما يقول وتحمل تبعاته كاملة، وإما انهزم وبدا عواره، وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ (**آل عمران: ١٤٢، ١٤٣**).

والأمل في الاستشهاد قبل مواجهة العدو شيء عظيم، وأعظم منه وأدل على صدقه ألا يتبخر الحماس عند اللقاء، ويتغلب حب الحياة وإيثار السلامة.

إن الله تبارك اسمه يبغض أصحاب المزاعم العريضة، فإذا دقت ساعة الجد وجدت الثرثارين خرسًا ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (**الصف: ٢، ٣**).

أما الآفة الأخرى التي تبعد ذويها عن جوهر الدين فهي أخذ العبادات من مراسمها البادية، وبذل الجهد في إتقان الظاهر وحده.

ولو عقلنا لأدركنا أن القليل مع صحو الضمائر أفضل من كثير لا روح

فيه، تأمل في حديث إبراهيم الخليل عن ربه، إنه حديث ليس فيه كشف لمجهول، ولا تصوير لمعنى مبتدع، إنه يتناول أقرب المحسوسات إلينا: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ (**الشعراء: ٧٨، ٧٩، ٨٠**).

إن الرجل العامي يجد هذا الكلام قريبًا من حسه، ولكن حقائق هذا الكلام هي التي فاتت العباقرة فزاغوا.

ليس الأمر تزويق عبارات بليغة، ولا شرح فلسفات عويصة، الأمر لا يتطلب أكثر من أن يقرأ المسلم فاتحة الكتاب، فيعني كل كلمة ينطق بها، ويكون قلبه مرآة نقية لما احتوت من حمد الله، وثناء عليه، وتعاهد معه، وتطلع إلى هداه ونعمته.

هذه هي الحقيقة التي تحدث عنها التصوف ورجال التربية.

لا دلالة لهذه الكلمة غير ما قلنا، أن يلتزم المسلم بشريعته مبنى ومعنى، أن ينفعل بتعاليمها لبا وقلبا وجسدا، أن يرقى إلى مستواها فكرًا وعاطفة وسلوكًا..

لا تعريف للحقيقة غير ما أوضحنا في الكلمات الآنفة، أن يتطابق الفؤاد مع اللسان عند ذكر الله، وأن تتعانق الروح والجسد عند الانقياد لأمره.

ولبعض الصوفية كلام متهافت يوهم أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر!

يقول ابن عجيبة في شرح حكم ابن عطاء الله السكندري: «الأعمال عند أهل الفن- يعني فن التصوف- على ثلاثة أقسام، عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة، أو تقول عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان أو تقول عمل أهل البداية وعمل أهل الوسط وعمل أهل النهاية، فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده أو تقول

الشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر... الخ».

وهذا كلام مضطرب مدخول يقوم على التلاعب بالألفاظ والعبث بالمفاهيم، فإن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معًا، وهي عبادة ونية وإحسان، ولا ينفك أحد هذه العناصر عن الآخر.

ويوغل ابن عجيبة- غفر الله له- في خطئه، فيصور لقرائه أن الكتاب والسنة أقسام، بعضها يشير إلى الشريعة، والآخر يشير إلى الحقيقة فيقول: «أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (**النحل: ٣٢**) مع قوله ﷺ «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» والجواب- كما يزعم ابن عجيبة- أن الكتاب والسنة وردا بين شريعة وحقيقة، أو بين تشريع وتحقيق، فقد يشرعان في موضع ويحققان في آخر، وقد يشرع القرآن في موضع وتحقق السنة هذا الأمر في موضع آخر، فقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (**النحل: ٣٢**) تشريع لأهل الحكمة وهم أهل الشريعة وقوله ﷺ «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، تشريع لأهل القدوة وهم أهل الحقيقة... الخ».

وهذا كلام باطل، لا ينطوي إلا على الفراغ والدعوى.. وليس في دين الله أهل شريعة وأهل حقيقة، ولا انقسم الوحي الإلهي إلى فريق لهؤلاء وفريق لأولئك.

أما الإشكال الذي أورده فإليك تفسيره.

اتفق أئمة المسلمين على أن العمل لا بد منه لدخول الجنة، وأنه سبب شرعي مطلوب لا يستثنى منه بشر، ولا يدخل بدونه أحد، وقد تظاهرت الدلائل على ذلك من الكتاب والسنة جميعًا.. قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ

عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **(الأنعام: ١٢٧)** وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **(النحل: ٣٢)** وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ...﴾ **(الزخرف: ٧٢، ٧٣)** وقال في المستقيمين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **(الأحقاف: ١٤)**... الخ.

ولكن المطلوب من العابدين لله أن يتواضعوا له وأن يكبروا حقه وأن يخافوا لقاءه مهما قدموا من صالحات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ **(المؤمنون: ٦٠، ٦١)**.

ويؤتون ما آتوا، ليس معناها فعل المعاصي والحذر من عقباها! بل معناها فعل الطاعات والحذر من عدم قبولها، لأنها دون ما يجب لله أو دون ما يحسن المرء.

وبهذا المعنى جاء الحديث الشريف فهو نهي عن الاغترار بالعمل وليس نفيًا لقيمة العمل، إنه نهي عن الاطمئنان إلى العمل والاستكبار به والجراءة على الله بعد إتمامه وليس نهيًا عن التزود بالصالحات والاستكثار منها.

وغريب أن يفهم عوام المسلمين من الحديث الشريف أن العمل لا لزوم له، فلم نزل القرآن؟

ولماذا جاهد نبيه ربع قرن لإبلاغه وإقامة الأمة عليه؟

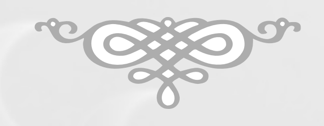
الحديث نفي لأن يكون العمل ثمنًا حقيقيًا للجنة، وليس نفيًا لأن يكون سببًا حقيقيًا لدخولها.

نعم، فإن الخلود الدائم في نعيم مقيم ليس الثمن المكافئ لعبادة الله

سنين عددًا، ذاك لو خلت العبادة من شوائب الرفض، فكيف وأكثرنا لو فحص عمله رد في وجهه؟ ثم كيف لو حوسب الإنسان على النعم المغدقة عليه في الدنيا، وقيل له: عملك نظير بعض هذه النعم؟

الحديث ليس مناقضًا للآيات، ولا للأحاديث الأخرى، وإنما هو كما قلنا كسر للغرور البشري وتذكير برحمة الله وتجاوزه وصفحه.

وعلى ضوء هذا التفسير نعرف أن ما ذكره ابن عجيبة وغيره عما يسمى حقيقة وشريعة لا أصل له في الإسلام، فدين الله واحد لجميع خلقه.



(١٢)

مشاعر نفسية وراء بعض الخلافات

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) سبتمبر (١٩٦٨م)

المؤمنون أفرادًا وجماعات يتحرون صراط الله في مسالكهم كلها، ويجتهدون أن تقع أعمالهم وفق مراد الشارع الحكيم سواء في العبادات المنقولة أو المعاملات المعقولة.

وغير المؤمنين يخطون طريقهم في الحياة بجهدهم الفكري، وتجاربهم الخاصة، وصلتهم بالوحي الأعلى مقطوعة أو واهية.

وفي الوقت الذي تحكم فيه النصوص السماوية والقواعد الدينية حياة المؤمنين بالله، نجد غير المؤمنين ينشطون بفكرهم المجرد للتصرف في هذه الحياة، ووضع ما يرون من دساتير وقوانين يظنون أنها تكفل مصالحهم وتضمن سعادتهم.

وقد اتسعت علوم السياسة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد وغيرها من العلوم الإنسانية البحتة وانفردت بقيادة الإنسان على ظهر الأرض إلى جانب مجموعة من الفلسفات النظرية التي اشتغل بها العقل البشري من قديم.

أما المؤمنون بالله، ونحن في هذا الفصل نعني المسلمين خاصة، فهم يعتمدون على شمول التعاليم السماوية لشؤون حياتهم ويستغنون بها عما وراءها من مذاهب ونظرات. معتقدين أن في هدايات الله الغنى الكامل، وأن الله جل شأنه قد ضبط معاشهم ومعادهم بكلامه وسنة نبيه، فلا مكان لشيء آخر بعد.. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ...﴾**(الشورى: ١٧)** ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ...﴾ **(الحديد: ٢٥)**.

والحق أن الوحي الإلهي في الرسالة الخاتمة قد كفى وشفى، فحدد حيث ينبغي التحديد، وفصل حيث يستحب التفصيل، وأجمل وعمم حين يقتضي الأمر إرسال التعليمات مجملة عامة.. وحث العقل على أداء وظيفته في الفقه والاكتشاف والتبصر والاعتبار.. وحذره أن يجانب الحق بالحدس والتخمين، وأن يبدد قواه في اقتحام الغيوب المعجزة.

كما علمه الأدب مع الله ورسوله، فلا مكان لاقتراحاته حيث يتكلم الوحي، ولا لابتداعاته حيث مضت السنة!

والمعاني التي قررناها آنفًا ليست موضع خلاف بين المسلمين، ولكن الخلاف أخذ لونًا آخر يقترب اقترابًا شديدًا من هذا الموضوع، فقد تساءل أسلافنا غفر الله لهم عن مكانة العقل بالنسبة إلى الحظر والإباحة والفعل والترك والاستهجان والاستحسان، وكانت إجابة كثير منهم أن العقل في هذا الميدان صفر، وأن الشرع وحده هو كل شيء.

وفي هذه الإجابة غموض وجور!

فإن العقل يستطيع بنوره الذاتي أن يعرف الشر في أشياء كثيرة وأن يلحظ الخير في أشياء كثيرة وقد لفت القرآن الإنسان إلى أنه بفطرته قادر على التفرقة بين شناعة الجهل وكرامة العلم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ **(الزمر: ٩)**، وإلى أنه بفطرته يستقبح الظلم ويأبى الحكم به ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ **(الجاثية: ٢١)**.. صحيح أن العقل الإنساني بحاجة إلى عون من الله، ومدد من الوحي.. بيد أن هذه الحاجة لا تعني بخس قيمته، ولا التهوين من قدرته المحدودة في مجال التحسين والتقبيح، لكن جمهور السلف رأى- سدًا لباب الاستغناء بالعقل- أن يجعل الشارع صاحب الكلمة

الأولى والأخيرة في هذا المجال، ويقرر هذا العلامة الزنجاني في كتابه: «تخريج الفروع على الأصول» فيقول: ذهب الشافعي -رضي الله عنه- وجماهير أهل السنة إلى أن الطهارة والنجاسة وسائر المعاني الشرعية كالرق والملك والعتق والحرية، وسائر الأحكام الشرعية ككون المحل طاهرًا أو نجسًا، وكون الشخص حرًا أو مملوكًا، ليست من صفات الأعيان المنسوبة إليها، بل أثبتها الله تحكمًا وتعبدًا، غير معللة! لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا تصل آراؤنا الكليلة، وعقولنا الضعيفة، وأفكارنا القاصرة إلى الوقوف على حقائقها، وما يتعلق بها من مصالح العباد، فذلك حاصل ضمنًا وتبعًا، لا أصلًا ومقصودًا، إذ ليست المصلحة واجبة الحصول في حكمه.

واحتج على ذلك بأن الله تعالى إذا جاز أن يعاقب الكافر على كفره، والفاسق على فسقه ولا مصلحة لأحد فيه، جاز أن يشرع الشرائع، وأن تعلق بها مفسدة، ولا يتعلق بها مصلحة لأحد!

ولذلك الله تعالى كلف الإنسان ما ليس في وسعه فقال تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾(**هود: ١٣**) ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (**يونس: ٣٨**) وقال للملائكة: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (**البقرة: ٣١**) وكل ذلك تكليف للإنسان ما ليس في وسعه، وذلك ضرر لا مصلحة فيه[1].

وسر هذه القاعدة أن الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق، يتصرف في عباده كيف يشاء، ولا كذلك الواحد منا، فإنه إذا أضر بغيره كان متصرفًا في ملك الغير بالضرر، وذلك ظلم وعدوان.. وذهب المنتمون إلى أبي حنيفة -رضي الله عنه- من علماء الأصول إلى أن الأحكام الشرعية صفات للمحال، والأعيان المنسوبة إليها أثبتها الله تعالى وشرعها معللة بمصالح العباد لا غير، كما

(١) سترى خطأ ذلك القول فضلا عما فيه من مغالطة.

أن الحسن والقبح والوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة من صفات الأفعال التي يضاف إليها، غير أنهم قسموا أحكام الأفعال إلى ما يعرف بمجرد العقل، وإلى ما يعرف بأدلة الشرع على ما سيأتي:

أما أحكام الأعيان فقد اتفقوا على أنها كلها تعرف بأدلة شرعية، ولا تعرف بمجرد العقل، وأنها كلها تثبت بإثبات الله تعالى.

واحتجوا في ذلك بقياس الشاهد على الغائب، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح، وزعموا أن شرع الحكم لا لمصلحة عبث وسفه، والعبث قبيح عقلًا، وهو كإقدام الرجل اللبيب على كيل الماء من بحر إلى بحر، فإنه يقبح منه ذلك ويستحق الذم عليه.

وإذا تمهدت هذه القاعدة فنقول: الشافعي، رضي الله عنه، حيث رأى أن التعبد في الأحكام هو الأصل غلب احتمال التعبد، وبنى مسائله في الفروع عليه.

وأبوحنيفة -رضي الله عنه- حيث رأى أن التعليل هو الأصل بني مسائله في الفروع عليه، فتفرع عن الأصلين المذكورين مسائل.. الخ.

ولست هنا بصدد ترجيح مذهب الأحناف، وتضعيف رأي الجمهور، فالأمر عندي أعمق من ذلك..

إن المسلمين كافة يعلمون أن الله هو القاهر فوق عباده، وأنه ليس لبشر ما أن يقف أمامه إلا عاني الوجه مكسور الشوكة.

وأن إرادته نافذة في أرجاء الملكوت لا يعترضها إنس ولا جن ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **(الأعراف: ٥٤)**.

لكن الله- وله المجد الذي لا يبلى- خلق السموات والأرض بالحق لا بالباطل، وسير الكائنات في البر والبحر والجو بالحكمة لا بالفوضى، ودبر الأمور من الأزل إلى الأبد وفق نظام دقيق، لا خبط عشواء ولا تقدير

مجازف ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (**القمر: ٥٣**)، فكيف يتصور في شرائعه أن تتجنب المصلحة أو تنطوي على مفسدة؟

إنه حقًا لا يسأل عما يفعل، ولكن لماذا نتصور أن من ذاته فوق المسؤولية يجوز أن يصدر عنه ما لا ينبغي؟ بحجة أنه مالك الملك؟

الأولى من ذلك والأدنى إلى الصواب أن تعرف حدود الدائرة التي يستطيع فيها العقل البشري الإدراك الصحيح والحكم السديد.

إن الإنسان الفرد يتفاوت حكمه في مرحلتين من عمره على شيء واحد، وربما استقبح وهو شيخ ما كان يستحسنه وهو شاب.

وربما نسج القصور غشاوة كثيفة أو خفيفة على أبصارنا فظننا نفعًا لنا ما هو ضار بنا ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (**البقرة: ٢١٦**).

فإذا توهمنا عوجا ما في مظاهر الخلق، أو جورا ما في أحوال الناس، فلنتهم أفكارنا نحن ولنعترف بقلة علمنا بدل أن نقول «لا يسأل عما يفعل».

وأعتى علماء المادة يعترف بأن ما نجهل أضعاف أضعاف ما نعلم، وأن حصيلة الذكاء البشري طوال القرون تشبه عودا من الثقاب أوقد على الرؤية في نطاق أبعاد معينة.. وربما أصيبت العين بعاهة عارضة تمنعها من النظر البعيد أو القريب، بيد أن ذلك لا يعني أن طبيعة العين العجز عن الرؤية.

وكذلك لا نسلم لأحد القول بأن العقل عاجز بطبيعته عن إدراك الحسن والقبح في الأشخاص والأشياء، ولا نسلم أبدا بأن الكذب والصدق، والعدل والجور معان متساوية القيمة أصلًا حتى تنزل الوحي الأعلى فحسن هذه وقبح تلك.

والذي نراه أن جمهور المسلمين وفي مقدمتهم الإمام الشافعي -رضي الله عنه-

يقصدون بكلامهم في التحسين والتقبيح رفض تحكيم الفلسفة العقلية في سير الإنسان ومصيره، وحاضره ومستقبله، وشؤون حياته كلها ما دق منها وما جل.

وهذا مذهب خطير بلا ريب، بل هو تجاهل لرسالات الله كلها، واستعلاء على ما جاء بها، وقبول ما يعجب ورد ما لا يعجب.

ومن فجر الخليقة حاول الإنسان أن يعتمد على نفسه في الفعل والترك والقبول والرفض، وفي عصرنا هذا أعطى الإنسان نفسه حرية مطلقة في التشريع الخاص والعام، وتصرف في شتى التقاليد بالمحو والإثبات.. وجعل حقه في التحسين والتقبيح فوق ما قرع آذانه ليلًا ونهارًا من آيات الله والحكمة.

وما يختلف مسلم ومسلم في أن ذلك المسلك مردود جملة وتفصيلًا.

وإذا كانت هناك الآن مقررات في علوم الاجتماع والاقتصاد، أو في ميادين السياسة والقانون تختلف مع نصوص الدين وقواعده العامة فهي في نظر فقهاء المسلمين قاطبة منكورة مبعدة.

فإن أوامر الله ونواهيه هي المصدر الأعلى، أو قل هي المصدر الأوحد لما يحظر أو يباح، وقد عاد الزنجاني في كتابه القيم «تخريج الفروع على الأصول» إلى هذا الموضوع مرة أخرى فقال: ذهب جماهير العلماء إلى أن التحسين والتقبيح راجعان إلى الأمر والنهي، فلا يقبح شيء لعينه، ولا يحسن شيء لعينه، بل المعنى بكونه قبيحًا محرماً أنه متعلق النهي، والمعنى بكونه حسنًا واجبًا أنه متعلق الأمر. واحتجوا في ذلك بأن إيجاب العقل شيئًا من ذلك لا يخلو إما أن يكون ضروريًا، أو نظريًا.

والأول محال، فإن الضروريات لا تنازع فيها، كيف ونحن جم غفير وعدد كثير لا نجد أنفسنا مضطرين إلى معرفة حسن هذه الأفعال ولا قبح نقائضها.. والثاني أيضًا محال لإفضائه إلى التسلسل.

وذهب المنتمون إلى أبي حنيفة -رضي الله عنه- من علماء الأصول إلى أن الأفعال تقسم إلى ثلاثة أقسام، فمنها ما يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه بديهة، كحسن الصدق الذي لا ضرر فيه وقبح الكذب الذي لا نفع فيه.

ومعنى استقلال العقل بدرك ذلك عندهم أنه لا يتوقف على إخبار مخبر.

ومنها ما يدرك حسنه وقبحه بنظر العقل كحسن الصدق المشتمل، على الضرر وقبح الكذب المشتمل على النفع.

ومنها ما لا يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه أصلًا، دون تنبيه الشرع عليه كحسن الصلاة والصوم والحج والزكاة، وقبح تناول الخمر والخنزير ولحوم الحمر الأهلية، وزعموا أن أمر الشرع في هذا القسم ونهيه، كاشف عن وجه حسن هذه الأفعال وقبحها، لعلمه بأن امتثال أمره فيها يدعو إلى المستحسنات العقلية، وكذلك الترك في نقيضها من المناهي، واحتجوا على كون العقل مدركًا لمعرفة الحسن والقبح بأن البراهمة يقبحون ويحسنون مع إنكارهم الشرائع وجحدهم النبوات.

وقد رفض الزنجاني مذهب الأحناف الذي صوره في إيجاز، وآثر عليه غيره.

والذي نعود إلى توكيده أن الله جل شأنه هو الحاكم المقسط، وأنه لا يشرع إلا ما فيه صلاح أمرنا في العاجل والآجل، وأنه منحنا عقولًا تستطيع أن تبصر وجه الحكمة في أغلب ما شرع، وأن ما يفوتها عرفانه فلقصورها عن الإحاطة بكل شيء.

وتلك معان لا يختلف الفقهاء فيها، وما ورد يشعر بخلاف فأساسه الحرج النفسي من مذاهب جائرة عن الطريق الحق، أو بتعبير فقهائنا الأقدمين أساسه «سد الذريعة».





(١٣)

تفتيت الحقيقة

بداية التحول عنها!

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩ هـ) أغسطس (١٩٦٩م)

أصاب جهاز «التلفزيون» عندي عطل مبهم فلم تظهر الصورة المرتقبة، ونظرت إلى الجهاز الجاثم في مكانه لا يؤدي عمله نظرة استغراب! وتحسسته بيدي فخيل إلي أنه لا ينقص شيئًا من آلاته الجلية والخفية..

وأخيرًا جاء العامل المتخصص في إصلاحه، واستبدل بجزء تالف منه جزءًا صالحًا، واستأنف الجهاز عمله، وشرع يحقق الفائدة المرجوة منه!

وقلت في نفسي: إن الجهاز كله توقف عن أداء رسالته حتى تعاونت أجزاؤه الصغار والكبار على تحقيق وظائفها المنوطة بها! ولا عجب فقد تتوقف الدبابة عن السير والقتال لقطعة تنقصها في مقدمتها أو مؤخرتها..

وقد يتعطل مصنع عن الإنتاج تكلف إنشاؤه الألوف المؤلفة من الجنيهات، لأنه يفتقر إلى تكملة لا تساوي مائة جنيه..

وهكذا شؤون الحياة المادية والأدبية، قد يصيبها عطب فادح، لأن شطرها أو أغلبها موجود وبقيتها الأخرى مفقودة عن خطأ أو تعمد.

ومن ثم قد ترى أمامك أشياء صالحة، ولكنها قليلة الجدوى، لأنها مبتورة، وما تتم قيمتها وتبرز ثمرتها إلا إذا دارت الحياة فيها وفيما يكملها، وعندئذ ينطلق التيار في دائرته المغلقة فيسطع النور.

إن تعاليم الإسلام كذلك لا تصلح الحياة وتقيم المجتمعات إلا على النحو الذي شرحنا.. وعناصر الوحي تشبه عقاقير الأدوية لا يتم الشفاء بها إلا إذا أخذناها كما جاءت، أما إذا طرحنا عقارًا، وتناولنا آخر فلن يذهب لنا سقام.

وقد وجدت أن كثيرًا من علل المسلمين الفكرية والنفسية، بل عللهم الاقتصادية والسياسية ترجع إلى أنهم يجدون مع بعض النصوص، ويهزلون مع بعضها الآخر، فلا يحصدون من هذا التناقض إلا ضياع النصوص كلها.

ولا يفيدون من النصوص التي عملوا بها- فيما يزعمون- شيئًا طائلًا؛ لأن وجودها المنقوص في المجتمع كوجود جهاز «التلفزيون» الذي سقت لك خبر عطله.

تأمل معي هذا الحكم الشرعي في فرع من فروع الفقه الإسلامي..

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ...﴾ **(البقرة: ٢٣١)**، إلى هنا يمكن تقرير الحكم العملي في شأن يتصل بكيان الأسرة، وربما لا يشتغل العلماء أنفسهم عند تقرير الحكم بأبعد من ذلك عند إيراد النص.. أفهذا ما فعل القرآن الكريم؟ لا، لقد أعقب ذلك بخمس جمل تتضمن فنونا من النصح والتأديب والتربية يضيع المجتمع إن أضاعها، فقال جل شأنه:

١- ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾

٢ - ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ﴾.

٣ - ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ﴾.

٤ - ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٥ - ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وعندما توجد في بلادنا أحكام الطلاق ولا توجد معها بقية المعاني التي صاحبتها في هذه الآية فسوف يُلعب بكتاب الله، ولن تزيد الأمة إلا خبالًا!

خذ مثلًا آخر، لقد نهى الإسلام عن السرقة، وأمر بقطع يد السارق، بيد أن هذا الحد من حدود الإسلام يكون خيرًا وبركة مع إحياء أوامر الله كلها، وإقامة شعب الإيمان الكثيرة، التي تسد يقينًا كل ثغرة، وتمنع أي غبن، وتطارد آفات البطالة والجوع عند البعض، وآفات النهب والحيف والسرف عند البعض الآخر، أما مع رفع كل رقابة عن طرق الاكتساب، وإتاحة الثراء من شتى الوجوه الحرام، وإيقاع الضعاف في عقابيل البأساء والضراء، فالأمر يحتاج إلى تبصر في التطبيق.

ومعاذ الله أن نتريث في إقامة حد من حدود الله، ولكنا نقول مقالة الحسن، وقد رأى الشرطة تقبض على لص فقال: أسارق السر يسعى به إلى سارق العلانية!

وما كذلك دين الله.. وسمعت متحدثًا في الدين يذكر أنه لا حدود للمهر، ويستشهد بقصة المرأة التي اعترضت عمر بن الخطاب لما أراد تقييد المهور، والقصة صحيحة، ولكن المتحدث قليل الفقه في الإسلام، ضعيف الشعور بمآسي المسلمين اليوم..

إن الجمهرة من الشباب ألفت أن تقضي صدر عمرها، ولا أقول شطره، في التسول الجنسي والانحراف الشائن، وكل تعسير للحلال سيتبعه حتما تيسير الحرام، فكيف يلقى فقيه ربه بإقرار هذه الحال، أو إقرار ما يؤدي إليها يقينا؟

إن قصة عمر مع المرأة المعترضة تفهم في جو كان الرجل يستطيع فيه الزواج مثنى وثلاث ورباع.. وكان الحرام يقع فلتات نادرة أو استثناء من قاعدة عامة.. أما اليوم فإن العرف السائد بين جماهير المسلمين في الزواج والمهور والهدايا لا صلة له بتقوى الله، ولا إشاعة الاستعفاف، ولا إقرار الطهر النفسي والاجتماعي.

إنه عرف يقوم في جملته على رذائل الرياء، والكبرياء، ورغبة أسر كثيرة في الانتفاخ والتعاظم..

إن الإسلام كل لا يتجزأ، والشبكة التي تنسج تعاليمه الدقيقة تفقد جدواها عندما تخرق من جانب واحد، فكيف إذا تعددت فيها الخروق، وتفاحش الإهمال والتلف؟

والواقع أن هجر بعض الأحكام الإسلامية، والإقبال على بعضها الآخر، هدم لمبدأ السمع والطاعة المأخوذ على جماعة المؤمنين.

فإن تقسيم الوحي الإلهي على هذا النحو لا يعدو أن يكون تحكيمًا للهوى الشخصي فيما ورد، فما أعجبنا قبلناه وما لم نسغه رفضناه.

وهذا قريب من مسلك المشركين أنفسهم مع رسول الله، فإنهم لم يردوا كل ما جاء به، بل وافقوه على البعض، وحاربوه على البعض الآخر، ولذلك أمره الله بالثبات على الكل، وقال له ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ **(هود: ١٢)**.

واتباع الهوى في استبقاء حكم واطراح آخر معناه أن ما استبقي ليس لأنه أمر به! فقد أمر بغيره كذلك، فلماذا ترك؟ معناه أن ما استبقي ظفر بالحياة لأنه أرضى رغباتنا فقط، ولو صادمها لطوحنا به هو الآخر، وقد نبه القرآن الكريم إلى أن فساد بني إسرائيل نشأ مع هذا العوج، فقد أخذت عليهم المواثيق بأمور سواء، ففعلوا بعضها وتناسوا بعضها، لأنهم يتصرفون وفق شهواتهم، ولا يرتبطون بأمر الله ونهيه، فكان التعقيب الإلهي على هذا السلوك ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ **(البقرة: ٨٥)**.

والأمة الإسلامية اليوم موزعة على عشرات الدول، وأمر الإسلام في كل دولة منها يستحق الدراسة، ويؤسفني أن أقول: إني لم أره مكتمل الشكل

والموضوع في قطر من أقطار الأرض.

هناك مجتمعات لا تعترف بالحدود والقصاص، ومجتمعات لا تعترف بدساتير الحريات والحقوق، ومجتمعات لا تعترف بالحلال والحرام، وأخرى تترك الصلاة والصيام، وأخرى وأخرى...

وأعداء الإسلام كلما رأوا جزءًا منه أصابه الشلل، سارعوا بالتدخل الماكر، ليزيدوا الطين بلة، أو ليزيدوا المريض علة..

ونحن نصرخ بأولئك المسلمين المفرطين أن يرجعوا إلى دينهم كله، لا يدعون منه شيئًا، ولا يفرطون في جانب، ولا يأذنون لعدو سافر ولا لصديق جاهل أن يصرفهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، فذاك وحده طريق النصفة والانتصار.

إن شعب الإيمان التي تبلغ السبعين موزعة توزيعا دقيقًا على الدائرة الرحبة التي تمد إليها وظيفة الإيمان وتنتشر فيها أشعته.

ولما كان الإسلام علاقة تشمل النفس والمجتمع والدولة، وتتناول المعاش والمعاد في إطار من معرفة الله ورقابته، فإن تعاليمه تشبه شبكة الأعصاب المبسوطة في الكيان الإنساني كله، لا تخلو منها جلدة بين الرأس والقدم!

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ **(النحل: ٨٩)**.

ومن الخطأ تصنيف تعاليم الإسلام على أساس فني وتصور أن بعضها يقوى وينمو في حين أن بعضها الآخر يذبل ويذوي.

إن ذلك قد يجوز في عالم الدراسات النظرية، حيث ينجح الطالب في مادة ويرسب في أخرى، لأنه استوعب الأولى وأهمل الثانية.

أما في المجتمع الكبير فإن اعتلال بعض الإسلام ينقل العلة إلى البعض

الآخر على عجل أو على مهل ما لم نسارع بالاستشفاء والتصون وإنفاذ أوامر الله في كل مجال.

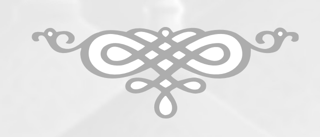
فضعف العقيدة مثلًا ليس يترك أثره الرديء في صلة المسلم بربه بل يتعدى ذلك إلى موقف الفرد من الجماعة وموقف الدولة من العالم أجمع.

وترك الصلاة ليس معصية خاصة فقط، بل هو ذريعة إلى انهيار الأخلاق وانتشار الآثام.

وإهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس برودا في عاطفة التدين فقط، ولكنه آية على موت الضمير الاجتماعي وتلاشي رسالة الأمة.

والاستعمار الحديث في حملته على الإسلام لا يقوم بهجوم شامل على كل شيء، إنه أذكى من ذلك وأدهى.. إنه يصر على إماتة بعض التعاليم أو سرقتها من الوعي العام، عالما أن ما بقي سيتبع ما أخذ.

ترى هل سنخدع عن ديننا أم ندافع عن كل ذرة منه.



(١٤)

يهودية وصهيونية

(١)

لا تبعدوا اليهودية والإسلام عن المعركة

التنادي بالإسلام هو صيحة النجاة

العدد (٥٦) شعبان (١٣٨٩هـ) شهر أكتوبر (١٩٦٩م)

إن وسائل الإعلام في الأمة العربية حريصة أشد الحرص على أن تفرق بين اليهودية والصهيونية، وعلى أن تجعل القارئ أو المستمع العربي يقصي الدين إقصاء عن الصراع الدائر اليوم على اغتصاب فلسطين وما حولها..

ولا يخفى خطر هذا المسلك، وبعده عن التاريخ والواقع، وتخذيله لوسائل الدفاع التي ينبغي توفيرها في وجه هجوم ديني حاقد!

إن الصهيونية ليست وليدة بحث اليهود عن وطن لهم بعدما أحسوا وحشة الغربة في أرض الله الواسعة، كلا، فقد وسعتهم بلدان شتى، وعاشوا فيها جزءًا من أبنائها الأصلاء، ووصلوا إلى درجة فاحشة من الثراء، ومناصب كبيرة في الحكم، ولكنهم رجحوا نداء دينهم على علاقاتهم بأوطانهم، وآثروا التجاوب مع توراتهم وتلمودهم على الذوبان في الوطنية الأمريكية أو الألمانية أو الروسية أو المصرية أو العراقية.

سيرتهم في مختلف القارات واحدة، ونزوعهم إلى خدمة عنصرهم وحسب، ديدنهم في كل مكان وزمان..

لقد عاش اليهود ملوكًا بيننا نحن المصريين في أواسط هذا القرن، فلم تركوا مصر إلى إسرائيل؟ فرارًا من اضطهاد؟ إنه نداء الدين وحده.

وهم الآن يحيون ملوكا في أمريكا وفي أوروبا الغربية، ولكنهم عرضوا مصالح الأوطان التي وسعتهم للبوار.

في سبيل ماذا؟ في سبيل إسرائيل، في سبيل دولة دينية تجمعهم في سبيل الملك الذي تهفو إليه ضمائرهم، ويتلون آياته في صحف العهد القديم على أنه وعد الله الذي لا يتخلف لهم ولذراريهم من بعدهم..

إن الصهيونية ليست نزعة سياسية تولدت عن الاضطهاد النازي في ألمانيا..

فإن اليهود قبل هذا الاضطهاد بسنين أو بقرون كانوا يحلمون بامتلاك فلسطين وطرد أهلها منها أو إبادتهم فيها..

ونحن لا نقر في العالم أجمع أي تفرقة جنسية، ولكن مسلك اليهود في ألمانيا كان هو السبب الأول في إهاجة الألمان عليهم وإيقاع المذابح الشائنة بهم.

لقد ظهر أن ولاء اليهود لأوطانهم الرسمية مزيف، وأن ولاءهم الأول هو لجنسهم وتاريخهم وأمانيهم الحرام في حقوق الآخرين.

وربما تعرض اليهود في أمريكا بعد سنين معدودة لمثل ما تعرض له أسلافهم في ألمانيا النازية عندما يصحو الأمريكيون فيجدون أن مصالحهم في العالم العربي والإسلامي قد تلاشت لأن يهود أمريكا قد باعوا هذه المصالح في سبيل قضاياهم الخاصة..

والمهم ونحن نواجه معركة الحاضر والمستقبل أن نحذر من الببغاوات التي تردد بغباء كلمات لا تفهمها وتريد بجهلها الغالب إبعاد اليهودية والإسلام عن المعركة، مع أن المعركة لا تعني إلا القضاء على الإسلام لحساب القوى المعادية له..

إننا لقينا العنت من أولئك الشامخين بجهلهم، سواء كانوا في الصحف

أو الإذاعات، أو المسارح، وظاهر أنهم ثمار الاستعمار الثقافي لبلادنا، ذلك الاستعمار الناقم على الإسلام وحده، الحريص على تربية أجيال تكره شرائعه وفضائله، وترفض مناسكه وشعائره، وتنسى ماضيه وحاضره.

تلك هي الأجيال التي وقفت في ميدان السياسة تصف الغزو اليهودي لفلسطين بأنه حركة عنصرية، أو عدوان محلي، أو تعاون بين الامبريالية والصهيونية، أو تآمر رأسمالي على حركات التحرر الحديث، أو غير ذلك من الترهات التي أتقنها الجهل المستكبر الفاشي هنا وهناك..

ولو أن واحدًا من هؤلاء ذهب إلى أقرب مكتبة، ودفع قروشًا قليلةً أو كثيرة، واشترى العهد القديم وحده، أو الكتاب المقدس كله، ثم كلف خاطره القراءة فيه لوجد التخطيط الديني لإسرائيل الكبرى واضحًا في صحائفه، ولوجد الكفن يلف رفات العرب منسوجًا من كلماته، ولوجد حرب الإبادة التي تعرض لها قومه ناضحة بين سطوره.

إن مؤامرة الاستعمار في القرون الأخيرة خلع العرب من دينهم في الوقت الذي يتحمس فيه كل ذي دين لدينه..

إن صحف العهد القديم لم تكتف بحداء بني إسرائيل كي يجيئوا من كل مكان إلى فلسطين، بل صورت لهم البقاع التي ينزلون بها، والحدود التي تفصل كل سبط عن أخيه!

ووزعت عليهم دمشق وحماة وبيروت وعشرات من البلاد الواقعة قرب البحر المتوسط..

اقرأ هذه السطور من سفر حزقيال:

لذلك هكذا قال السيد الرب: الآن أود سبي يعقوب وأرحم كل بيت إسرائيل، وأغار على اسمي القدوس، فيحملون ضربهم وكل خيانتهم التي خانوني إياها عند سكنهم في أرضهم مطمئنين ولا مخيف.

عند إرجاعي إياهم من الشعوب، وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم، وتقديسي فيهم أمام عيون أمم كثيرة. يعلمون أني أنا الرب إلههم بإجلائي إياهم إلى الأمم ثم جمعهم إلى أرضهم، ولا أترك بعد هناك أحدا منهم، ولا أحجب وجهي عنهم بعد، ولأني سكبت روحي[١] على بيت إسرائيل يقول السيد الرب..

الإصحاح الأربعون

في السنة الخامسة والعشرين من سبينا، في رأس السنة، في العاشر من الشهر، في السنة الرابعة عشرة بعدما ضربت المدينة..

في نفس ذلك اليوم كانت على يد الرب وأتى بي إلى هناك..

في رؤى الله أتى بي إلى أرض إسرائيل ووضعني على جبل عال جدًا عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب ولما أتى بي إلى هناك إذا برجل منظره كمنظر النحاس، وبيده خيط كتان وقصبة القياس وهو واقف بالباب.

فقال لي الرجل: يا ابن آدم: انظر بعينيك واسمع بأذنيك واجعل قلبك إلى كل ما أريكه، لأنه لأجل إرادتك أتى بك إلى هنا.

أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى.

وإذا بسور خارج البيت محيط به وبيد الرجل قصبة القياس ست أذرع طولًا بالذراع وشبر..

فقاس عرض البناء قصبة واحدة وسمكه قصبة واحدة، ثم جاء إلى

(١) عاش حزقيال، مؤلف هذه الإصحاحات، أيام المحنة الأولى لبني إسرائيل بعد أن فسدوا فسلط الله عليهم بختنصر، وجنوده فاجتاحوا البلاد ودمروا الهيكل، وساقوا أمامهم عشرات الألوف من اليهود أسرى، وقد عزى الرجل قومه بهذه الكلمات، وملأ روعهم أنهم متخلصون من الأسر البالي وعائدون إلى بلادهم، وقد عادوا فعلًا لكنهم سرعان ما زاغوا وطردوا من فلسطين، وقد عادوا ثالثة يحملون آثامهم الأولى ومشاعرهم القديمة، وسوف يتم طردهم إن شاء الله ولو بعد حين.

الباب الذي وجهه نحو الشرق وصعد في درجة، وقاس عتبة الباب قصبة واحدة عرضا والعتبة... الخ الخ الخ.

الإصحاح الأربعون والحادي والأربعون والثاني والأربعون حيث ينتهي وصف قياس بيت الهيكل.

الإصحاح الثالث والأربعون

«ثم ذهب بي إلى الباب، الباب المتجه نحو الشرق وإذا بمجد إله إسرائيل جاء في طريق الشرق وصوته كصوت مياه كثيرة والأرض أضاءت من مجده».

«وقال لي يا ابن آدم هذا مكان كرسيي، ومكان باطن قدمي، حيث أسكن في وسط بني إسرائيل إلى الأبد ولا ينجس بعد بيت إسرائيل اسمي القدوس، لا هم ولا ملوكهم».

الإصحاح الخامس والأربعون

وإذا قسمتم الأرض ملكا تقدمون تقدمة للرب قدسا من الأرض طوله خمسة وعشرون ألفا طولا والعرض عشرة آلاف.

الإصحاح السابع والأربعون

هكذا قال السيد الرب، هذا هو التخم الذي به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثني عشر، يوسف قسمان، وتمتلكونها أحدكم كصاحبه على الهيئة التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها وهذه الأرض تقع لكم نصيبًا.

وهذا تخم الأرض:

نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجيء إلى صدد:

حماة وبيروتة وسترائيم التي بين تخم دمشق وتخم حماة وحصر الوسطى التي على تخم حوران.

ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالًا، وتخم حماة وهذا جانب الشمال، وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرمن اسراشيل الأردن من التخم إلى البحر الشرقي نفيسون، وهذا جانب المشرق وجانب الجنوب يمينا من ثامار إلى مياه مريبوث قادش النهر إلى البحر الكبير. وهذا جانب اليمن جنوبًا.

وجانب الغرب البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة، وهذا جانب الغرب فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل».

هكذا وضع أنبياء بني إسرائيل الأقدمون خطة تمزيق العرب، وتقسيم تراثهم على أسباط إسرائيل.

وقد نقلت هذه السطور من العهد القديم، وإن كنت لم أفهم أغلب الأسماء[1] التي تحدد تخوم الأرض أو توضح اتجاهات الزحف اليهودي كما أوصى به كاتبو ذلك العهد..

ويظهر أن الهود لخصوا المراد في الجملة المشهورة «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل» وهم أدرى بما في كتبهم المقدسة، وأدرى بما يعنيه حزقيال متلقي هذه الخريطة عن الوحي الإلهي كما يدينون..

وأريد أن أقول باسم الإسلام المستوحش المكتئب كلمة حاسمة..

كلمة سوف تبدو غريبة على الآذان التي طمسها الهوان والإذلال أمدًا طويلًا، والتي مرنت على سماع الزور والباطل وحده.

إن الدين قد انتقل انتقالة واسعة عن المفهوم البدائي الضيق الذي ألفه الإسرائيليون، مفهوم الهيكل، ومملكة الرب، والشعب المختار، وحكم العالم باسم رب الجنود عن طريق حكماء صهيون أو بيت إسرائيل..

---

(١) حبذا لو عني المؤرخون العرب بوضع فهرس مقارن شامل لهذه الأعلام القديمة، حتى يلقوا ضوءا على هذه المسميات

إن هذه الكلمات المصورة لمعنى الدين أليق بالعهد البدائي الذي كانت قبائل إسرائيل فيه تغدو وتروح بقيادة رعاة محليين يؤدون واجبهم حينا، أو يقتلون قبل هذا الأداء المفروض.

لقد أصبح للدين مفهوم أرحب، ليس فيه هيكل مقدس، ولا شعب مختار ولا أدب محتكر.

حقيقة هذ الدين أن الله رب العالمين أجمعين على سواء.

وأن التقدم عنده ليس بالنسب ولا بالادعاء بل بالخلق الزكي والتقوى المهيمنة، لا كهانة هناك ولا تهاويل ولا هياكل..

شيئان فقط هما أساس العلاقة بين الله الأحد، وبين كل إنسان يمشي على قدميه في القارات الخمس: الإيمان والعمل الصالح.

إن محاولة بني إسرائيل مسخ مفهوم الدين على النحو الذي جمدوا عليه من عشرات القرون جريمة فاحشة لا يمكن قبولها..

لقد جاء عيسى ابن مريم ليكسر القيود الصلبة التي أراد بنو إسرائيل حبس الدين داخلها.

وكان مجيئه تمهيدًا للرسالة الخاتمة التي مزجت الدين بكل أشواق الإنسانية الرفيعة في الإيمان المهدى والأخوة العامة، حيث لا مكان للتسامي إلا بالقلب السليم والفكر السليم..

نعم بعث الله محمدًا مسويًا بين أجناس البشر في الولاء للحي القيوم مسقطًا كل سلطان مفتعل في ميدان الروح أو في ميدان المال..

فإذا أراد بنو إسرائيل أن يلحقوا بقافلة الإنسانية الحرة المتآخية فلا بد أن يؤمنوا بعيسى ومحمد وإذا كانوا حراصا على استعادة مجدهم القديم فطريق الخلاص مفتوحة أمامهم، ولكي يعرفوها جيدًا قال الله ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ...﴾ **(البقرة: ٤٠، ٤١)**.

إن بني إسرائيل يحلمون أن يحكموا العالم من هيكلهم وهم مصرون على تصديق ما لديهم وحده وتكذيب كل ما جاء به عيسى ومحمد.. وما لديهم مزيج من وحي الله وهوى الأنفس.

ولو افترضنا جدلًا أنه حق لا ريب فيه، فإن الوقوف عنده وحده، ونبذ ما أوحى الله بعده مسلك لا تصلح به الدنيا ولا يسعد به عباد الله..

ومن هنا اشترط الإسلام أن يكون الإيمان بكتب الله كلها، ورفض ما سوى ذلك من إيمان مبتور فقال جل شأنه ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ **(المائدة: ٦٨)**.

وعلى لسان موسى- كبير أنبياء بني إسرائيل- ذكر ربنا جل جلاله أن أبواب رحمته مفتحة لعباده، وأن الصلحاء الأتقياء يستطيعون دخولها متى شاءوا، فعندما دعا موسى ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ...﴾**(الأعراف: ١٥٦)** كان الجواب الإلهي له ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ **(الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧)**.

إن قيادة العالم باسم الله ليست مهمة سهلة يستطيعها اليهود بمهارتهم المالية وألاعيبهم الشيطانية، وتسخيرهم للشعوب المفرطة وانتهازهم للفرص

المتاحة.. وقد نبأ القرآن الكريم أن التاريخ اليهودي سيتفاوت بين مد وجزر، ومعصية وطاعة وهزيمة ونصر.

قال لهم بعد هدم الهيكل الأثير ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ...﴾ (**الإسراء: ٧**) وقال لهم أيضًا ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا...﴾(الإسراء: ٧).

أي إن عدتم للفساد عدنا للانتقام.

وقد عاد اليهود إلى فلسطين- لأسباب شتى- فكيف عادوا؟ وما هي مثلهم العليا، وما مواقفهم من وصايا الله للنبي الخاتم والنبي الذي سبقه وبشر به؟

لقد عادوا متشبثين بما لديهم وحده مكذبين لكل ما جد بعد..

وكسبوا نصرًا بعد نصر على من؟ على أوزاع من العرب جهلوا رسالتهم، ونسوا تاريخهم، وعاشوا في دنيا الناس أذنابًا، وعن كتاب الله وهدى نبيه غرباء..

إن مجموعة الشعوب الإسلامية تشعر بجزع مر لا للحروب التي جرت بين العرب واليهود، ولكن للطريقة التي جرت بها هذه الحروب، ولظاهر الانحلال والفسق عن أمر الله التي ملأت جوها..

كان العرب أزهد الناس في كتابهم، وكان اليهود ألصق الناس بتوراتهم.. كان اللص متحمسًا في الهجوم، وكان رب البيت باردًا في الدفاع..

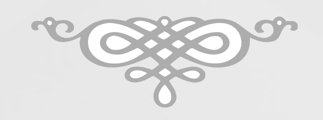
وبلغ من نجاح الغزو الثقافي لبلادنا أن الحرب تعلن علينا لفرض دين، واجتياح أمة، ومع ذلك تتبارى وسائل الإعلام في تضليل الفكر العربي، وتصف هذه الحرب بأي شيء إلا أنها تتصل بالدين..

ولم ذلك؟ حتى لا يستيقظ الوعي الإسلامي العارم، وتتجاوب الأصداء بضرورة العودة العامة الجادة إلى الإسلام لوقف هذا الفناء القادم.

لكن آمالنا أن غرائز الأمم تصحو لملاقاة الخطر الداهم، وأن التنادي بالإسلام سوف يكون اليوم صيحة النجاة.

وسوف يكون غدًا صيحة النصر..

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (**النمل: ٩٣**).



(١٥)

يهودية وصهيونية

(٢)

واضعو الأسفار كانوا جزارين في ثياب متدينين

بنو إسرائيل عادوا إلى فلسطين ليفنوا لا ليحيوا

ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين واليهود فيقتل المسلمون اليهود

العدد (٥٩) ذو القعدة (١٣٨٩هـ) يناير (١٩٧٠م)

سمعته يقول: اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر! اليهودية دين سماوي كالنصرانية والإسلام، أما الصهيونية فنزعة سياسية متطرفة استغلها الاستعمار الغربي لبلوغ مآربه.. اليهودية دين قديم له مصادره المقدسة، أما الصهيونية فحركة حديثة ولدت في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وغذتها ونمتها ظروف عنصرية ودولية طارئة.

قلت له: تعني أن اليهودية لا أطماع لها في فلسطين، وأنها لم تبيت عدوانا على العرب الآمنين، وأن التوراة والتلمود وسائر الأسفار المقدسة بريئة مما تفعله الآن دولة إسرائيل، وأن الحرب المعلنة علينا من خمسين سنة ليست دينية!

قال: نعم هذا بدقة ما أريد أن أذكره!

قلت: أو لو قرأت عليك من نصوص الكتب المقدسة ما يدحض هذه الأوهام؟

قال: كيف؟ يستحيل أن تتضمن هذه الكتب استباحة أرضنا وجنسنا، والاستهانة بحقوقنا المؤكدة!

قلت: بل سأقرأ عليك من الكتب المقدسة المتداولة بين أيدي القوم ما يزيح هذه الغشاوة عن الأعين، وما يشرح أن فلسطين كانت ملكًا لبني إسرائيل خاصة بهم، وأنهم أجلوا عنها عقابًا إلهيًا للآثام التي ارتكبوها، وأن الإله الذي عاقبهم، تجاوز- بعد- عن سيئاتهم، وقرر إعادتهم إلى أرضهم الأولى كي تفيض عليهم سمنًا وعسلًا وخمرًا، وأن هذا الإله ندم على ما فعل بشعبه المختار، ورد إليه مجده ووطنه، كي تتوطد سلطته وسيادته على أنقاض غيره من الأمم! هكذا تقول صحائف التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم التي يتعبد اليهود في المشرق والمغرب بتلاوتها، والتي يستوحون منها سياستهم في القديم والحديث على سواء!

وعلى ضوء هذه السطور المقدسة (!) بل على نارها المحرقة أكلت حقوق العرب، وتواصى الأوروبيون والأمريكيون باجتياحها. ثم جاء اليهود في الوقت المناسب ليتسلموا أرض الميعاد التي حدثتهم كتبهم عنها، وباشروا حرب الإبادة التي لا بد منها ليسود جنسهم وتقوم مملكتهم!

وقد كانوا في إقبالهم من شتى القارات إلى فلسطين معبئين بشعور ديني عارم تعمل من ورائه هذه النصوص، كما أنهم في بنائهم دولة إسرائيل ومقاتلتهم العرب أصحاب الأرض كانوا مفعمين بهذه العاطفة الدينية المرتكزة على كلمات التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم!

قال الرجل: أين هي تلك النصوص التي تشير إليها؟ قلت: أنصت وسأضع بين يديها ما يشرح رأينا نحن المسلمين فيها.. فإننا معشر المسلمين نؤمن بموسى وتوراته.. أما ما دوّنه جامعو العهد القديم ونسبوه إلى الله فأمر آخر يتجاور فيه الحق والباطل والجد والهزل!

ربما كان قريبًا من الصدق أن الله شتت بني إسرائيل لما اقترفوه من ذنوب، وفي القرآن الكريم شرح دقيق لذلك..

ومن ثم فنحن نقبل إجمالًا ما ورد في صحف العهد القديم من أسباب

النكال ببني إسرائيل، والحكم بتمزيقهم في أرجاء الأرض، ولنقرأ معهم هذه الكلمات الواردة في كتبهم:

«لأجل ذلك قال السيد الرب: من أجل أنكم ضججتم أكثر من الأمم التي حواليكم، ولم تسلكوا فرائضي، ولم تعملوا حسب أحكامي، ولا عملتم حسب أحكام الأمم التي حواليكم لذلك- هكذا قال السيد الرب- ها اني أيضًا عليك[١] وسأجري في وسطك أحكامًا أمام عيون الأمم، وأفعل بك ما لم أفعل، وما لن أفعل مثله بسبب كل أرجاسك! لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك، والأبناء يأكلون آباءهم، وأجري فيك أحكاما وأذري بقيتك كلها في كل ريح»

(٧- ١٠- الإصحاح الخامس- حزقيال)

من أجل أنك صفقت بيديك، وخبطت برجليك، وفرحت بكل إهانتك للموت على أرض إسرائيل فلذلك هأنذا أمد يدي عليك، وأسلمك غنيمة للأمم، وأستأصلك في الشعوب وأبيدك في الأراضي، أخربك فتعلم أني أنا الرب[٢].

(٦ - ٧ الإصحاح الخامس والعشرون- حزقيال)

ويكون في ذلك اليوم، يقول الرب: أني أقطع خيلك في وسطك، وأبيد مركباتك، وأقطع مدن أرضك، وأهدم كل حصونك، وأقطع السحر في يدك، ولا يكون لك عائفون وأقطع تماثيلك المنحوتة، وأنصابك في وسطك، فلا تسجد لعمل يديك فيما بعد.

(١٠- ١٣- الإصحاح الخامس - ميخا)

---

(١) الخطاب لأورشليم أو بيت المقدس.

(٢) الخطاب هنا للشعب الإسرائيلي

«إلى الجلاء إلى السبي يذهبون والرئيس الذي في وسطهم يحمل[١]على الكتف في العتمة ويخرج، ينقبون في الحائط ليخرجوا منه، يغطي وجهه لئلا ينظر الأرض بعينيه، وأبسط شبكتي عليه فيؤخذ في شركي وآتي به إلى بابل إلى أرض الكلدانيين ولكن لا يراها وهناك يموت.

وأذري في كل ريح جميع الذين حوله لنصره، وكل جيوشه.

وأستل السيف وراءه، فيعلمون أني أنا الرب حين أبددهم بين الأمم وأذريهم في الأراضي وأبقي منهم رجالا معدودين في السيف وفي الجوع وفي الولاء لكي يحدثوا بكل رجاساتهم بين الأمم التي يأتون إليها فيعلمون أني أنا الرب

(١١- ١٦- الإصحاح الثاني عشر- حزقيال)

ونحن نجزم بأن الله لعن بني اسرائيل لعصيانهم وعدوانهم، ونستفيد هذه الحقيقة من كتابنا الوثيق قبل استفادتها من أي شيء آخر..

فهل تغير من خلائق اليهود ما استحقوا من أجله اللعنة؟ لقد مرت آلاف السنين على هذا الشعب المطارد، قاتل الأنبياء، المتمرد على وحي السماء!

وبعث الله عيسى إليهم فكذبوه وحاولوا قتله، وبعث إليهم محمدًا من بعده فكذبوه وحاولوا قتله، وتتابعت الأعصار وهم حيث حلوا في أرض الله نماذج للأثرة والقسوة وأكل الربا وإشاعة الخنا..

بيد أن كاتب العهد القديم وعد اليهود بأنهم سيعودون إلى فلسطين التي نفوا منها!

وتوارث القوم هذا الأمل، وأحسوا كأن هذا القطر إرث لا بد أن يؤول إليهم، وأن غيرهم طارئ عليه يجب أن يزول.

(١) يعني أن ملكهم سيكون كالسوقة في المهانة.

وعلى هذا الأساس عومل العرب، وعولج وجودهم التاريخي والديني! ولنقرأ هذه الكلمات من العهد القديم: برائحة سروركم أرضى عنكم، حين أخرجكم من بين الشعوب، وأجمعكم من الأراضي التي تفرقتم فيها، وأتقدس فيكم أمام عيون الأمم! فتعلمون أني أنا الرب، حيث آتي بكم إلى أرض إسرائيل! إلى الأرض التي رفعت يدي لأعطي آباءكم إياها.

(٤١-٤٢ من الإصحاح العشرين- حزقيال).

أي نشوة دينية عارمة تغمر اليهود وهم قادمون من كل فج صوب أرض فلسطين؟

وهذا النص الديني يسوقهم!

وقبل أن أستطرد في إيراد النصوص الدينية التي تحدث اليهود عن أرض الميعاد، وعن قيام دولة جديدة لهم لا بد من أن أقف لأشرح وأشرح!

إن بني إسرائيل لم يحدثوا توبة يستحقون بها الرحمة العليا، فهم تائهون عن الحق في مجال الاعتقاد والعمل، وهم وراء أزمات الإيمان والأخلاق التي تزلزل الكيان البشري، وتهدده بالدمار الفاشل.

وعودتهم الجزئية إلى فلسطين ترجع أولًا إلى طبيعة الجبهة المناوئة لهم، أو إلى أحوال الأمة التي ورثت الدعوة من بعدهم. إن العرب تخلوا عن قيادة الدعوة العالمية للإسلام، بل تجردوا من جملة فضائله وعزائمه، بل تسلمت السلطة في بعض أقطارهم حكومات ترفض الإسلام دولة وتكرهه نظامًا!.

في هذا الليل المعتكر من الفتن المتلاحقة قد يأذن الله لليهود بعودة لا قرار لها، لأن اليهود لا يحملون بذور رسالة إنسانية صالحة، ولأن حملة الرسالة الإسلامية الباقية سوف يستفيقون من غفلتهم أو يتغلبون على هزائمهم، ويستأنفون مقاتلة اليهود حتى يجهزوا عليهم.

أليس من تعاجيب الليالي أن تتخلى الأمة العربية عن الإسلام.. عن الحق

الذي رفع الله به قدرها، وتزعم وسائل الإعلام بها أن قضية فلسطين ليست إسلامية! وذلك في الوقت الذي يتشبث العبريون فيه بتوراتهم ويعدون فيه فلسطين قسمة إلهية لهم؟

وهل يبحث عاقل عن سر هزائم العرب بعد هذا التفاوت الهائل في الروح المحرك لكلا الفريقين؟

فلنقرأ عن أرض الميعاد لا كما يتحدث كتاب الصهيونية، بل كما يتحدث العهد القديم نفسه، لنقرأ هذا النص الطويل:

«لذلك فقل لبيت إسرائيل- هكذا قال السيد الرب- ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل بل لأجل اسمي القدوس الذي بخستموه في الأمم حيث جئتم. فأقدس اسمي العظيم المبخس في الأمم، والذي بخستموه في وسطهم، فتعلم الأمم أني أنا الرب.

يقول السيد الرب: حين أتقدس فيكم قدام أعينهم، وآخذكم من بين الأمم، وأجمعكم في جميع الأراضي، وآتي بكم إلى أرضكم، وأرش عليكم ماء طاهرًا فتطهرون من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم.

وأعطيكم قلبا جديدا، وأجعل روحا جديدة في داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم، وأجعل روحي في داخلكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي، وتعملون بها وتسكنون الأرض التي أعطيت آباءكم إياها وتكونون لي شعبًا وأنا أكون لكم إلها، وأخلصكم من كل نجاساتكم.

وأدعو الحنطة وأكثرها ولا أضع عليكم جوعًا، وأكثر ثمر الشجر وغلة الحقل لكيلا تنالوا بعد عار الجوع بين الأمم فتذكرون طرقكم الرديئة، وأعمالكم غير الصالحة وتمقتون أنفسكم أمام وجوهكم من أجل آثامكم وعلى رجاساتكم.

لا من أجلكم أنا صانع- يقول السيد الرب- فليكن معلومًا لكم. فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا بيت إسرائيل- هكذا قال السيد الرب-.

في يوم تطهيري إياكم من كل آثامكم أسكنكم في المدن، فتبنى الخرب وتفلح الأرض الخربة عوضًا عن كونها خربة أمام عيني كل عابر، فيقولون هذه الأرض الخربة صارت كجنة عدن، والمدن الخربة والمقفرة والمنهدمة محصنة معمورة! فتعلم الأمم الذين تركوا حولكم أني أنا الرب، بنيت المنهدمة وغرست المقفرة.

أنا الرب تكلمت وسأفعل، هكذا قال السيد الرب.

بعد هذه أطلب من بيت إسرائيل لأفعل لهم، أكثرهم كغنم أناس، كغنم مقدس كغنم أورشليم في مواسمها، فتكون المدن الخربة ملآنة غنم أناس فيعلمون أني أنا الرب.

(٢٢ - ٣٨ - الاصحاح السادس والثلاثون- حزقيال)

وهذا النص أيضًا:

«هو ذا عينا السيد الرب على المملكة الخاطئة وأبيدها عن وجه الأرض، غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماما يقول الرب، لأنه هأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال وحبة لا تقع إلى الأرض، بالسيف يموت كل خاطئي شعبي القائلين: لا يقترب الشر ولا يأتي بيننا».

في ذلك اليوم أقيم مظلة داود الساقطة، وأحصن شقوقها، وأقيم ردمها، وأبنيها كأيام الدهر لكي يرثوا بقية أدوم وجميع الأمم الذين دعي اسمي عليهم، يقول الرب الصانع هذا..

ها أيام تأتي يقول الرب يدرك الحارث الحاصد، ودائس العنب باذر الزرع، وتقطر الجبال عصيرًا، تسيل جميع التلال وأرد سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة، ويسكنون ويغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون

جنات ويأكلون أثمارها وأغرسهم في أرضهم ولن يقلعوا بعد من أرضهم التي أعطيتهم.

قال الرب إلهك.

(٨ - ١٥ الإصحاح التاسع- عاموس)

ونختم بهذا النص:

«هكذا قال رب الجنود، فأنذا أخلص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس وآتي بهم فيسكنون في وسط أورشليم ويكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها بالحق والبر»

(٧ - ٨ الإصحاح التاسع- عاموس)

(٧ - ٨ الإصحاح الثاني- زكريا)

هذه نصوص لم يكتبها موسى ديان في هذا القرن، ولم يكتبها هرتزل في القرن الماضي، ولم تتمخض عنها مؤتمرات الصهيونية المنعقدة في سويسرا أو في فرنسا.. إنها- عند ذويها- آيات وحي يتلى، ومعالم دين يتبع.

وليس اليهود وحدهم الذين يؤمنون بهذه الوعود السماوية لبني اسرائيل، بل كثير من النصارى الذين يجعلون إصحاحات العهد القديم أجزاء من الكتاب المقدس، خصوصًا الكنائس الإنجيلية (البروتستانت) الذين يمثلون أكثر شعوب إنجلترا والولايات المتحدة!

ولكن عصابة من الكتاب العرب أخذت على عاتقها تغطية هذه الحقائق الدينية، والزعم بأن إسرائيل تمثل الصهيونية ولا تمثل اليهودية، وأن الدين لا علاقة له بهذه الحرب الناشبة لإبادة العرب وتهويد فلسطين!

أهو الجهل الأعمى؟ ربما، ومن البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه لا لمن يبصره!

أهو الإقصاء المتعمد لدور الإسلام في المعركة؟ ذلكم أغلب الظن، بل

هو جملة اليقين. وعمل أولئك الكتاب هو تسميم الفكر العربي حتى يدخل العرب معركتهم الحاسمة بلا روح، أي بلا إيمان ديني واضح دافع.

ونعود إلى كلمات العهد القديم التي دونا بعضها هنا..

إن موسى عليه السلام لا صلة له بهذه الوعود وتوراته لم تتضمن إشارة ولا عبارة عن عودة اليهود إلى فلسطين.

ثم إن احتلال أي بقعة من الأرض لا يعطي المحتل الحق الأبدي في امتلاكها..

وبنو إسرائيل دخلوا فلسطين محتلين، ومكثوا بها أقل مدة مكثها جنس آخر، عمر هذه الأرض، فوجودهم التاريخي بها لا يمنحهم أي حق للبقاء فيها أو العودة إليها..

نعم، نحن نؤمن أن أسرة يعقوب حملت راية الدعوة إلى الله، وتنقلت بها بين وادي النيل، وربوع فلسطين..

لكن أولاد يعقوب نكسوا هذه الراية فيما بعد، وتنكبت كثرتهم سبيل الحق، وجارت على الوحي ورسله، فعزلهم الله إلى الأبد عن هذا المنصب، وآثر به أمة أخرى كانت فيها الرسالة الخاتمة.

ثم صب غضبه على بني يعقوب الخونة وذراهم في الأمم كما سجل ذلك كاتبو إصحاحات العهد فيما نقلناه هنا.

لكن حاخامات اليهود مزجوا في حياة المجتمع اليهودي بين أمرين متناقضين:

أولهما الحرص على مخاصمة الرسالات السماوية الصادقة ومجافاة أهدافها الإنسانية الرفيعة، والآخر التشبث بالانتساب إلى أسرة الدعوة الإلهية، والزعم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، ويتبع ذلك بداهة أملهم في عودة مجدهم القديم ومملكتهم الأولى..

والحاخامات الذين كتبوا العهد من عند أنفسهم فضحت آمالهم على ما دونوا، فكانت هذه البشائر التي تسلى بها اليهود دهرًا، ثم حولوها في هذا العصر إلى أمر واقع..

ونحن لا نستغرب الانتصار المبدئي الذي أحرزه اليهود، ولكنا نقول: إنه لم يتم لخير فيهم بل لشر في غيرهم..

إن رجالهم ونساءهم وشيبهم وشبابهم جاءوا رافعين عقائدهم بنداء التوراة، ملتفين حول إيمان زائف على حين كان العرب المثقفون يستحون من الانتساب للقرآن، وينسحبون من مواطن التدين الحقيقي، فترادفت النكبات والنكسات، وكان ما ندى له جبين الحر!

وضاعف من هزائم العرب أن الحقد الصليبي الذي لم تخب جذوته يومًا كان يشد أزر المعتدي، ويعينه إذا ضعف، ويسدد رميته إذا طاشت..

ولو أن اليهود وحدهم كانوا في المعركة لكانت فلول العرب على ما بها من تمزق مادي ومعنوي قديرة على كسر إخوان القردة، إلا أن العرب ووجهوا بالعبء مضاعفًا، لقدر شاءه الله فكان ما كان.

وما دمنا في سياق البشارات الدينية، والوعود الإلهية، فإن لدينا في كتاب الله وسنة رسوله ما يكمل آمال اليهود في أرض الميعاد..

إنهم سيعودون فعلًا، ولكن ليفنوا لا ليحيوا، ولتنتهي رسالتهم في هذه الدنيا لا لتتجدد، لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين واليهود، فيقتل المسلمون اليهود، حتى إذا اختفى يهودي خلف حجر نادى الحجر يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبدالله هذا يهودي ورائي فاقتله»[1].

(١) أصله في البخاري برقم (٢٩٥٢).

أجل.. إن اليهود سيتجمعون بعد شتات، ولكن ليتحقق فيهم قول الله عز وجل ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (**الأعراف: ١٦٧**).

على أن ما بيته القدر لبني إسرائيل من بلاء ماحق لن يوقعه بهم العرب- من حيث هم عرب- ولكن يوقعه بهم العرب بعدما يعودون إلى الإسلام ظاهرًا وباطنًا، ويعرفون به حكومات وشعوبًا، ويكون النداء المعهود المتداول يا مسلم هذا يهودي تعال فاقتله.

إن حرب الإبادة قد وضعت خطتها لإفناء الجنس العربي، وإحلال بني إسرائيل مكانه، والحقيقة أن الإسلام ليس فقط الهداية العليا لعباد الله، ولكنه طوق النجاة العاصم من الغرق بالنسبة إلى هؤلاء العرب، والخيط الباقي ليظلوا على قيد الحياة إن أرادوا الحياة.

فهم- رضوا أم سخطوا- يواجهون حربا دينية تشنها مشاعر مخلوطة بشغاف القلوب، وليس كما يحكي لهم الكذبة يواجهون حربا استعمارية عادية..

وأريد- بوصفي إنسانًا مسلمًا- أن أذكر رأيي في الحروب الدينية. إنها صورة بشعة أن يقتل امرؤ آخر ليجعل من دمه طريقة إلى الجنة.. إنها صورة بشعة أن أقول لآخر: اعتقد ما أقول، وإلا افترستك وأنا أشعر بلذة الولوغ في دمك..

إن الإسلام عدو مبين لهذا النوع من الحروب، بل إن رسالة محمد كانت القاضية على كل قتال من هذا اللون القاسي..

فهل كذلك فكر واضعو العهد القديم؟ يستطيع أي قارئ أن يطالع في الأسفار[1] المقدسة أوامر الله باستئصال الأعداء، رجالًا ونساء وأطفالًا،

(١) نقلنا نصوص حرب الإبادة من إصحاحات العهد القديم في مكان آخر من كتابنا التعصب والتسامح.

واستئصال ما يملكون من حيوان ونبات، ونشر الخراب فوق كل شبر من أرض لأعداء إسرائيل..

وعندما كنت أقرأ أخبار القرى العربية التي اختفت من الوجود، والبيوت التي دمرت بعدما فر أصحابها مروعين، كنت أعلم أن بني اسرائيل إنما نفذوا أحكام التوراة- فيما يزعمون.

إن واضعي هذه الأسفار كانوا جزارين في ثياب متدينين، وكان ضحاياهم في هذا العصر الأشأم من العرب المسلمين.

وقد قام اليهود بمذبحة «دير ياسين»[1] استجابة دينية حرفية للتعاليم التي يتدارسونها ويتوارثونها.

وهي تعاليم- فيما نرى نحن المسلمين- مبتوتة الصلة بأنبياء الله، وإن زعمها هؤلاء وحيا من السماء.

واليهود فجرة مهرة، وقد عقدوا مع المستعمرين معاهدة للنفع المتبادل، وللتنفيس عن الحقد المشترك، ولست أدري بالضبط أي الفريقين كان أقدر على تسخير الآخر والإفادة منه، وإن كان المسلمون بيقين هم الفريق المغبون الفادح الخسار.

---

(١) قرية دير ياسين، قرية فلسطينية صغيرة قرب مدينة القدس. تعرضت في ٩ أبريل عام ١٩٤٨ أي قبل قيام إسرائيل بحوالي شهر لهجوم غادر من جانب المنظمات الإرهابية الصهيونية، تحول إلى مجزرة بشرية قاسية.. ذبح خلالها بالأسلحة الحديثة وبالسلاح الأبيض ٢٥٤ من الرجال والنساء والأطفال العرب.. وبلغ الهوس والجنون بالمهاجمين إلى حد التمثيل البشع بجثث الضحايا من الأطفال والنساء وتمزيقها إربًا في دروب القرية وشوارعها، أما بقية السكان الذين نجوا من المجزرة.. فقد ساقهم المهاجمون إلى شوارع القدس وملابسهم ملطخة بالدماء فيما يشبه موكبا بدائيًا للنصر، وعرف فيما بعد أن المجزرة كانت من تدبير عصابتين صهيونيتين هما:

أولًا: عصابة آرجون زفاري ليومي (المنظمة العسكرية الوطنية) وهي تنظيم إرهابي صهيوني كان يرأسه مناحيم بيجين الوزير الحالي بالوزارة الإسرائيلية.

ثانيًا: عصابة لوحمي حيروت يسرائيل (المحاربون لحرية إسرائيل) وهي العصابة التي تحولت بعد قيام إسرائيل إلى حزب حيروت أحد الأحزاب الحاكمة الآن في إسرائيل.

إن سخط الله على بني إسرائيل لم تنقض أسبابه، ولعلها لن تنقضي أبدًا ما داموا على طبائع الملعونين من أسلافهم، قسوة فؤاد، وشره نفس، وأكل سحت، وفساد معتقد وبغيًا في الأرض، واستطالة على الخالق!

وإذا كان الله قد ضرب بهم بعض الشعوب التي فرطت في جنبه فليس ذلك دليل رضا، ولا تقريبا بعد إبعاد، فإن الهيكل الأول هدمه الوثنيون، وقد تسلط على بني إسرائيل قديمًا من هم شر منهم..

ومسلمو اليوم يتعرضون لبلاء طويل بغير شك، ومن يدري؟ قد يكون ذلك باعثًا لهم على صلح مع الله وعودة إلى الإسلام الذي هجروه..

وعندئذ تكون هذه المحنة منحة وتكون الضارة النافعة..

ومهما ساءت الأمور فإن حلم إسرائيل بحكم العالم من أورشليم لن يتحقق، فإن الحجب بدأت تتمزق عن آثار اليهود الرهيبة في أرجاء الأرض.. خصوصًا وسط العالم المسيحي.. إن سلطة المسيحية على الضمير والسلوك في أوروبا وأمريكا اسمية للأسف.

وقد تمكن بنو إسرائيل بوسائلهم الجلية والخفية من نشر الفتن الجنسية والعنصرية والفلسفات المادية والإلحادية في جنبات القارتين الكبيرتين..

فهل هذه رسالة السماء التي حملها أنبياء بني إسرائيل قديما ويريد ذراريهم بها أن يكونوا شعب الله المختار؟

في محاضرة للدكتور أحمد خليفة وزير الأوقاف الأسبق سمعت منه أن اليهود يسيطرون على الولايات المتحدة سيطرة كاملة، وعلى أوروبا الغربية سيطرة شبه كاملة، وأن الميادين التي أحكموا قبضتهم عليها هي المصارف المالية، والجامعات الكبرى، ووسائل الإعلام!

ومن يضع قبضته على هذه الثلاث ضمن أن يصوغ الفكر كما شاء، وأن ينشر ما يرضيه ويحجب ما يرفضه، وأن يبسط يديه حيث تجدي النفقة، ويمسك متى أراد، وقال: ومن يتابع تاريخ الفكر البشري ويتعرف دور اليهود

فيه يتبين أنهم يصطنعون الفلسفات التي تحطم كل المقدسات، وتحطم احترام الإنسان لنفسه، وتحرمه من الإيمان وسكينة النفس.

وقال: واليهودية العالمية تعلم أن الشباب هو مستقبل الأمم وعتادها وذخرها.. إذن لا بد أن يفسد الشباب وتختل أمامه الموازين وتضطرب القيم.. ومن هنا سيطروا على أسواق الخمر والقمار والمخدرات كما أن باعهم طويل في عالم الخلاعة والتهتك والذي يزور السجون والإصلاحيات في الولايات المتحدة يجد نزلاءها من الملونين ومن المسيحيين، ولا يجد بها يهوديًا!

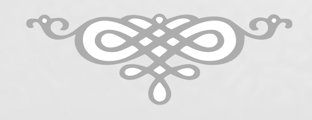
إنهم يقودون حملة التخريب والإفساد مع الاحتفاظ بكيانهم وتماسكهم..

قال المحاضر: إنك في أمريكا تقرأ ما يريد اليهود لك أن تقرأه، وتفتح الراديو لتسمع ما يريد اليهود أن يذاع، وتفتح التلفزيون لترى ما يرى اليهود أن ترى ويذهب الأبناء إلى الجامعة لتعبأ عقولهم بما يريد اليهود أن يتعلموه.

وفي كل أسبوع تقبض المرتبات من خزائن اليهود، هذا هو الاخطبوط الذي يسيطر على الغرب، هذه هي الطفيليات التي تمتص دماء العالم.

نقول: وهذه هي وظيفة شعب الله المختار، يبلغ بها رسالة السماء إلى الأرض، ويعلم البشر الصلاة والزكاة والتقوى والأدب، ويذكرهم بيوم الحساب وما وراءه من خلود طويل!

إن اليهودي ذكي كالشيطان، وله أن يزعم ما يشاء إلا أنه صاحب دين يهدي إلي البر والرشد، ويستحق من أجله ميراث الأقطار والأجناس.



(١٦)

فوضى الحلال والحرام في غياب التشريع الحق

العدد (٥٨) شوال (١٣٨٩هـ) ديسمبر (١٩٦٩م)

الأمة الإسلامية اليوم تمثل جماهير كثيفة من الشعوب المتخلفة..

والفروق بين الشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة كثيرة ومنوعة، ويمكن ردها إجمالًا إلى خلل حقيقي في المواهب الإنسانية الرفيعة، خلل عاق هذه المواهب عن أداء وظائفها باقتدار وإجادة!

وليس بصعب على من يرقب الأمم المتأخرة أن يلحظ كسلها العقلي في ميدان المعرفة، وكسلها العقلي في ميدان الإنتاج، وضعف الأخلاق التي تحكم أقوالها وأحوالها، وكثرة التقاليد التي تمثل طبائع الرياء والأثرة والملق والضياع الفردي والاجتماعي.

إن هناك انهيارًا حقيقيًا في البناء الإنساني للشعوب المتخلفة، والإصلاح الجاد يستهدف إعادة هذا البناء، ودعمه خلقيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا..

ونحن- المشتغلين بالدعوة الإسلامية- نعالج هذا العمل الشاق، ونزيح العقبات التاريخية والطارئة التي تعترض طريقنا وما أكثرها..

وهناك ناس يعملون لهذا الهدف، هدف بناء أمة جديدة، ولكنهم- بمؤثرات شتى- لا يرتبطون بالإسلام ولا يستشيرونه في حل مشكلة أو شفاء علة.

وظاهر أن هؤلاء الناس هم الذين نشأوا في ظل الاستعمار الأوروبي، وآذاهم أن تكون بلادهم محقورة الشأن، زرية الظاهر والباطن، فأرادوا أن تلتحق بالركب المتقدم عن طريق التشبه به والاقتباس منه.

ولما كان علم هؤلاء بالإسلام قليلًا، فإنهم لم يحاولوا الإفادة منه أو

الارتباط به، بل مضوا في طريق التقليد للشعوب المنتصرة في ظاهر أمرها وباطنه، وعذرهم- أمام أنفسهم على الأقل- أنهم يبغون النهوض بأمتهم.

ولست الآن بصدد نقد هؤلاء، بل سأتناول باللوم والإنكار مواقف بعض المتدينين القاصرين الذين يسيئون إلى الإسلام من حيث ينشدون خدمته.

إن تبذل النساء في هذا العصر بلغ حد السفه وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المنكورة..

وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بددًا..

لماذا؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة، متسم بالسلبية والعجز، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان..

وأغلبهم لو أمكنته الفرص لرد المرأة إلي البيت، وغلق عليها الأبواب، وحرمها مختلف الحقوق المادية والأدبية، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة أو الجناح المكسورة للأمم الصاعدة..

والمسلمون في العصر الماضي خالفوا الإسلام مخالفة مستغربة في الطريقة التي تحيا بها المرأة..

فهم حرموها حق العبادة.. بتعبير العصرالحديث، وحظروا عليها دخول المسجد، ويوجد في أنحاء مصر نحو سبعة عشر ألف مسجد لا ترحب بدخول المرأة، ولم يبن في أحدها باب مخصص للنساء، كما فعل ذلك رسول الله ﷺ حين بنى مسجده بالمدينة المنورة.

وقد بذلنا بعض الجهود لتغيير هذه الحال، ولم ننجح إلا في حدود تافهة! مع أن صفوف النساء في بيوت الله كانت أحد معالم المجتمع الإسلامي الأول.

وهم حرموها حق التعليم- بتعبير العصر الحديث- فلم تفتتح المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والعالية للمرأة إلا بعد محاولات ومجادلات

مضنية، ولم تدخل الأزهر إلا بعد تطوره الحديث. مع أن النبي ﷺ جعل طلب العلم فريضة على الرجال والنساء، ومع أنه أمر بإخراج النساء وهن حوائض ليشهدن الخير ويعرفن دعوة الإسلام.

وهم رفضوا أن يكون لها دور في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وصيانة الأمة بنشر المعروف، وسحق المنكر مع أن الله قال في كتابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ **(التوبة: ٧١)**.

إن الفكرة التي سيطرت على أدمغة نفر من المتدينين هي عزل المرأة عن الدين والدنيا معا، واجتياح كيانها الشخصي والمعنوي..

ولا تزال هذه الفكرة أملا يحركهم ويحملهم على ترويج أحاديث موضوعة أو واهية، وتكذيب أحاديث صحيحة أو حسنة، وعلى تفسير القرآن الكريم بآراء لم يعرفها أئمته، ولا قام عليها مجتمع الأصحاب والتابعين!

بل أستطيع القول: إن الجاهلية التي دفعت إليها المرأة الإسلامية بهذا الفكر القاصر جعلتها دون المرأة في الجاهلية الأولى..

فإن المرأة العربية ظهرت في بيعة العقبة الكبرى، كما ظهرت مبايعة بعد فتح مكة، وقارب عدد النساء المبايعات ستمائة امرأة!

وجهلة المتدينين تستكثر على المرأة المسلمة هذه المكانة الكبيرة، وقد نتج عن هذا التفكير في قضية المرأة، وعن التفكير المماثل له في قضايا أخرى كثيرة أن ظلم الإسلام ظلمًا شديدًا وأن أساء به الظن من لم يحط به خبرًا، ومن لم يحسن له فقهًا.

وعندي أن إفلات النهضة النسائية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز والغباء.

وقد لاحظت أن بعض المصلحين الذين اشتغلوا بتحرير المرأة قد جرأهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة.

فهم لما قاوموا بنجاح أخطاء بعض المتدينين اندفعوا في طريقهم مغالين فخطأوا الدين نفسه، حيث لا مجال لتخطئة ولا مكان لتصويب..

وإنه لمن الحزن أن يسيء الدعاة عرض دينهم في ميدان ما فترفع الثقة بهم في كل ميدان، ثم ينفتح الباب على مصراعيه ليتناول من شاء أحكام الإسلام بالمحو والإثبات، يقبل منها ما يعجبه، ويرد منها ما ينبو عنه مزاجه اللطيف.

أكتب ذلك وبين يدي كتاب مطالعة للمدارس الثانوية ألف على عهد وزارة المعارف، وراجعه الدكتور طه حسين بك وآخرون.

في الفصل الثالث من هذا الكتاب حديث عن قاسم أمين، وردت فيه هذه العبارات وصفًا له ولمذهبه في الحياة العامة يوم كان يلي منصب القضاء «... ولم يتقيد في قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لا محيد عنها، بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه، وهذا مما جعله ميالًا للرأفة في قضائه نافرًا أشد النفور من حكم الإعدام! فقد كان يرى «أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح المذنب وأن معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر» وأن «التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله» وأن «الخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل لاستغرابه والحال الطبيعية اللازمة لغريزة الإنسان».

«فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد إلى إدراك هذه الأفكار، وكانت قوانينها التي وكل إلي تطبيقها- هكذا يتحدث قاسم أمين القاضي عن نفسه- ما تزال تجري على سنة القصاص والانتقام، وما تزال دموية متوحشة فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية، وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضي، أو ثابت الجماعة إلى رشدها ورأت تعديل أساس عقوبتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص، أو أخذت بمذهب العفو والتسامح».

والقارئ الذي يطالع هذه الجمل العمياء يحس أن صاحبها يصطدم بالوحي الإلهي اصطدامًا مباشرًا، وينكر شريعة القصاص، ويصفها بالوحشية! ويكذب أن في القصاص حياة، ويوغل مع الخيال فيظن العفو العام في كل حال وعن كل شخص قاعدة الإصلاح الاجتماعي الصحيح!

والكلام كله لغو قبيح، بل مجون يعزل صاحبه لا عن منصب القضاء وحسب، بل عن الفتيا في مشكلات الناس، ودعك من أن قائل هذا الكلام مجرد تجردًا تامًا من كل احترام لنصوص الكتاب والسنة..

ومع ذلك فإن طلاب المدارس الثانوية أيام وزارة المعارف- يقرأون عقب هذا الكلام الغث تلك العبارات: كانت روح قاسم روح أديب، وكانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في كن، بل تظل متمحضة للبحث والتنقيب حتى تنسى نفسها، وتستبدل بكنها ما في الكون من نشاط وجمال.. وفي ظننا أن الدعوة إلى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم أمين الاجتماعي، وإنما كانت حلقة منه هي أعسر حلقاته وأعقدها.

ونحن نقول إن قاسما وغيره ممن نهج في الحياة منهجه كانوا أشخاصًا ينقصهم قدر كبير من العلم الديني والمدني، وأنهم استغلوا القصور الشائن الذي غلب على المتحدثين باسم الإسلام فهجموا على الأمور هجومًا شاملًا كان شره أكثر من خيره..

وربما استطاعوا أن يكتسحوا رجال الدين- إن صحت التسمية- في مجال النشاط النسائي لما علمت من حقيقة الموضوع. ولكن التطويح بشرائع القصاص ومن ورائها بقية الحدود غباء ضارب الجذور، وانسلاخ عن الإسلام لا يجدي فيه دفاع، ولا يساق فيه عذر..

إذا قال الله ﴿ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (**البقرة: ١٧٩**) فجاء غر يقول: في

القصاص هلاك، فليس هذا جهلًا فقط، ولكنه ارتداد عن الإسلام وكفر بواح عندنا من الله فيه برهان.

وقد بلغني أن موظفة في الإذاعة في أحد البرامج وصفت قطع السارق بأنه وحشية، ولم يفاجئني هذا الارتداد الصريح، فإن التمهيد الثقافي له بدأ من عهود الاحتلال الأجنبي لشتى البقاع الإسلامية..

وما نقلناه هنا من أن آراء قاسم التي وضعت بين يدي طلاب الصفوف الثانوية يشهد لذلك.

ونريد أن يعلم القاصي والداني أن كل طعن في نصوص الإسلام القاطعة مردود على صاحبه، وأنه ضرب من الارتداد يخدم الاستعمار الحاقد على بلادنا وتاريخنا..

ولا فرق عندنا بين ارتداد جزئي وارتداد كلي، فإن أبا بكر -رضي الله عنه- حارب جاحدي الزكاة مع من عاد إلى الوثنية بعد وفاة رسول الله ﷺ.

مع أن مانعي الزكاة زعموا أنهم مؤمنون بالله وإقام الصلاة.

بيد أن هذا الزعم لم يخدع الخليفة الأول ولا جمهرة الصحابة، فقاتلوا الفريقين جميعًا وعدوا هؤلاء وأولئك كفارًا لا شك في كفرهم..

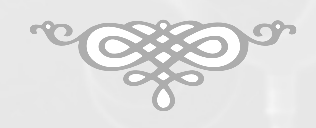
والحقيقة التي لمسناها أن الناقمين على شرائع الحدود والقصاص قوم لا يقين لديهم ولا صلاة لهم، وأن علاقتهم بالقرآن مقطوعة، وأنهم ما يستبقون نسبتهم إلى الإسلام إلا لظروف عارضة، أو ليكيدوا له وهم داخل دائرته..

وكلمة أخيرة للمتصلين بالعلوم الدينية: إنه لا يشرفهم أن يتبعوا حديثًا واهيًا ويدعوا الأحاديث الصحيحة، كما لا يشرفهم أن يعرفوا رأيًا فقهيًا ويجهلوا رأيًا آخر! إنهم يضرون الإسلام ضررًا بالغًا حين تكون صورته في أذهانهم ناقصة أو شائهة، ثم حين يزعمون مع هذا النقصان والتشويه أنهم علماء الدين وحراسه..

إن القرن الأول- من بين القرون الأربعة عشر التي تمثل تاريخنا- هو أقرب الصور إلى حقيقة ديننا.. فكيف يحكم الإسلامَ «متنٌ» من متون الفقه ألف أيام الاضمحلال العقلي لأمتنا؟ أو كيف يحكم الإسلام تصرف تركي في مجال السياسة أو المجتمع؟

لقد كان الاستبحار العلمي سمة ساطعة لأمتنا في أعصارها الأولى، فلا يجوز أن يقطعنا عن هذا الماضي الزاهي جهل عارض، أو فكر غامض.

ويوم يعود المسلمون إلى دينهم الحق، فإن التخلف المزري اللاصق بهم اليوم ستنجلي غمته وتنكشف ظلمته وسيأخذون طريقهم مرة أخرى إلى الصدارة والتقدم..





(١٧)

ضوء على بعض المشكلات

العدد (٦١) محرم (١٣٩٠هـ) مارس (١٩٧٠م)

قرأت مقالا عن «الانفجار السكاني وإمكانات التحكم فيه» نشرته صحيفة الأهرام يوم الجمعة ٢/١/١٩٧٠، ولا أكون مغاليا إذا وصفت هذا المقال بأنه صائب الفكرة، عميق النظرة، مملوء بالحقائق الجديرة بالاحترام.

ولقد لَفَتُّ عددا من الدعاة المسلمين، وعلماء الدين إلى هذا المقال، لأنه يصور في نظري عودة إلى أفكار سبق أن كتبتها ووقفت عندها، ورأى جمهور المسلمين أنها التعبير الحق عن أحكام دينهم ونهج حياتهم، وإن كان البعض قد مارى فيها مراء يعلم الله بواعثه!

والكاتب بعد مقدمات جيدة حول مشكلة النسل يقول: «إن تفسير الزيادة السكانية بغير التخلف الاقتصادي، أو رد هذه الزيادة إلى عوامل أخرى مثل غلبة الغريزة الجنسية، أو وجود الأديان المحبذة للتناسل، أو عدم المبالاة بالرقي، يدخل تحت باب التضليل العلمي! وقد استخلص هذه النتيجة الصادقة من جملة ملاحظات علمية واجتماعية جديرة بالتأييد الحار.

ويعجبني أنه استهجن صيحات التشاؤم المفتعلة التي تخصص في إرسالها بين الحين والحين نفر من مقلدي الأساليب الممجوجة في الإحصاء الجزئي والحكم العام، وهي أساليب تخدم سياسة معينة ولا تخدم حقيقة مجردة.

يقول الكاتب: «في أواخر الستينيات تدفق سيل جارف من البيانات والبلاغات التي يتبرع بها نفر من نجوم الرأي الأمريكيين يزعمون فيها أن العالم قد بلغ في مسيرته نحو الكارثة نقطة «اللاعودة» بسبب الزيادة التي نشأت من أن أقطار العالم الثالث- الذي يضم عشرات من الدول النامية أو بتعبير آخر عشرات من الدول المتخلفة- لم تكبح شهواتها الجنسية، ولم

تستجب لدعوة المندوب الأمريكي إلى «تخطيط الأسرة» أو تحديد النسل الذي رأى سيادته أنه الطريق الوحيد لحسم المشكلة السكانية».

بل لم يستح نفر من قادة الرأي في أرقى الدول أن ينادوا جهرة بضرورة استخدام القسر في الحد من هذا التفوق العددي للمراتب السفلى من البشر! بالقدر الذي يمنع دفع المراتب الأعلى إلى الخلف.

هذا، ولما كانت نسبة الأولاد تكاد تكون ثابتة من عشرات السنين، فإن الزيادة المحذورة نشأت للأسف من قلة الوفيات بسبب ارتفاع المستوى الصحي في أرجاء العالم!

والحل أنه عند أرباب الثقافة الغربية الرفيعة عدم مقاومة العلل بين شعوب لا تجد الأكل، وترك الأمراض تفتك بهذه الأجيال الوافدة، فإن إقحام طوفان من الأطفال الجياع على اقتصاد مضطرب أمر يهدد بكارثة!

لكن كيف يوصف هذا التصرف؟ إنه تصرف إنساني عادي! لأنه يساعد الطبيعة على انتخاب الأصلح وإبقاء الأقوى! بل إن هذا التصرف يتفق مع أرقى ثمرات الفكر الانساني، ألم يقل أفلاطون في جمهوريته الفاضلة: إنه يجب قتل كل طفل يزيد عن العدد الضروري؟ ونحن قد وصلنا بالفعل إلى ما يزيد عن هذا العدد الضروري!

ويستتبع الفكر الغربي أحكامه على الأمور فيقول الدكتور هوايت ستيفنز- أحد خبراء علم الاجتماع - إن يوم القيامة سيوافق ٢٠٢٦/١١/١٣، لأن المجاعة العالمية في هذا اليوم ستقضي على الجميع، هكذا يقول الدكتور الألمعي بعد حساب وفق قواعد علم الاجتماع، لا قواعد علم التنجيم!

وبناء على ذلك الهوس الإحصائي يدعو الأمريكيون المتشائمون إلى التعقيم الإجباري، وإلى فرض نظام صارم لتحديد النسل، وإلى دعوة الأمم المتحدة إلى إجراء ما، كي ينخفض عدد الأولاد بين العرب والزنوج والهنود وأشباههم، وهم سواد العالم الثالث.

ويلاحظ الأستاذ كمال السيد- كاتب المقال- أمورا ذات بال، منها أن الولايات المتحدة مثلا تنفق سبعين ألف مليون دولار على معدات القتال، وأن شركاتها الكبرى تعامل شعوب العالم الثالث بنهم مستغرب لا مكان معه للرحمة بهؤلاء الجياع المساكين.

يقول: «وهناك صيغة شائعة في أمريكا الجنوبية فحواها أن خمسة من سكانها يموتون جوعا كل دقيقة، في حين أن الشركات المستغلة العاملة بها تكسب خمسة آلاف دولار كل دقيقة، اي ألف دولار من كل ميت»!

ومع شعورنا باتجاه الكاتب إلا أننا نعرف أن المساعدات الاستعمارية مغشوشة النية، سيئة الهدف، فقد توزع على الأطفال مقادير من الألبان والجبن، ولكنها تفرض على بيئتهم قيود الفقر الأبدي إلى هذا النوع من المساعدات.

هذه البرامج توزع المواد الاستهلاكية وحسب، على الأمم المتخلفة، وتمتنع امتناعا غريبا عن تصنيع البيئة، وإعانتها على أن تخدم نفسها بنفسها، وتستغل مواردها الوطنية بقدراتها الخاصة!

كأن شعوب هذا العالم الثالث- كما تسمى- ينبغي أن تظل مشلولة المواهب مكشوفة العجز، لا تستطيع ارتفاق ما لديها من خيرات.

وعليها- بعد- أن تسمع الحكم بأن القيامة بعد كذا من السنين!

ويتلقى هذا الكلام بعض قصار العقل فيطيرون به هنا وهناك ينذروننا بالويل والثبور وعظائم الأمور، فإذا حاولنا التفاهم معهم قالوا: إنكم رجعيون تائهون عن مقررات علم الاجتماع، وأخطار يوم القيامة الذي سيجيء حتما مع زيادة السكان!

ولنتناول الآن صميم المشكلة: هل حق أن بلاد العالم الثالث لا تكفي حاجات أهلها، وبالتالي لا تتسع لمزيد من الأفواه التي تطلب القوت، والأجساد التي تطلب الكسوة؟

تلك هي الأكذوبة الكبرى التي يضخم الاستعمار صداها ويزعج الدنيا بطنينها!

إن أقطار العالم الثالث مشحونة بخيرات تكفي أضعاف سكانه، بيد أن هذه الخيرات تتطلب العقول البصيرة والأيدي القديرة.

ولو رزقت هذه الأقطار المتخلفة نهضة إنسانية نزيهة، تستهدف إيقاظ الملكات الغافية، والحواس المخدرة، وتطارد الخمول والوهن، وتجند القدرات والخبرات، وتمنع التظالم والترف، وتضرب سياجا منيعا حول مصالح الشعوب، يرد عنها غوائل الاستعمار بجميع أنواعه، لكانت هذه الشعوب تحيا في رغد من العيش تحسدها أقطار الغرب عليه!

ليست المشكلة اقتصادية كما يزعم الخبثاء من المستعمرين، ومقلدوهم من الصياحين الذين يهرفون بما لا يعرفون.

الفقر فقر أخلاق ومواهب، لا فقر أرزاق وإمكانات!

لماذا يكون المولود القادم أكالا لا شغالا، مستهلكا لا منتجا، عبئا على الحياة لا عونا على الحياة؟

لماذا تهون الإنسانية في هذه الأجيال الوافدة فيكون وجودها مبعث قلق لا مثار استبشار؟

إن الجهود المادية والمعنوية التي يبذلها المتشائمون لقتل هذه الأنفس أو للحيلولة دون وجودها لو بذلت في تصحيح الأخطاء الاجتماعية، وتقويم الانحرافات العقلية لكانت أقرب إلى الرشد وأدنى إلى الغاية!

ولكن الاستعمال الأناني الشره يريد التهام كل شيء لنفسه وحده، بل الأنكى من ذلك أنه يعترض طريق كل نهضة تصحح الأوضاع، لماذا؟ كي تبقى الأمور كما هي، ويبقى منطقه السقيم في علاج الأمور!

على أن تخلف العالم الثالث ليس علة أزلية ولا أبدية، فقد كان الأوروبيون

والأمريكيون أسوأ حالا منذ قرون تعد على الأصابع، وكانت الخرافة تفتك بعقولهم فتك الأدران والعلل بأبدانهم، فإذا صعدوا في سلم الترقي، وهبط غيرهم بعد رفعه أو بدأ لأول مرة يخطو على درب المدنية، فلا معنى للاختيال عليه والتشفي منه! ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ **(النساء: ٩٤)**.

والأمر لا يستدعي أكثر من تغيير الظروف المؤثرة في أحوال المجتمعات، فهناك مكان ينبت العز- كما يقول المتنبي- وهناك مكان ينبت الذل، وهناك آخر يوقظ العقل أو ينيمه!

والمعتوهون الذين يصرخون جزعين: قفوا نسل الأرنب حتى لا تقوم الساعة أو حتى ترقى الأمة لا يعلمون أن العالم الثالث لن يرقى ولو تسعة أعشار عدده ما بقيت ظروفه النفسية والفكرية جامدة على أوضاعها الحالية.

ونعود مع كاتب الأهرام لنبصر الواقع حيث يقول: «إن موارد العالم، خصوصا موارد البلاد المتخلفة ما زالت تفوق كثيرا زيادة أعداد السكان، فالفائض الاقتصادي المحتمل يمكن تحويله إلى ضروب من النشاط المنتج بدلا من أن يذهب إلى جيوب المرابين والوسطاء وملاك الأرض، أو يتبدد في وجوه السرف المختلفة، وهذا الفائض هو ما يعرفه الاقتصاديون بأنه الفرق بين الإنتاج في ظروفه الطبيعية، وبين ما يعد استهلاكه ضروريا للجماعة المنتجة، ويقدر هذا الفرق بنحو ٢٠٪ من الإنتاج القومي، وهو يبلغ عند استثماره زيادة سنوية في الدخل تبلغ ٨٪ وهذه الزيادة تكفي بل تفيض عن متطلبات الزيادة السكانية...»!

الفقر الواقع أو المتوقع لا يعود إذن إلى علل طبيعية، بل إلى سوء تصرف واضطراب إدارة!

أو كما يقول الاقتصادي الامريكي المشهور بول باران: «إننا يجب أن ندق

ناقوس الخطر لا لأن القوانين الأبدية في الطبيعة قد جعلت من المستحيل إطعام سكان الأرض، بل لأن النظام الاقتصادي الاستعماري يحكم على جموع كثيفة من الناس، لم يسمع بضخامتها من قبل، أن تعيش في كنف الفاقة والتدهور والموت قبل الأوان!

ثم أنهى الكاتب كلمته مؤكدا أنه لا حل لمشكلات التخلف، ومن بينها ضغط السكان على الموارد إلا بتنمية بلدان العالم الثالث لثرواتها، ومضاعفة اعتمادها على نفسها.. ثم على القدر الميسور من المعونات الأجنبية المنزهة..».

لقد قررت هذه الأحكام تقريبا في كتابي «من هنا نعلم» المطبوع من ربع قرن، ولذلك فقد انشرح صدري عندما قرأت هذه الأيام ما يزيد الحق وضوحا وما يبدد ضبابا كثيرا نشره في أفق الحياة العامة أقوام قصار الباع طوال الألسنة.

وإني- إذ أؤكد المعاني الآنفة- أوجه كلمة إلى نفر من المتحدثين باسم الإسلام أساءوا إلى حقائقه مرارا وهزموه في مواطن كثيرة.

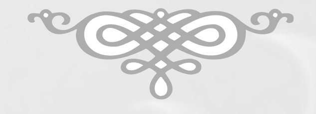
إن الإسلام ليس هو بالدين المحلي لأهل قطر من الأقطار..

إنه دين القارات الخمس! وداره الرحبة الخصبة تمزج بين أجناس أمته في أخوة جامعة لا تعرف الحدود الضيقة المفتعلة التي صنعها الاستعماري! فكيف يعالجون مشكلة السكان وهم لا يدركون هذا الأساس المبين؟ ثم إن هذا الدين يتعرض لحرب إبادة في هذه الأيام من تحالف الصهيونية والاستعمار، فكيف تصدر الأوامر من رؤساء الأديان الأخرى بتكثير الأتباع، ومباركة النسل، ويفتون هم بالتعقيم والتقليل؟ إنني لا أدري علة هذا الزيغ؟ أهي قلة العلم أو ليونة الضمير؟

وتحذير آخر إلى هؤلاء: إن أحدهم يقع على الكلمة تخدم غرضه منسوبة

إلى عمرو[1] بن العاص أو غيره من الرجال فيطير بها غير آبه بقيمة سندها ولا مكترث بأنها ملتقطة من كتب تجمع الجد والهزل والخطأ والصواب.. ولو فرضنا جدلا صحة نسبتها إلى عمرو، فما كلام عمرو بالنسبة إلى كلام الله ورسوله؟ وإلى طبائع الأشياء وفق منطق الفطرة وحالة الدين وأوضاع المسلمين؟

أرجو بعد كلمة الأهرام التي لخصتها في مقالي أن تنتهي هذه المأساة.



(١) ينسبون إلى عمرو أنه أوصى بتقليل الأولاد ويبنون على ذلك أشياء كثيرة.



(١٨)

محنة الضمير الديني هناك

العدد (٦٢) صفر (١٣٩٠هـ) أبريل (١٩٧٠م)

هذه سياحة سريعة داخل أقطار الفكر الديني الغربي، ستفاجئنا فيها أحكام ينقصها السداد، ومؤامرات يحبكها الغدر، وضغائن لا تزال عميقة على طول العهد وامتداد الزمان!

ومن حقنا نحن المسلمين- وقد لفحتنا حرب بقاء أو فناء- أن ندرس الجبهة التي مسنا عدوانها، وأن نزن ببصر جديد طبيعة العواطف الدينية التي تكمن أو تبرز خلف أحداث لا تبدو لها نهاية قريبة!

ولنبدأ بمقال نشرته جريدة كاثوليكية تطوعت بإسداء نصائحها الغالية لإسرائيل، وليست هذه النصائح الغالية أن يعترف اليهود بحق العرب، وأن يعودوا من حيث جاءوا تاركين البلاد لأصحابها.. لا!

إن الضمير الديني عند الصحيفة المتدينة جعلها تسدي نصحا من لون آخر، لقد قالت لليهود: إننا احتللنا فلسطين قبلكم، وبقينا فيها سنين عددا، ثم استطاع المسلمون إخراجنا وتهديم المملكة التي أقمناها ببيت المقدس.. وذلك لأغلاط ارتكبناها، وها نحن أولاء نشرح لكم تلك الأغلاط القديمة حتى لا تقعوا فيها مثلنا!

استفيدوا من التجربة الفاشلة كي تبقى لكم فلسطين أبدا، ويشرد سكانها الأصلاء فلا يخامرهم أمل في عودة!

وشرعت الصحيفة التقية تشرح لماذا انهزم الصليبيون الأقدمون، وتوصي حكام إسرائيل بأمور ذات بال، وتحرضهم في نذالة نادرة أن يوسعوا الرقعة التي احتلوها، وأن يستقدموا أفواجا أكثر من يهود العالم، وأن يحسنوا

خطتهم في ضرب العرب، ومحو قراهم، وإبادة خضرائهم، وبذلك يستقر ملك إسرائيل، وينحدر الإسلام والمسلمون..

وهاك أيها القارئ عبارات المقال الذي نشرته مجلة «تابلت» الإنجليزية الكاثوليكية للكاتب «ف. س. أندرسون».

يقول الكاتب المذكور: «إن نظرة واحدة إلى خارطة حدود إسرائيل الحالية تعيد إلى الذاكرة للفور أوجه الشبه القوية بين تلك الحدود وحدود مملكة الصليبيين التي قامت عقب احتلال القدس سنة ١٠٩٩م

ونظرا إلى الأعمال العدائية بين إسرائيل وجيرانها نرى من المفيد أن نقارن بين الحالة العسكرية الراهنة وبين مثيلتها أيام الصليبيين القدامى علنا نرى ما إذا كان سيقيض لإسرائيل حظ أوفر مما كان للصليبيين أم سيلقون مصيرهم؟ إن مملكة الصليبيين لم يكتب لها البقاء إلا أمدا قصيرا، فقد مكثت ثمانية وثمانين عاما فقط، ثم استرد المسلمون القدس!

ومع أن المسيحيين نجحوا في الاحتفاظ بقطاع صغير شرقي البحر المتوسط مدة مائة عام أخرى إلا أنهم فشلوا في الدفاع عن عكا أخيرا وأخذوا يغادرون هذه البلاد تحت جنح الظلام عائدين إلى أوروبا.

إن سقوط تلك المملكة كان يعود إلى بضع نقائص ظاهرة فإذا أريد لإسرائيل أن تعيش مدة أطول، فما عليها إلا أن تحتاط ضد هذه النقائص.

لقد دخل الصليبيون فلسطين في ظروف ملائمة جدا لهم، تميزت بوقوع الفرقة بين المسلمين، وعجزهم عن إقامة جبهة مقاومة موحدة! وهكذا استطاع المهاجمون أن يهزموا المسلمين بسهولة، دويلة بعد دويلة، وأن يمكنوا لأنفسهم في الأقطار التي فتحوها.

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر زعيم عسكري مسلم استطاع أن يوحد المسلمين أمام خصومهم بسرعة، ثم حشد قواهم في معركة حطين،

وأصاب الصليبيين بهزيمة ساحقة، تقرر على أثرها مصير القدس، بل انحسر بعدها المد الصليبي جملة، ودخل صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس، التي عجز أعداؤه عن استبقائها أو استعادتها فتركوها يائسين.

يقول الكاتب الكاثوليكي «كان الصليبيون يستطيعون البقاء مدة أطول في تلك البلاد لو لم يعانوا نقصا شديدا متواصلا في الرجال، ولو أنهم وسعوا حدود مملكتهم وفق ما تمليه الضرورات العسكرية الماسة، لماذا لم يحتلوا دمشق؟ لقد كان احتلال دمشق مفتاح مشكلتهم وضمان بقائهم!

وسيظل عدم تقديرهم لهذه الحقيقة لغزا لنا! نعم إنهم بذلوا جهودا واهية لاحتلال تلك المدينة، بيد أن محاولاتهم كانت من الضعف بحيث كتب عليها الفشل.. وبدلا من أن يتابعوا جهودهم لاحتلال دمشق اتجهوا جنوبا واحتلوا العقبة وشرعوا يوجهون حملاتهم إلى مصر، مع أن الإشراف على النيل هدف عسير التحقيق!

وعندما أصبحت للمسلمين اليد العليا في ذلك العهد استطاعوا إجلاء الصليبيين عن العقبة وعن سائر حصونهم في الجنوب، إلا أن الكارثة الكبرى جاءت من الشرق، فإن معركة حطين وقعت بالقرب من بحيرة طبرية عند الزاوية الشمالية الشرقية لمملكة الصليبيين.

ولما كانت دمشق والأرض الممتدة بين الأردن والصحراء السورية ملكا للمسلمين فقد استطاعوا أن يتحركوا بحرية على ثلاث جبهات حول المملكة الصليبية التي أضحت شبه محصورة..

وذلك ما أعجزها عن المقاومة!»

يقول الكاتب الحزين لما أصاب أسلافه: «ولو أن الصليبيين اندفعوا قدما وقطعوا الممر الذي يؤدي إلى الشرق من دمشق لاستطاعوا منع مرور الجيوش والقوات بين سورية ومصر، ولكانت حدودهم الشرقية المستندة إلى الصحراء أكثر أمانا، ولأمكنهم الانتفاع من أساطيلهم البحرية» ثم يستأنف

الكاتب الحاقد كلامه فيقول: «لقد أقيمت إسرائيل في وقت كان العرب في الدول المجاورة عاجزين عن القيام بعمل موحد، ثم بقدر كبير من الجهد والشجاعة استطاع اليهود أن يبلغوا حدودهم الحالية، لكن هذه الحدود تطابق حدود المملكة القديمة للصليبيين وقد عرفنا مآلها فما العمل؟»

يقول الكاتب محرضا اليهود على مزيد من العدوان: «مرة أخرى، ما لم تتحرك إسرائيل في الاندفاع نحو دمشق فستبقى للعرب تلك الحرية الخطرة في تنقيل قواهم حول ثلاث جهات من إسرائيل، وفي ذلك ما فيه».

ويستطرد: «قد يكون من العسير سياسيا أن تتحرك إسرائيل لغزو سورية واحتلال دمشق، لكن الاتجاهات السياسية السورية قد تساعد على تسويغ ذلك، وإن مثل هذه النزهة الحربية (!) ستنطوي على فائدة دائمة لإسرائيل أعظم من الفائدة التي تجنيها من التغلغل في صحراء سيناء».

ويختم الكاتب نصائحه لأصدقائه اليهود فيقول: «إن اسرائيل لن تنقصها القوى البشرية، فلديها جيش كبير، بالإضافة إلى هجرة منظمة من جميع أنحاء العالم تمدها بكل ما تفتقر إليه من طاقات، ويجب أن تظل قادرة على وضع جيش قوي في الميدان يكون دائما على أهبة الاستعداد».

لو أن كاتب هذا الكلام يهودي قح ما استغرب المرء حرفا منه! إن وجه العجب في هذا التوجيه المشحون بالود لإسرائيل، والبغض للعرب والمسلمين، أن الكاتب رجل مسيحي ينشر رأيه في مجلة كاثوليكية.

وهو يفكر ويقارن ويقترح، كأن القضاء على العروبة والإسلام جزء من عقله الباطن والظاهر، ثم هو لا يشعر بذرة من حياء في إعلان سخائمه! إن مشاعر البغضاء المضطرمة في جوفه تغريه بالاسترسال والمجازفة دون أي تهيب.

ويحزننا أن هذا الكلام ليس إبداء لوجهة نظر خاصة، فإن الكاثوليك في

أرجاء الأرض انتهزوا فترة الضعف التي يمر بها الإسلام كيما يحولوها إلى هزيمة طاحنة وفناء أخير.

والروح الذي أملى بكتابة هذا المقال هو نفس الروح الذي كمن في مقررات المجمع المسكوني الذي عقده بابا رومة وصالح فيه اليهود، وأمر الكنائس بعده ألا تلعنهم في صلواتها.

وهو الروح الذي جعل البابا بولس يزور القدس، ويدخل الأرض المحتلة ويتعامل مع سلطات إسرائيل، وهو تصرف لم يفعله أحد البابوات من مئات السنين! وللقارئ المسلم أن يسأل: أذلك موقف الكاثوليك وحدهم، أم أن أصابع الاستعمار الغربي قد أفسدت التفكير الديني لدى كثير من المفكرين الغربيين؟ قرأت كتابا وجيزا للمؤلف المنصف الدكتور وليم سليمان وردت به هذه الحقائق، نذكرها مع تعليق سريع لا بد من إيراده.. قال: «في ديسمبر سنة ١٩٦١ عقد مجلس الكنائس العالمي مؤتمره الثالث في نيودلهي، وأصدر قرارا حدد فيه موقفه من اليهود جاء فيه: لا بد من تهيئة التعليم الديني المسيحي وتقريبه للأذهان على وجه يبرئ اليهود من تبعات الأحداث التاريخية التي أدت إلى صلب المسيح إذ إن هذه التبعات تقع على عاتق الإنسانية كلها(!) وقد صرح الراعي البروتستانتي الأمريكي ل. ج. بنيت الأستاذ بمعهد اللاهوت بنيويورك قائلا: إن الكنائس مسؤولة بوجه خاص عن العداء للسامية، فقد ظلت تعاليم المسيحية موجهة عدة قرون ضد اليهود، وهو عداء يعد من مخلفات الأحقاد الدينية القديمة».

نقول نحن: وما ذنب المسلمين في هذا؟ وهل عرب فلسطين يدفعون ثمن هذا الخطأ الكنسي من وطنهم وكرامتهم وحاضرهم ومستقبلهم؟

ذلك ما يريده مجلس الكنائس العالمي الموقر! فإن هذا المجلس عقد مؤتمرا في بيروت وزار أعضاؤه مخيمات اللاجئين ثم قرر أنه ليس هناك حل دائم لمشكلة الفلسطينيين إلى أن يبت في القضية الخاصة بالخلاف بين العرب وإسرائيل.

وقال المؤتمر الطيب القلب: إن ذلك سيشمل خطة عامة لتعويض اللاجئين سواء عادوا إلى وطنهم أم لم يعودوا وإن هناك صدقات سوف يأخذها أصحاب الأرض والمطرودون!

وفي سنة ١٩٦٤ عقد مجلس الكنائس العالمي فصله الدراسي الثالث عشر بجنيف وافتتح الجلسة عميد الكلية اللاهوتية بجامعتها فقال لا فض فوه «حين تثور مشكلة اليهود فإن الكنيسة لا تستطيع أن تتجاهل ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلامهم، وضياعهم طول تاريخهم، ولذلك فإن أول ما يصدر عنها نحوهم هو طلب المغفرة!

يجب على الكنيسة أن تطلب المغفرة من اليهود! بهذه العبارة الضارعة الذليلة يفتتح مجلس الكنائس العالمي الجلسة التي يحدد فيها موقفه من دولة إسرائيل.. ونتساءل نحن مرة أخرى: إذا أجرم غيرنا وجب علينا نحن القصاص؟

﴿ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ **(الأعراف: ٤٤، ٤٥)** لقد فكرت في هذا الأمر مليا! إن حقنا ليس غامضا حتى يلتمس عذر لمستبيحه! هل المال اليهودي من وراء هذه الذمم الخربة مهما كانت مناصبها الدينية؟ ربما.. أم أن الضغائن العمياء على الإسلام وأمته سيرت الخطب والمقالات في هذا المجال الفوضوي المكابر الوقح؟ ربما.

لكن الدكتور وليم سليمان في كتابه «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية»

يذكر لنا كلاما آخر يستحق الدرس والتأمل.

إنه ينقل عن مؤرخ الإرساليات ستيفن نيل هذه العبارات من تقرير له: «لقد تيقن الرجل الغربي أن سجله الاستعماري حافل بالعار، وأصبح أقل

ثقة مما كان في وحدانية الإنجيل المسيحي ونهائيته، وفي حقه- أي حق الرجل الغربي- أن يفرض على ورثة الأديان العظيمة الأخرى شيئا قد يثبت في النهاية أنه ليس أكثر من خرافة[١] غربية A. WESTRN MYTH .

وبدأ في أوساط رجال اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها في المسيحية! وانتشر تيار فكري يجعل نقطة بدايته «موت الإله»(!) وينادي بمسيحية لا دين فيها! وينادي بهذه الأفكار بنهوفر ويلثمان والأسقف الإنجليزي جون روبنسون[٢] ويخيل للمراقب من بعيد أن القوم يثورون على الإله لأنه تخلى عنهم وساعد أعداءهم».

ويستطرد الدكتور وليم سليمان فيقول عن الغربيين: «الدين في نظرهم لم تعد له قيمة في ذاته، إنه شيء يمكن الاستفادة منه لتحقيق الأهداف الدنيوية التي ينشدها الغرب في شتى أنحاء العالم...»

وخلاصة هذا الكلام أن المسيحية انتحرت في أوروبا! فأي تدين هذا الذي ينخلع ابتداء عن الإيمان بالحي القيوم؟ ويعتبر التعامل معه منتهيا لأنه تلاشى ومات؟

إن ذلك هو التفسير الحقيقي لانضواء رجال الكهنوت تحت راية الاستعمار وركضهم الخسيس في خدمة قضاياه.

وعندما تتسابق شتى الكنائس الغربية لإرضاء إسرائيل وتملق اليهود فهل يدل ذلك إلا على شيء واحد.. أن رجال الدين باعوا ضمائرهم للشيطان؟

---

(١) تاريخ الارساليات ص ٤٥٠ - ٤٦٥

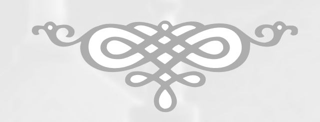
(٢) انظر على سبيل المثال كتاب روبنسون «Houest to God» الذي طبع منه في مارس سنة ١٩٦٣ أربع طبعات وفي إبريل سنة ١٩٦٣ طبعتان وفي كل من مايو ويوليو وسبتمبر من نفس العام طبعة، وكانت الطبعة العاشرة في سبتمبر سنة ١٩٦٤ وقارب عدد النسخ المطبوعة منه مليون نسخة وعلقت عليه مجلة تايم في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ونيوزويك في إبريل سنة ١٩٦٩ ومجلات أمريكية أخرى كثيرة.

إن العرب يتعرضون لإبادة عامة، والمتفجرات تنسف منازلهم، وقد محيت قرى بأكملها من الوجود، والدفاع عن النفس يوصف بأنه إجرام وتمرد! ووسط هذه الحريق المستعرة، يبارك ساسة إسرائيل، ويقول رجال الدين والدنيا: خلقت إسرائيل لتبقى! فأين منطق الإيمان بالله واليوم الآخر في تلك المداهنة وهذا الاستخدام.

ظاهر أن القوم قد تحولوا إلى سماسرة وعملاء للاستعمار العالمي.. واعتقادي أن هذه المحنة الرهيبة ستوقظ الإسلام النائم، وإن كان غيري يرى أن المادية المتربصة هي الكاسبة من خيانة الغرب لدينه ومثله.

ولا شك أن المستقبل محفوف بأخطار شداد، بيد أننا لن نفقد توازننا ولا ثقتنا في أصالتنا الدينية ولا آمالنا في جنب الله.

واعتقادي كذلك أن الاستعمار سيفشل في محاولاته الدائبة لجر الكنائس الشرقية إلى جانبه، وإشراكها في مآسيه، وإذا كان قد ضلل البعض فإن الجمهرة الغالبة ستبقى على وفائها لتعاليمها ومواطنيها وتاريخها الصبور.



(١٩)

حوار...!

العدد (٦٥) جمادى الأولى (١٣٩٠هـ) يونيو (١٩٧٠م)

دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدمغ بالحجة الساطعة كل ما يورد من شبهات.

قال: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟ قلت له: كأنك بهذا السؤال، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق! قال: لا تلفني في متاهات، أجب عن سؤالي! قلت له: لا لف ولا دوران إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي إن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلا، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟ إنها قضية واحدة، فلم تصدق نفسك حين تقررها، وتكذب غيرك حين يقررها؟ وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير؟

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفون بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنت أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنا أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين!

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قلت: إنني أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين.. إنني- أنا وانت- ننظر إلى قصر قائم، فأرى- بعد نظرة خبيرة- أن مهندسا أقامه، وترى أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاءة قد انتظمت في مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء نفسها!

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمرا صناعيا يدور في الفضاء، فقلت أنت انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه، وقلت أنا : بل أطلقه عقل مشرف مدبر!

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إليّ الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لا شك فيه، وإن كان كفار عصرنا مهرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة، في الوقت الذي يصفون أنفسهم بالذكاء والتقدم والعبقرية.. إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلا نستطيع به البحث والحكم، وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي كما نرفض الدعاوى الفارغة.

واذا كان الناس يهزأون بالرجعيين عبيد الماضي ويتندرون بتحجرهم الفكري، فلا عليهم أن يهزأوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة!

لكنا نحن المسلمين نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله.

في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرن الكريم وجدت

تنويها بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة في سلم الصعود.

هذه السورة هي سورة الزمر، وأول صورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم، والغض من أقدار الجاهلين ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ (**الزمر: ٩**).

ثم تجيء الصورة الثانية لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة، أو عادة حاكمة بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه ويتخير الأوثق والأزكى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (**الزمر: ١٧، ١٨**).

ثم يطرد ذكر أولي الألباب للمرة الثالثة في ذات السياق على أنهم أهل النظر في ملكوت الله، الذين يدرسون قصة الحياة في مجاليها المختلفة لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (**الزمر:٢١**).

وظاهر من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم أن الايمان مبتوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعا جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق! من صنع ذلك كله؟

قال صاحبي- وكأنه سكران يهذي-: الأرض صنعت ذلك!

قلت: الأرض أمرت السحاب أن يهمي، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين، والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟

قال: أقصد الطبيعة كلها في الأرض والسماء!

قلت: إن طبق الأرز في غدائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلوا والفلفل حريفا، أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر، ومشيئة تصنف؟ فأين ترى العقل الذي أنشأ، والإرادة التي نوعت، في أكوام السباخ أو في حزم الأشعة؟

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء، ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء تضطرب في أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية في شكلها البدائي ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى!

هذا هو الجهل الذي أسميتموه علما، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به!

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائيا، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود! وذلك كله فرارا من الإيمان بالله الكبير!

قال وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء وضيقا يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالا لا يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين... إلخ.

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة! ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصيبهم من عسر ويسر ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ (**الحج**: ١١).

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه.

قلت: آفاتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه لا بد أن يبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم، وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ (**الزخرف**: ٦٨).

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إن المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقا ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي تحياها على ظهر الأرض فأي غرابة أن يكون ذلك هو المهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال مستهزئا: أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق، وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك بتفصيل أوضح حقيقة ما تشكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تتضح رسالة الإنسان إلا على حره، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد «تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها، وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة كما يطرد في فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح...»

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان مما لا يكترث به آخر، ولله في خلقه شؤون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التي لا ريب فيها إلا أن هذه العدالة كما يقول

الأستاذ العقاد «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل في تصريف الإرادة الإلهية، إن البقعة السوداء في الصورة الجميلة وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لونا من ألوانها التي لا غنى عنها أو التي تضيف مزيدا إلى جمال الصورة، ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته».

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق.

أما القسم الثاني من الشرور التي تشكو منها يا صاحبي فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مستنكرا: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى! فكيف تتهمنا؟

قلت: بل أنتم مسؤولون، فإن الله وضع للعالم نظاما جيدا يكفل له سعادته، ويجعل قويه عونا لضعيفه وغنيه برا بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود، ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (**النحل:** ٩٧).

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

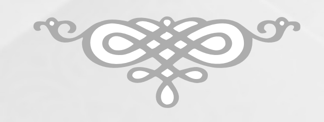
إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ **(الشورى: ٣٠)**.

إن الصديق -رضي الله عنه- جرد جيشا لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق وكبح الأثرة ونفذ الإسلام، فإذا تولى غيره فلم يتأس به في صنيعه كان الواجب على النقاد أن يلوموه لا أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس!

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله!

إنكم معشر الماديين مرضى، تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج.. وعدت إلى نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إن الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح ويشفي السقام، أو أن الأزمة في الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟



(٢٠)

التربية الدينية أولًا

العدد (٦٧) رجب (١٣٩٠هـ) سبتمبر (١٩٧٠م)

في صدر تاريخنا، وعلى امتداده مع الزمن، كان العالم الإسلامي يعرف بحبه للجهاد، وارتضائه لأشق التضحيات كي يحق الحق ويبطل الباطل.

كان هذا العالم الرحب عارم القوى الأدبية والمادية حتى يئس المعتدون من طول الاشتباك معه فقد كبح جماحهم، وقلم أظافرهم، ورد فلولهم مذعورة من حيث جاءت، أو ألحق بهم من المغارم والآلام ما يظل بينهم عبرة متوارثة وتأديبا مرهوبا.

ويرجع ذلك إلى أمور عدة، أولها أن الحقائق الدينية عندنا لا تنفك أبدا عن أسباب صيانتها ودواعي حمايتها، فهي مغلفة بغطاء صلب يكسر أنياب الوحوش إذا حاولت قضمها وذلك هو السر في بقاء عقائدنا سليمة برغم المحاولات المتكررة لاستباحتها، تلك المحاولات التي نجحت في اجتياح عقائد أخرى أو الانحراف بها عن أصلها.

ثم إن الإسلام جعل حراسة الحق أرفع العبادات أجرا، أجل فلولا يقظة أولئك الحراس وتفانيهم ما بقي للإيمان منار، ولا سرى له شعاع «قيل يا رسول الله: ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه! فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه! ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[١].

وإذا كان فقدان الحياة أمرا مقلقا لبعض الناس، فإن ترك الدنيا بالنسبة

---

(١) صحيح مسلم برقم ١٨٧٨.

إلى المجاهدين بداية تكريم إلهي مرموق الجلال شهي المنال، حتى إن النبي ﷺ حلف يرجو هذا المصير «والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[1] فأي إغراء بالاستماتة في إعلاء كلمة الله ونصرة الدين أعظم من هذا الإغراء؟

لقد كانت صيحة الجهاد المقدس قديما تجتذب الشباب والشيب، وتستهوي الجماهير من كل لون، فإذا سيل لا آخر له من أولي الفداء والنجدة يصب في الميدان المشتعل، فما تضع الحرب أوزارها إلا بعد أن تكوي أعداء الله، وتلقنهم درسا لا ينسى.

هل أصبحت هذه الخصائص الإسلامية ذكريات مضت، أم أنها محفورة في عقلنا الباطن تحتاج إلى من يزيل عنها الغبار وحسب؟

إن الاستعمار الذي زحف على العالم الإسلامي خلال كبوته الأخيرة بذل جهودا هائلة لشغل المسلمين عن هذه المعاني، أو لقتل هذه الخصائص النفسية في حياتهم العامة، وذلك ليضمن فرض ظلماته ومظالمه دون أية مقاومة!

وقد توسل إلى ذلك بتكثير الشهوات أمام العيون الجائعة، وتوهين العقائد والفضائل التي تعصم عن الدنايا، وإبعاد الإسلام شكلا وموضوعا عن كل مجال جاد، وتضخيم كل نزعة محلية أو شخصية تمزق الأخوة الجامعة، وتوهي الرباط العام بين أشتات المسلمين.. وقد أصاب خلال القرن الأخير نجاحا ملحوظا في سبيل غايته تلك.

ومن ثم لم تنجح محاولات تجميع المسلمين لصد العدو الذي جثم على أرضهم، واستباح مقدساتهم. وما قيمة هذا التجميع إذا كان الذين ندعوهم قد تحللوا من الإيمان وفرائضه، والقرآن وأحكامه؟ إن تجميع الأصفار لا

---

(١) الحديث من رواية البخاري.

ينتج عددا له قيمة! وإن الجهد الأول المعقول يكمن في رد المسلمين إلى دينهم، وتصحيح معالمه ومطالبه في شؤونهم، ما ظهر منها وما بطن.

عندئذ يدعون فيستجيبون، ويكافحون فينتصرون، ويحتشدون في معارك الشرف، فيبتسم لهم النصر القريب، وتتفتح لهم جنات الرضوان.

إن الرجل ذا العقيدة عندما يقاتل لا يقف دونه شيء، أعجبتني هذه القصة الرمزية الوجيزة، أسوقها هنا لما تتضح به من دلالة رائعة.

حكوا أنه فيما مضى كانوا يعبدون شجرة من دون الله، فخرج رجل مؤمن من صومعته وأخذ معه فأسا ليقطع بها تلك الشجرة، غيرة لله وحمية لدينه! فتمثل له إبليس في صورة رجل وقال له: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: أقطع تلك الشجرة التي تعبد من دون الله، فقال له: اتركها وأنا أعطيك درهمين كل يوم، تجدهما تحت وسادتك إذا استيقظت كل صباح!

فطمع الرجل في المال، وانثنى عن غرضه، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئا، وظل كذلك ثلاثة أيام، فخرج مغضبا ومعه الفأس ليقطع الشجرة.. فاستقبله إبليس قائلا: إلى أين أنت ذاهب؟ قال أقطع الشجرة! قال: ارجع فلو دنوت منها قطعت عنقك.

لقد خرجت في المرة الأولى غاضبا لله فما كان أحد يقدر على منعك!

أما هذه المرة فقد أتيت غاضبا للدنيا التي فاتتك، فما لك مهابة، ولا تستطيع بلوغ إربك فارجع عاجزا مخذولا.

إن الغزو الثقافي للعالم الإسلامي استمات في محو الإيمان الخالص وبواعثه المجردة، استمات في تعليق الأجيال الجديدة بعرض الدنيا ولذة الحياة، استمات في إرخاص المثل الرفيعة وترجيح المنافع العاجلة.

ويوم تكثر النماذج المعلولة من عبيد الحياة ومدمني الشهوات فإن العدوان يشق طريقه كالسكين في الزبد، لا يلقى عائقا ولا عنتا.

وهذا هو السبب في جؤارنا الدائم بضرورة بناء المجتمع على الدين وفضائله، فإن ذلك ليس استجابة للحق فقط، بل هو السياج الذي يحمينا في الدنيا كما ينقذنا في الآخرة.

إن ترك صلاة ما قد يكون إضاعة فريضة مهمة، وإشباع نزوة خاصة قد يكون ارتكاب جريمة مخلة، لكن هذا وذاك يمثلان في الأمة المنحرفة انهيار المقاومة المؤمنة والتمهيد لمرور العدوان الباغي دون رغبة في جهاد أو أمل في استشهاد، ولعل ذلك سر قوله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ **(مريم: ٥٩)**.

إن كلمة الجهاد المقدس إذا قيلت- قديما- كان لها صدى نفسي واجتماعي بعيد المدى، لأن التربية الدينية السائدة رفضت التثاقل إلى الأرض والتخاذل عن الواجب، وعدت ذلك طريق العار والنار وخزي الدنيا والآخرة.

وهذه التربية المغالية بدين الله، المؤثرة لرضاه أبدا هي التي تفتقر إليها أمتنا الإسلامية الكبرى في شرق العالم وغربه.

وكل مؤتمر إسلامي لا يسبقه هذا التمهيد الحتم فلن يكون إلا طبلا أجوف!

والتربية الدينية التي ننشدها ليست ازورارا عن مباهج الحياة التي تهفو إليها نفوس البشر، ولكنها تربية تستهدف إدارة الحياة على محور من الشرف والاستقامة، وجعل الإنسان مستعدا في كل وقت لتطليق متعه إذا اعترضت طريق الواجب.

كنت أقرأ مقالا مترجما في أدب النفس فاستغربت للتلاقي الجميل بين معانيه وبين مواريثنا الإسلامية المعروفة التي يجهلها، للأسف، كثير من الناس.

تأمل معي هذه العبارة، يقول جوته الشاعر الألماني: من كان غنيا في دخيلة نفسه فقلما يفتقر إلى شيء من خارجها!

أليس ذلك ترجمة أمينة لقول رسول الله ﷺ:

«ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»!

عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: ترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت نعم يا رسول الله! قال: فترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: "إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب"[(١)].

واسمع هذه العبارة من المقال المذكور: النفس هي موطن العلل المضنية، وهي الجديرة بالعناية والتعهد، فإذا طلبت منها أن تسوس بدنك سياسة صالحة فاحرص على أن تعطيها من القوت ما تقوى به وتصح، هذا القوت شيء آخر غير الأخبار المثيرة والملاهي المغرية والأحاديث التافهة والملذات البراقة الفارغة، ثم انظر إليها كيف تقوى بعد وتشتد، إن التافه الخسيس مفسدة للنفس! واعلم أن كل فكرة تفسح لها مكانا في عقلك، وكل عاطفة تتسلل إلى فؤادك، تترك فيك أثرها، وتسلك بك أحد طريقين إما أن تعجزك عن مزاولة الحياة وإما أن تزيدك اقتدارا وأملا.. أليس هذا الكلام المترجم شرحا دقيقا لقول البوصيري.

وإذا حلت الهداية نفسا نشطت للعبادة الأعضاء!

وتمهيدا حسنا لقول ابن الرومي:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج طريقان شتى.. مستقيم وأعوج

واقرأ هذه الكلمة أيضا من المقال المترجم![(٢)]: رب رجل وقع من الحياة

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم (٧٩٢٩) وصححه.

(٢) مختصرة عن مجلة «ذي فورم».

في مثل الأرض الموحلة فكادت تبتلعه، ولكنه ظل يجاهد للنجاة مستيئسا، وبينما هو كذلك انهارت قواه، وشق عليه الجهاد، وأسرعوا به إلى الطبيب.. إن الطبيب لم يجد بجسده علة ظاهرة، كل ما يحتاج إليه الرجل من أول أمره، ناصح يعلمه كيف ينازل الحياة وجها لوجه لا تثنيه عقبة ولا رهبة!

إن هذا الكلام ذكرني بما روي عن جعفر الصادق: من طلب ما لم يخلق تعب ولم يرزق! قيل وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا.

وأنشدوا:

يطلب الراحة في دار الفنا ... خاب من يطلب شيئا لا يكون!

إن التربية التي ننشدها نحن المسلمين ليست بدعا من التفكير الإنساني الراشد، إنها صياغة الأجيال في قوالب تجعلها صالحة لخدمة الحق، وأداء ضرائبه، واحتقار الدنيا يوم يكون الاستمساك بها مضيعة للإيمان، ومغاضبة للرحمن.

والاستعمار يوم وضع يده على العالم الإسلامي من مائة سنة صب الأجيال الناشئة في قوالب أخرى، نمت بعدها وهي تبحث عن الشهوات، وتخلد إلى الأرض، فلما ختلها عن دينها بهذه التربية الدنيئة استمكن من دنياها، فأمست جسدا ونفسا لا تملك أمرها، ولا تحكم يومها ولا غدها.

بل إنها في تقليدها للعالم الأقوى تقع في تفاوت مثير عندما تنقل المباذل، ومظاهر التفسخ في الحضارة الأوروبية.. تنقلها بسرعة الصوت، أما عندما تنقل علما نافعا، وخيرا يسيرا، فإن ذلك يتم بسرعة السلحفاة، وكثير من الشعوب الإسلامية تبيع ثرواتها المعدنية والزراعية بأكوام من المواد المستهلكة، وأدوات الزينة والترف مع فقرها المدقع إلى ما يدفع عنها جشع العدو ونياته السود في اغتيالها وإبادتها!

وظاهر أن هذا السلوك استجابة طبيعية لأسلوب التربية الذي أخذت به

من الصفر، وأثر محتوم لاتخاذ القرآن مهجورا، ونبذ تعاليمه وقيمه، وهل ينتج ذلك إلا طفولة تفرح باللعب المصنوعة، والطرف الجديدة، والملابس المزركشة، والمظاهر الفارغة؟ ولا بأس بعد توفير هذا كله من استصحاب بعض الآثار الدينية السهلة! ولتكن هذه الآثار الاحتفال بذكرى قديمة أو زيارة قبر شهير!

ثم يسمى هذا السلوك التافه تدينا!

لقد جرب المسلمون الانسلاخ عن دينهم، واطراح آدابه، وترك جهاده فماذا جر عليهم ذلك؟ حصد خضراءهم في الأندلس، فصفرت منهم بلاد طالما ازدانت بهم وعنت لهم، وما زال يرن في أذني قول الشاعر:

قلت يوما لدار قوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا؟

فأجابت هنا أقاموا قليلا ... ثم ساروا ولست أعلم أينا!

أسمعت هذا النغم الحزين يروي في اقتضاب عقبي اللهو واللعب، عقبى إضاعة الصلاة واتباع الشهوات؟ إن عرب الأندلس لم يتحولوا عن دارهم طائعين، ولكنهم أخرجوا مطرودين، أفلا يرعوي الأحفاد مما أصاب الأجداد؟

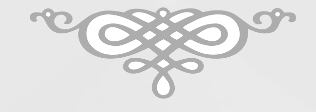
لقد قرأت أنباء مؤتمرات عربية وإسلامية كثيرة اجتمعت لعلاج فلسطين فكنت أترك الصحف جانبا ثم أهمس إلى نفسي: هناك خطوة تسبق هذا كله، خطوة لا غنى عنها أبدا:

هي أن يدخل المسلمون في الإسلام.

إنني ألمح في كل ناحية استهانة بالفرائض، وتطلعا إلى الشهوات، وزهادة في المخاطرة والتعب، وإيثارا للسطوح عن الأعماق، والأشكال عن الحقائق، وهذه الخلال تهدم البناء القائم، فكيف تعيد مجدا تهدم، أو ترد عدوا توغل؟

ما أحرانا أن نعقل التحذير النبوي الكريم: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»[1].

فإذا أصغينا إلى هذا النذير ابتعدنا عن منحدر ليست وراءه إلا هاوية لا قرار لها، ثوى فيها - من قبلنا- المفرطون والجاحدون.



(١) رواه أحمد برقم (١٩٧٧٢).

(٢١)

المحبوسون في سجن المادة

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩١هـ) يناير (١٩٧١م)

في غضون القرن التاسع عشر للميلاد كانت نزعات الإلحاد تغلب على العقل الغربي، وبدا كأن العلم الطبيعي يتجه بالناس وجهة مادية تتنكر للدين وتضيق بتعاليمه، ولما كان الغربيون سادة الدنيا يومئذ فقد صبغوا الفكر العالمي تقريبا بهذه الصبغة الداكنة.

وقد تسأل: ماذا كان موقف المتدينين بإزاء هذا الكفر الزاحف؟

والإجابة أن المسلمين كانوا في حالة ذهول أنستهم رسالتهم المحلية والعالمية على سواء، فهم لا يريدون من دينهم شيئا طائلا ينفعون به أنفسهم بله أن ينفعوا به غيرهم!

وأما بنو إسرائيل فقد شرعوا عقب تقرر الحقوق السياسية في الأقطار الحديثة يجمعون شملهم، ليعيدوا ملك «يهوه» على الأرض، ويستعدوا لحكم العالم كله من أورشليم وما كان عليهم أن تكتسح ظلمات الشك كل ضمير!

وأما النصارى فلو تفرغوا لمواجهة هذا الخطر لكانوا كالذي يرد الطوفان بالراحتين، فكيف وهم مشغولون بالقضاء على الإسلام المريض؟

لذلك نجح الإلحاد في فرض أفكاره وأحكامه على أغلب ميادين النشاط الإنساني، وربما سمح للأديان أن تبقى ميولا فردية، واتجاهات أدبية، وحسبها ذلك.. على أن القرن العشرين للميلاد أخذ يتجه- خصوصا في أواسطه ونهايته- وجهة مغايرة، وظهر في كتابات كثير من العلماء الطبيعيين نزوع واضح إلى الإيمان بالغيب والتسليم بوجود إله حكيم قدير، عالم خبير!

وتدين العلم كسب إنساني جليل!

والصورة التي تكونت لدى العلماء الطبيعيين عن الله قد تكون أدنى إلى الحقيقة مما يهرف به كثير من رجال الأديان!

ولو كان للإسلام رجال يحسنون عرضه كما نزل في أصوله الأولى لكان الإسلام دين الحاضر والمستقبل على سواء، ولكن الفكر الإسلامي وقع في محنة رهيبة!

ولست أزعم أن كل العلماء الكونيين نزاعون إلى التدين، فهناك من ضل الطريق! ولكن تيار الإيمان لو مضى في طريقه بين هؤلاء دون عوائق سياسية، ودون إرهاب خارجي، لتغير الوضع، فإن جمهرتهم سوف تدخل في دائرة الدين بلا ريب!

والمشكلة التي نواجهها نحن في بلادنا الإسلامية هي تأخر مثقفينا في مضمار التقليد!

فعدد كبير منهم لا يزال يعيش في العقلية المادية للقرن التاسع عشر.

وعدد آخر قد يعدو هذا النطاق، ليرنو ببصره إلى المسجونين كرها داخل بعض المذاهب المادية الحاكمة، وهم قوم كفروا عن إرهاب لا عن اختيار ففيم يقلدون؟

الغريب أن نفرا من علماء الإسلام يزعمون أن الدين- كسائر القضايا الأدبية- لا صلة له بالعقل! أي أن التفكير الإلحادي للقرن التاسع عشر ما زال هو الذي يسيطر عليهم، فأي بلاء هذا؟

ونحن نناشد أحرار العقول أن يراجعوا أنواع المعرفة التي تعرض عليهم، فإن للاستعمار الثقافي دخلا في تلويثها وغشها.

إن أعظم شيء في رسالة الإسلام احترامه للعقل البشري، وحفاوتها بالعلم الطبيعي، وبناؤها اليقين على النظر الصائب في ملكوت الأرض والسماء.

ولا يوجد كتاب سماوي حث العقل على النظر، وقاد العلم في مضمار البحث كهذا القرآن الكريم.

إننا بمنطق القرآن نرفض الظنون ونخضع لليقين، نرفض الأوهام ونستكين للحقيقة وحدها..

إن التدين الذي تعلمناه من كتابنا ليس تحميل العقل ما لا يطيق، ولا الهيمان في عالم الأخيلة.. إنه تدين ذكي عملي.

ثم هو يضم إلى هذا الفكر الناضج قلبا سليما، لا مكان فيه لنية خبيثة أو غرض صغير، على أساس أن الإنسان لا يسيره العلم النظري قدر ما تسيره مقاصده وآماله..

وما أكثر أن يكون الذكاء سلاحا يستعمل في الخير والشر على سواءٍ، فإذا صدق الإيمان صلح القلب واستقام المنهج ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ **(التغابن: ١١)**. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ **(ق: ٣٧)**.

وفي معرفة الكون وخالقه، والنفس وهداها يقول ابن عطاء الله السكندري هذه الكلمة الحاسمة:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ **(النجم: ٤٢)**، وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ ﴾ (**الذاريات: ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١**).

هذه آيات خمس، الثلاث الأولى منها وصفت الأكوان علوها، وسفلها، وما أنبتت فيها من حياة وأحياء.

والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكون فتحدثتا عن وجوده ثم توحيده.

ولفت الناس هنا إلى الله جاء بصيغة عجيبة ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ...﴾ وهذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويعاب.

والحق أن الانحصار في الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية لا يرضاها أريب لنفسه، بل ينفر منها أولو الألباب.

إن من له أدنى مسكة يعرف- من العالمين- رب العالمين، ويعرف- من الاكوان- صاحب هذه الأكوان!

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من ودائع ذراته إلى روائع مجراته شاهد غير مكذوب على أن له خالقا أكبر وأجل.

إنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفه عليه.

ولكن: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ (**النحل: ٤**).

والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى، وصفات عظمى.

والناس صنفان، صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها، ولا نتحدث الآن مع هؤلاء.. فقد ذكرنا نبأهم فيما مضى.

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقائه، ولكنه هائم في بيداء الحياة، ذاهل وراء مطالب العيش، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود، أو يتمحض لرب العالمين.

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث.

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم، بل هي مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدأوا المسير إلى الأمام.

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه أو بمطالبهم منه عن الذي ينبغي له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى.

إنهم مقيدون بسلاسل متينة مع أنانيتهم فهم يسيرون ولكن حولها، لو حسنت معرفتهم بالله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية، بل لطغى عليهم الشعور به، وبما يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدأوا إلا في ساحته، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه، على حد قول أبي فراس:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خـــراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تــراب

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مآربهم، كحركة بندول الساعة، لا تتجاوز موضعها على طول السعي، أو هم على حد تعبيره كحمار الرحى ينتقل من كون إلى كون، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصدا، وأن يتفصى تفصيا عن ألوف الأربطة التي تشده إلى الدنيا، وتخلد به إلى الأرض!

ومن خدع الحياة أن المرء قد يعمل لنفسه وهو يحسب أنه يعمل لله، ولو وضعت بواعثه الكامنة تحت مجهر مكبر لاستبان أن كثيرا من دواعي غضبه وسروره وتعبه وراحته، يصلها بوجه الله خيط واه، على حين تصلها بحظوظ النفس حبال شداد.

وهنا الخطر المخوف، إن الهجرة إذا كانت لله فقد مضت وقبلت، وإلا فالأمر كما قال الرسول ﷺ: «من هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

والشعور بوجود الله ليس أمرا يتكلف له الإنسان شيئا، إنه شعور بالواقع!

قد يكون لك حبيب مسافر مثلا فأنت إذا اشتقت إليه تتخيل صورته وتحاول الأنس بالوهم عن الحقيقة.

ولكن الشعور بالله ليس تقريبا لبعيد ولا تجسيدا لوهم، إنه شعور بالواقع الذي يعد تجاهله باطلا، كشعورك مثلا- وأنت في البيت- بأنك في البيت، أو شعورك- وأنت في القطار- بأنك في القطار.

إنه الواقع الذي لا معدى عن الاعتراف به، وبناء كل تصرف على أساسه.

إن الألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار، ومن ثم فإن الغفلة عن الله غفلة عن الحق المبين.

وإذا كان الأعمى يعجز عن رؤية الأشياء فإن الأشياء لم تزل في مكانها لأن عينا كليلة لم تتبينها.

واذا كان الناس مذهولين عن الحق المصاحب لهم المحيط بهم، فذلك عمى تعود عليهم وحدهم معرته.

وقد كثر القرآن الكريم من إشعار الناس بهذه المعاني، وصاح بهم وهم

يفرون عنها، إلى أين؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ (**التكوير: ٢٦**) أين المذهب ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ (**البروج: ٢٠**).

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (**الحديد: ٣، ٤**)

هو بصير بما نعمل، وهو معنا حيثما كنا! ألا تعين هذه الحقائق على صدق المعرفة وحدة الشعور بوجوده وإشرافه؟

ثم ألا يدل ذلك على أن ذكرك لله ليس استحضارا لغائب؟ إنما هو حضورك أنت من غيبة، وإفاقتك أنت من غفلة!

ولا بد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم، فإن بعض الناس يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصالا تاما.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول: إنه يرى الله في كل شيء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه، والقول بهذا كفر بالله والمرسلين.

ووصف الإحاطة الإلهية في هذا المجال وسيلة لا غاية، وسيلة لتصحيح النية والجهد والهدف، وإهابة بالإنسان أن يدير نشاطه البدني والعقلي على مرضاة الله وحده.

وليت الناس يسعون في هذا الطريق بنصف قواهم! لو أن امرءا حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذي يبذله في كسب المال، أو التمكين في الأرض لقطع مرحلة رحبة في طريق الارتقاء الروحي والخلقي، ولو أن امرءا كره الشيطان ووساوسه بنصف الشعور الذي يكره به الآلام، والخصوم لنال من طهر الملائكة حظا.

إن الله قد يقبل نصف الجهد في سبيله، ولكنه لا يقبل نصف النية.

إما أن يخلص القلب له، وإما أن يرفضه كله.

وقد أسلفنا القول إن الانسان قد تحتل قلبه مقاصد شتى هي التي تبعثه على الحركة والسكون، وعلى الرضا والسخط، وإن هذه المقاصد تنبعث عن إنانيته لا عن إيمانه بربه، وابتغائه ما عنده.

والعلماء المربون يطاردون هذه المقاصد المتسللة إلى القلب، ويمنعونها أن تثوي فيه، ولا يتوانون في مطارداتها حتى تخفى ويطهر القلب منها.

ذلك أن الإسلام دقيق جدا في تقويم العمل بالنية الباعثة عليه والغاية المصاحبة له، فمن لم يكن الله وجهته في هجرته فلا عمل له ولا خير فيه.

في الحياة الآن ألوف من المدرسين والأطباء والمهندسين والضباط والعمال والتجار والموظفين... الخ يزحمون ظهر الأرض بحركة واسعة المدى، فأما ما كان للتكاثر والتظاهر فسوف يلصق بالتراب، وربما بقي لصاحبه طول حياته، وربما افتقده قبل أن يموت، وأما ما كان لله فهو مبارك الثمر ممتد الأثر، إن البقاء لما قصد به رب السماء ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ **(الشورى: ٢٠)**.



ونعود إلى الصنف المسجون بين عناصر المادة لا يعرف غيرها، إنه ينتقل

من عنصر إلى عنصر، وينسب مادة إلى مادة، ويجحد ما بعد ذلك.

وقد ناقشنا هؤلاء، ودحضنا ما ساقوا من شبه، ونريد هنا كشف الستر عن بعض دعاوى القوم.

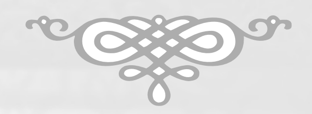
إن وصف الإيمان بأنه حركة رجعية، والإلحاد بأنه حركة تقدمية وصف كاذب، فالكفر قديم قدم الغرائز الخسيسة، والأفكار السفيهة، وتاريخ الحياة يتجاور فيه الخير والشر، والصلاح والفساد، فمن قال: إن الإيمان طبيعة أيام مضت وانتهى دورها، وإن الكفر يجب أن يفسح له الطريق فهو دجال.

كذلك وصف الإيمان بأنه حركة فكر محدود، والإلحاد بأنه حركة عقل ذكي أو وصف الإيمان بأنه منطق الدراسة النظرية، والإلحاد بأنه منطق الدراسة العملية والبحوث الكونية.. هذا كلام خرافي لا حرمة له، فإن جمهرة كبرى من قادة العلم الكوني والدراسات الحيوية يؤمنون بالله، ويرفضون الزعم بأن الكون خلق من غير شيء.

والواقع أن الإلحاد يعتمد على الظنون والشائعات، لا على اليقين والبراهين، وأنه لم يثبت في معمل أو مختبر بأن الله غير موجود، وكل ما هنالك أن الماديين نسبوا لغير الله من النظام والإبداع ما لا تصح نسبته إلا لله.

ووراء هذا النسب المنتحل ساروا، وأيديهم خالية من أي يقين، هم كما وصف القرآن الكريم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ **(يونس: ٣٦)**.

أما الدلائل التي تغرس الإيمان في القلوب، عن طريق التفكير السليم في هذا الكون الكبير فهي قائمة ناهضة.





(٢٢)

دينٌ زاحف مَهمَا كانتْ العَوائق

العدد (٧٣) محرم (١٣٩١هـ) فبراير (١٩٧١م)

- أحاديث الفتن لا تغري باليأس والقعود عن الجهاد
- غربة الإسلام ليست موقفا سَلبيا إنها جهاد قائم دائم
- سيبلغ الإسلام مواقع النور والظل في أرض الله

كلما قرأت أبواب الفتن في كتب السنة شعرت بانزعاج وتشاؤم، وأحسست أن الذين أشرفوا على جمع هذه الأحاديث قد أساءوا- من حيث لا يدرون ومن حيث لا يقصدون- إلى حاضر الإسلام ومستقبله! لقد صوروا الدين وكأنه يقاتل في معركة انسحاب، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما يربح!

ودونوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة فظهرت وكأنها تغري المسلمين بالاستسلام للشر، والقعود عن الجهاد، واليأس من ترجيح كفة الخير، لأن الظلام المقبل قدر لا مهرب منه..

وماذا يفعل المسلم المسكين وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري عن الزبير بن عدي قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ»!

وظاهر الحديث «أن أمر المسلمين في إدبار، وأن بناء الأمة كلها إلى انهيار على اختلاف الليل والنهار»!

وهذا الظاهر باطل لا يقبل، وهو يخالف نصوصا أخرى ثابتة سوف نذكرها، كما يخالف الأحداث التي وقعت في العصر الأموي نفسه!

فقد جاء الوليد بن عبدالملك فمد رقعة الإسلام شرقا حتى احتوت أقطارا من الصين، وامتدت رقعة الإسلام غربا حتى شملت اسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا..

ثم تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز فنسخ المظالم السابقة، وأشاع الرخاء حتى عز على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية وخدموا الإسلام أروع وأجل خدمة، فكيف يقال: إن الرسالة الإسلامية الخاتمة كانت تنحدر من سيئ إلى أسوأ؟ هذا هراء!

الواقع أن أنسا -رضي الله عنه- كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده ومن بعده، فمزقت شمل الأمة وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة، ولم تنل المبطلين بأذى يذكر!

وأنس بن مالك أشرف دينا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزج بأتقيائها وشجعانها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخا مكينا!

وتصبيره للناس حتى يلقوا ربهم، أي حتى ينتهوا هم، لا أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة للظلمة سنة ماضية إلى الأبد!

ان هذا الظاهر باطل يقينا، والقضية المحدودة التي أفتى فيها أنس لا يجوز أن تتحول إلى مبدأ قانوني يحكم الأجيال كلها..

لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرنا، وسيبقى الاسلام على ظهر الأرض ما صلحت هذه الأرض للحياة والبقاء، وما قضت حكمة الله أن يختبر سكانها بالخير والشر..

ويوم ينتهي الإسلام من هذه الدنيا، فلن تكون هناك دنيا، لأن الشمس ستنطفئ، والنجوم ستنكدر، والحصاد الأخير سيطوي العالم أجمع!

فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أن الله أبر بدينه وعباده مما يظنون..

لقد ذكر لي بعضهم حديث «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء» وكأنه يفهم منه أن الإسلام سينكمش ويضعف، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم، ويداهن الجائرين، ويستكين للأفول الذي لا محيص عنه!

وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم..

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبي ما فكر في استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى!

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر ابتداء من جمال الدين الأفغاني إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق، ما فكروا أن يخطوا حرفا أو يكتبوا سطرا!

وقلت في نفسي: أيكون الإسلام غريبا وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس؟ ياللخذلان والعار!

الواقع أن هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التي سوف يواجهها الحق في مسيرته الطويلة، فإن الباطل لن تلين بسهولة قناته، بل ربما وصل في جرأته على الإيمان أن يقتحم حدوده، ويهدد حقيقته، ويحاول الإجهاز عليه!

وعندئذ تتجلي الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدو الله عليه، يقاومون الضلال بجلد، ولا يستوحشون من جو الفتنة الذي يعيشون فيه، ولا يتخاذلون للغربة الروحية، والفكرية التي يعانونها، ولا يزالون يؤدون ما عليهم لله حتى تنقشع الغمة، ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة، بل لعله يستأنف زحفه الطهور، فيضم إلى أرضه أرضا وإلى رجاله رجالا..

وذلك ما وقع خلال أعصار مضت، وذلك ما سيقع خلال أعصار تجيء، وهذا ما ينطق به حديث الغربة الآنف، فقد جاء في بعض رواياته «طوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»، فليست الغربة موقفا سلبيا عاجزا، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة ويلقى الدين حظوظا أفضل.

وليس الغرباء هم التافهون من مسلمي زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة وتوكلوا على الله في مدافعتها حتى تلاشت!

والفتن التي لا شك في وقوعها، والتي طال تحذير الإسلام منها، فتن التهارش على الحكم والتقاتل على الإمارة، ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأي ثمن، وما استتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود، وعدوان على الأموال والأعراض.. وهذا المرض كان من لوازم الطبيعة الجاهلية التي عاشت على العصبية العمياء.

والعرب في جاهليتهم ألفوا هذا الخصام والتعادي، فهم كما قال دريد بن الصمة:

يغار علينا واترين فيشتفى بنا أن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وقد غلبت طبيعة الإسلام في العصر الأول طبيعة العرب، واستفاضت نصائح النبي ﷺ لقمع هذه الغرائز الشرسة..

وتدبر قوله للأنصار: «إنكم ستجدون أثرة بعدي» قالوا: ما تأمرنا؟ قال: «أدوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم» وهذا القول أحكم وأشرف ما يعالج به نبي أدواء قوم.

ماذا يصنع الرجل الكفء إذا جحدت كفايته، وتقدم غيره بوسائل مفتعلة؟ أيقاتل وليكن ما يكون؟ لا، ليؤد واجبه الذي عليه، وليسأل الله- لا الناس- الحق الذي له، وليرض بما يقسمه الله له في الدنيا ويدخره له في الأخرى!

فإذا شاعت بين الناس تلك الخيانات فليحرص المؤمن على الترفع والتنزه، وليرفض المشاركة في معارك المال والجاه والمطامع والوجاهات، وليستمسك بعروة الإيمان متجاوزا تلك الصغائر التي يهلك فيها أصحابها، وذاك معنى قول رسول الله ﷺ: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذ به» والحديث يوصي بنفض اليد من هذه الفتن، ويذكر أن صاحب الجهد القليل فيها خير من الناشط المتحمس، ثم ينصح المؤمن أن يبحث عن حصن يعوذ به من شرورها!

هل يعني ذلك العزلة وترك الأمة دون ناصح أمين، ورائد مخلص؟ كلا.. إن العزلة قد تصلح للبعض، وقتا ما، ولكنها لا تصلح للأمة كلها بداهة وإلا كان ذلك حكما عليها بالفناء!

غير أن بعض العلماء للأسف تأول هذه الأحاديث ونظائرها مما ورد في أبواب الفتن على أنها دعوة للانسحاب من المجتمع وترك بناء الإسلام ينهار على أساس أن الدنيا إلى شر وأن الدين إلى غربة وأن المؤمنين إلى استضعاف.. وأن النجاة أولى!

وذلك كله إفك، فإن الإسلام لما يكتمل بعد كيانه السياسي، ولما يبلغ سيله- بعد- مداه الطبيعي، وقافلة الإسلام التي تحركت من أربعة عشر قرنا، وتعثرت حينا وهرولت حينا آخر، لا تزال على الدرب العتيد ماضية إلى وجهتها المكتوبة لها من الأزل، تلك الوجهة التي قال القرآن في تحديدها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ **(التوبة: ٣٣)** والتي ذكرها النبي ﷺ في أحاديث صحيحة أولى بالنشر والترويج من أحاديث الفتن التي أولع الضعفاء بروايتها وسوء شرحها..

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»..

وروى الإمام أحمد في مسنده عن تميم الداري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار! ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، يعز عزيزا ويذل ذليلا، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر».

وكلمة ما بلغ الليل والنهار في هذا الحديث الرائع كلمة جامعة من خصائص البلاغة المحمدية، ولا أرى نظيرا لها في الدلالة على السعة والانتشار!

وما رواه أحمد عن تميم الداري يؤيده ما رواه عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزا ويذل ذليلا، أما الذين يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وأما الذين يذلهم الله فيدينون لها».

وكذلك ما رواه عن قبيصة بن مسعود: صلى هذا الحي من محارب- اسم قبيلة- الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها- أمراءها- في النار إلا من اتقى وأدى الأمانة».

ويقول صاحب المنار في نهاية تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ...﴾ **(الأنعام: ٦٥)** اعلم أن الاستدلال بما ورد من الأخبار والآثار في تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن على أن الأمة الإسلامية قد قضي عليها بدوام ما هي عليه الآن من الضعف والجهل كما يزعم الجاهلون بسنن الله، اليائسون من روح الله، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة، وأن لسهمها قرطة بعد هذه النبوة، كالآية الناطقة

باستخلافهم في الأرض- سورة النور- فإن عمومها لم يتم بعد، وكحديث «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق» (رواه أحمد)، والشطر الأول منه لم يتحقق بعد، ويؤيده ويوضح معناه ما صح عند مسلم من أن مساحة المدينة المنورة سوف تبلغ الموضع الذي يقال له أهاب، أي أن مساحتها ستكون عدة أميال، فكونوا يا قوم من المبشرين لا من المنفرين.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ﴾ **(ص: ٨٨)**

وخطأ كثير من الشراح جاء من فهمهم أن ترك الشر هو غاية الدين وأن اعتزال الفتن هو آية الإيمان.

وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة، وإني لأذكر فيه قول المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

أجل، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم وتسنم القمم، والتلميذ الذي لا يسقط شيء والذي يحرز الجوائز شيء آخر!

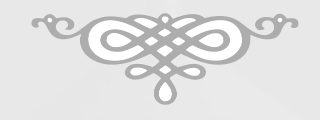
والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لا ينهي واجبنا عند ذلك الحد..

سوف يبقى بعد الاعتزال، الواجب بناء الأمة على الحق، ومد شعاعاته طولا وعرضا حتى تنسخ كل ظلمة.

ولا نماري في أن تصدعات خطيرة أصابت الكيان الإسلامي قديما وحديثا.. بيد أن الضعاف وحدهم هم الذين انزووا بعيدا يبكون، ويتشاءمون، وينتظرون قيام الساعة!

أما الراسخون في العلم فقد أقبلوا على رتق الفتوق، وجمع الشتات،

وإعادة البناء الشامخ، حتى يدركهم الموت أو القتل وهم مشتغلون بمرضاة الله، حتى يبلغ الإسلام مواقع النور والظل من أرض الله، أو كما قال الرسول العظيم: «مابلغ الليل والنهار».



(٢٣)

لا علاقة بين العلم والإلحاد

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩١هـ) مايو (١٩٧١م)

في أرجاء الأمة الإسلامية ناس أشباه متعلمين يعلنون إلحادهم دون حياء، ويزعمون أنهم ثوار على الرجعية، عشاق للمعرفة، ضائقون بالأفكار القديمة، معتنقون للأفكار الحديثة!

وكثيرا ما لقيت في طريقي صورا من هؤلاء الناس، فأتفرس في مسالكهم، وأتأمل في أقوالهم وأحوالهم، ثم أذكر كلمة العقاد رحمه الله: «هناك مقلدون في كراهية التقليد!»

إن هذا النفر المعوج من الشباب ضحل الثقافة، قصير الباع في ميادين العلم، ولكنه يريد الظهور في ثياب العلماء فيثرثر بكلمات ضخمة يحسبها تنظمه في سلكهم وهيهات! إنهم لم يكفروا بعد دراسات عميقة في علوم الكون والحياة، فإن أنصبتهم من هذه العلوم فوق الصفر بقليل، ولكنهم كفروا لعلل نفسية أو اجتماعية او اقتصادية نمت في نفوسهم وأصابتهم بهذا الدوار أو هذا السعار، فقالوا ما قالوا دون وعي حق!

أما حديث العلم وتقدمه، والكون وكشوفه، فهو تعلة خادعة ينكرها العلم والعلماء.

وأول ما نلحظه على أولئك الناس نقلهم لكلمات أوحت بها بيئات أخرى، وترديدها في بلادنا دون أي حساب لاختلاف الزمان والمكان والباعث والنتيجة!

لقد كان الفيلسوف الألماني نتشه ملحدا، وكان كفره بالله شديدا، ومما يؤثر عنه قوله في الهجوم على الدين «عندما نستمع في صباح الأحد إلى

دقات الأجراس القديمة نتساءل: أهذا ممكن؟ إن هذا كله من أجل يهودي صلب منذ ألفي عام كان يقول إنه ابن الله! وهو زعم يفتقر إلى برهان».

لا جدال أن العقيدة المسيحية- هكذا يقول نتشه - هي بالنسبة إلى عصرنا أثر قديم نابع من الماضي السحيق، وربما كان إيماننا بها في الوقت الذي نحرص فيه على الإتيان ببراهين دقيقة لكل رأي نعتنقه، شيئا غير مفهوم، فلنتصور إلها أنجب أطفالا من زوجة فانية، وخطايا ترجع إلى الله ثم يحاسب هو نفسه عليها خوفا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه! لكم يبدو كل ذلك مخيفا، وكأنه شبح قد بعث من الماضي السحيق! أيصدق أحد أن شيئا من ذلك لا يزال يصدق؟

وهذا الطراز من الإلحاد هو الذي يحمل جرثومته بعض الناس، يحسبون أنهم يفتنوننا به نحن المسلمين عن ديننا ويصرفوننا عن رسالتنا.

وهو طراز يختلط فيه التقليد الأعمى بالنقص المركب، أو حب الظهور بالحقد على المجتمع.. أما الزعم بأن العلم المادي ضد الدين، وأن بحوثه المؤكدة وكشوفه الرائعة تنتهي بإنكار الألوهية فهذا هو الكذب الصراح!

بل إن أساطين العلم والفلسفة تشابهت مقالاتهم في إثبات الوجود الأعلى، وتكاد في وصفها لله تنتهي إلى ما انتهى إليه القرآن الكريم من توحيد وتمجيد.

نحن لا ننكر أن خصاما شديدا قد وقع بين العلم والدين في أوروبا حيث كان القول بكروية الأرض كفرا، والقول بدورانها حول الشمس إلحادا!

ولا ريب أن تلك الجفوة المفتعلة بين حقيقة الدين وطبيعة العلم تركت آثارا سيئة هنا وهناك، بيد أن الاعتماد على هذا في التجهم للايمان الحق لا يسوغ، فان تجريد الدين من الشوائب التي لحقت به، والتزام العلم للنهج السوي في البحث عن الحقيقة قد انتهى بصلح شريف يذكرنا بقوله جل

شأنه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ **(فصلت: ٥٣)**.

كانت المادية بدعة القرن الماضي، وكان الزعم السائد أنه لا وجود الا للمادة وأن ما وراء المادة عدم محض، وان المادة لا تفنى ولا تستحدث، وأن الدين بعد هذا كله أمسى لا مكان له،!

ثم مضت الحقائق العلمية تكشف عن وجهها فاذا مقررات الماضي تنسف من أصولها، يقول الدكتور أبوالوفا التفتازاني: كان العلم يتصور الأمور تصورا ماديا بحتا إلى أن جاء العلم الشهير البرت انشتين فغير ببحوثه الطبيعية النظر إلى المادة تغييرا حاسما، وقد صور الفيلسوف الانكليزي «رسل» ذلك قائلا: درسنا العالم الطبيعي فوجدنا المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها، اذا حللها العلماء إلى مجموعات ذرية كل مجموعة منها تنحل إلى ذرات، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل إلى كهارب موجبة وأخرى سالبة، ثم مضى العلماء في التحليل، فإذا هذه الكهارب نفسها تتحول إلى اشعاعات! وختم «رسل» كلامه بهذه العبارة «ليس في علم الطبيعة ما يبرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي».

ونحن نقول: انتساب ذلك الكون الضخم إلى أصول من الأشعة شيء مثير حقا! ترى ما الذي كثف النور، وجمد حركته ووزعه على ألوف الأشكال التي نراها؟

انك لن تعدم سفيها يقول لك: تم ذلك من تلقاء نفسه!

وهذا القائل مستعد أن يقول لك أيضا: إن الصحف في عواصم العالم تصدر عن دورها مليئة بالأخبار والتعليقات والصور، متسلقة الحروف والأرقام تلقائيا من غير ما إشراف ولا إعداد ولا تبويب ولا ترتيب!

لعمري إن ذلك أدنى إلى التصور من خلق الموت والحياة في هذا العالم الفخم الضخم تلقائيا كما يأفك الأفاكون!

لكن أي عاقل يحترم نفسه ويقدر علمه يأبى هذا المنزلق، يقول الدكتور التفتازاني:

ولعل هذا ما جعل العلامة انشتين يؤثر الايمان بالله ويرفض الشبهات التي تختلق ضده، وقد دار حوار بينه وبين صحفي أمريكي يدعى «فيرك» في هذا الموضوع قال فيه الرجل العالم بحسم: انني لست ملحدا! ولا أدري: هل يصح القول بأني من أنصار وحدة الوجود؟[1] ان المسألة أوسع نطاقا من أن تحيط بها عقولنا المحدودة..!

وعاد الصحفي إلى سؤاله بطريقة أخرى - يريد بها هز الايمان الذي لاذ به هذا العالم - فقال: ان الرجل الذي يكتشف ان الزمان والمكان منحنيات، ويحبس الطاقة في معادلة واحدة، جدير به الا يهوله الوقوف في وجه غير المحدود!

فيرد «أنشتين»: اسمح لي ان أضرب لك مثلا، ان العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الاحاطة بالكون - فكيف بخالقه - نحن أشبه ما نكون بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف، فغطت جدرانها، ثم هي مؤلفة بشتى اللغات.

إن هذا الطفل يعلم أن شخصا ما كتب هذه الكتب، ولكنه لا يعرف بالضبط من هو، ولا كيف كانت كتابته لها، ثم هو لا يفهم اللغات التي كتبت بها!

---

(١) ليس هذا العالم ممن يعتنقون مذهب الوحدة على النحو الذي يعرفه الهنود، أو النحو الذي تسرب من الهندوكية إلى بعض الديانات الأخرى، ولكنه يريد أن يقول: إنه يرى الله في كل شيء، يلمح صفاته العظمى في مجالي الكون كلها ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ **وعذر الرجل أنه لا يعرف الاسلام فيعبر التعبير المأثور.**

وقد يلاحظ الطفل أن هناك طريقة معينة في ترتيب الكتب، ونظاما غامضا يشمل صفوفها وأوضاعها، نظاما يحس أثره ولا يدري كنهه.

إن ذلك القصور هو موقف العقل الانساني مهما بلغ من العظمة والتثقيف!

وعاد الصحفي الأمريكي يسأل: أليس في وسع أحد حتى أصحاب العقول العظيمة أن يحل هذا اللغز؟

فأجاب انشتين مرة أخرى يعلل لماذا هو مؤمن، ولماذا يعجز عن معرفة كنه الله فقال: نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة، ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الإبهام، فنؤمن بالله، ولكن عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التي تهيمن على مجاميع النجوم...».

لو كانت المواد التي يتكون منها هذا العالم الضخم تتراكم بعضها فوق بعض دون تبصر أو حكمة لدلت كثرتها وحدها على غنى واسع وثراء عريض..! فإن الأبعاد الآلية لهذا الكون مذهلة!

لكن الأمر أبعد ما يكون عن الجزاف والفوضى.

والبناء العقلي المتغلغل في الكون من الذرة إلى المجرة يجعلنا نكوِّن عن هذا العالم الدقيق صورة أخرى.

ولن نأتي بهذه الصورة من عندنا أنفسنا، بل من أقوال الفلكي الإنجليزي «سير جيمس جنز» الذي ينطق بهذه العبارة المثيرة «لقد بدأ الكون يلوح أكثر شبها بفكر عظيم منه بآلة عظيمة...».

ان الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها، بل في الطريقة التي تدور بها وتؤدي وظيفتها.

ان الروعة لا تكمن في ضخامة الآلة التي نراها، بل في الطريقة التي حبكت الموازنة والضبط والتقدير. ومن ثم يتجه الإعجاب إلى العقل الواضع، الحاسب قبل أن يتجه إلى أثره المحدود.

ولننظر إلى عقلنا الإنساني بين ما ننظر إليه من صنوف المخلوقات، ماذا نرى؟ إنه كائن ذكي قدير يبدو ويخفى في أدمغة الألوف المؤلفة من سكان الأرض الأحياء والراحلين، الذين وجدوا والذين سيوجدون، من أين تولد هذا العقل؟ من الماء والطين كأعشاب الحدائق.. هذا فرض مضحك ولا ريب، إنه نفحة من الخالق الأعلى وحده.

يقول «سير جيمس جنز».. يجب أن ننكر المقدمات التي يفترضها بعض النقاد من غير علم، فالكون لا يبيح لنا أن نصوره تصويرا ماديا، وسبب ذلك في رأيي أنه قد أصبح من المدركات الفكرية العميقة، أننا واجدون في الكون دلائل على قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك، ليس هو العاطفة أو الأخلاق، أو تقدير الجمال، ولكنه الرغبة في التفكير بطريقة، خير ما نصفها به انها رياضية (!) لأننا لا نجد الآن أصلح من هذا التعبير».

والعلامة الانجليزي معذور في وصف الإبداع الإلهي بهذا الأسلوب.

لقد راعه، وهو فلكي راسخ، أن يجد في نظام الشروق والغروب والدوران والانطلاق دقة تسجد علوم الرياضة في محرابها، فقال: «إن التفكير المشرف عليها تفكير علمي رياضي! بل إنه اعتبر العقل الانساني أثرا للعقل الكلي الذي توجد فيه، على شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيرا إلى شكل فكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا، ثم انتهى أخيرا إلى أن الآراء متفقة، إلى حد كبير في ميدان العلم الطبيعي إلى أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية» أي غير مادية، أي إلى الله الكبير المتعال، على هذا النحو يفكر علماء الكون الكبار، ويحكم أئمة العلم الحديث ورواده الأكابر ولذلك شعرت بسخرية أي سخرية عندما قرأت لصحافي كبير في بلادنا هذه الكلمة الغبية السمجة. «إن التقدم العلمي يوشك أن يجعل أخطر الوثائق العقائدية نوعا من البرديات القديمة التي حال لونها،

وبليت صفحاتها، وعدت عليها عوامل الزمن بالتعرية والتآكل، وأصبح من الضروري للابقاء على أثرها أن يخصص لها مكان في متاحف التاريخ».

قلت ما أوسع الفرق بين منطق العلماء ومنطق الجهلاء في تناول القضايا وارسال الأحكام. هل يمحى الإيمان كله بهذه السهولة؟

ولقد شعرت كذلك بسخرية، أي سخرية عندما رأيت كتابا بعنوان «العالم ليس عقلا» ألفه شخص ولد في نجد، وقضى أغلب عمره على قهوات القاهرة وبيروت، وتلقى أكثر علمه من الأوراق الشاحبة التي يسطرها بعض المعلولين والمعقدين!

هذا المسخ الذي لم يعمل يوما في مرصد ولا مختبر للكيمياء أو الفيزياء، ينكر الألوهية، ويسفه النتائج التي وصل إليها أمثال انشتين من قادة المعارف الكونية، طبعا لأنهم رجعيون وهو تقدمي، ولأنهم قاصرون وهو نابغة..!

ولست أتهم كل ملحد بأنه صورة للملحدين الصغار، فإن هناك بعض العلماء والفلاسفة - وإن كانوا قلة - تنكروا للإيمان وقواعده وغاياته، بيد أن المتتبع لأقوال هؤلاء يجزم بأن انتسابها إلى العلم تزوير جريء، فهم يخمنون ويفترضون ثم يبنون قصورا على رمال!

وقد قرأت لبعضهم كلاما عن بداية الخليقة يثير الضحك، فهم يزعمون أن العناصر في الأزل السحيق تفاعلت اعتباطا، وسنحت فرصة لن تتكرر بعد أبدا (!) فتكونت جرثومة الحياة! ثم أخذت تنمو وتتنوع على النحو الذي نرى.. وهذا كلام لا يصدر عن عقل محترم، ولا يصفه بأنه علم الا مخبول! وصدق الله العظيم ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ **(الكهف: ٥١)**.

أذكر أني - وأنا أناقش بعض الأدلة- سألت نفسي هذا السؤال: هل أنا كائن قديم أم مخلوق جديد؟ فكان الجواب القاطع: لقد ولدت سنة كذا،

فأنا حادث بلا ريب! ولكن شبهة ثارت تقول: انك تخلقت من مادة الذين هلكوا قبلك، وعندما تموت فستكون أجساد أخرى منك ومن غيرك! فقلت إذا أسلمت بهذا في الأجساد فلن أسلم به في روحي أنا.. إن هذه «الأنا» المعنوية هي حقيقتي الكبرى، وأنا مستيقن بأني كائن جديد مستقل، وجدت بعد عدم محض، فمن أبرزني من لا شيء؟

انني لست معتوها حتى أشك في بداية وجودي وشعوري، فمن رب هذه المنحة الخطيرة؟ فتلوت قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا[1] ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (**الإنسان: ١، ٢**).

وعدت إلى قصة الجسد الذي أحمله في حياتي وأنضوه بعد مماتي، هل هو قديم المادة حقا؟ فسألت العلم: كيف يوجد؟ وهل يمكن أن يتمثل بشرا سويا هكذا عشواء؟ فقال العلم: إن الوليد يتخلق أول أمره من التقاء الحيوان المنوي بالبويضة! فما الحيوان المنوي؟ كائن دقيق توجد في الدفقة الواحدة منه قرابة مائة مليون حيوان، كل واحد من هذه الآلوف المؤلفة يمثل الخصائص المعنوية والمادية للإنسان من الطول أو القصر، والسواد أو البياض، والذكاء أو الغباء. والحدة أو الهدوء... إلخ، ويبدأ التكون الانساني بوصول واحد - لا غير - من هذه الألوف الكثيفة إلى البويضة وتفنى البقية، قلت: فلأقف عند نقطة الابتداء هذه لأسأل: من الذي صنع هذه الحيوانات السابحة في سائلها، الحاملة لخصائص السلالة الآدمية من أجيال خلت؟ قالوا غدة في الجسم! قلت: غدة أوتيت الذكاء والوعي والاقتدار على خلق مائة مليون كائن من طراز واحد! مجموعة دراهم من اللحم تتصرف من تلقاء نفسها في صنع الذكاء أو الغباء، والحلم أو الغضب؟ ما يصدق ذلك إلا

---

(١) الاستفهام تقريري كما يقول العلماء، يعني قد أتى على كل امرئ وقت كان فيه عدما محضا، وهو الوقت السابق لميلادنا، فما كنا شيئا قط قبله، فمن استحيانا من ذلك الفناء؟

مغيب العقل! وتلوت قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨-٥٩) إننا أمام أدوات القدرة العليا، وهي تبرز مشيئة الخالق الجليل، وكأنها تقول لنا: إن الله للعالم ليس فيه شائبة غرابة! أليس يخلق في كل لحظة تمر ألوفا من الناس، وألوفا من الدواب وصنوفا من النبات، إن إبداع الخليقة ليس فلتة وقعت وانتهت، وأمست في ذمة التاريخ بحيث يستطيع المكابرون أن يجادلوا فيها.. لا.. إن الإيجاد من الصفر يقع أمام أعيننا كل يوم في عالم الأحياء، فلم هذا المراء؟

إن بديع السموات والأرض لا يزال يخلق في كل وقت وفي كل شبر صنوفا من الأحياء الدقيقة والجليلة، لا حصر لها، فكيف ينكر ما كان من خلق أول أو ما سوف يكون من بعث وجزاء؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (**العنكبوت: ١٩، ٢٠**).

ولنفرض، جدلا، أن بعض الناس يرى أن الفلك الدوار يجري في الفضاء، دون ضابط ولا رابط، وأن الوليد الخارج من ظلمات الرحم لامع العين، مورد الخد، مفتر الثغر، قد صنعه على هذا التقويم الحسن شيء ما في بطن الأم! لنفرض أن بعض الناس ركب رأسه وقال هذا الكلام.. فما الذي يجعل هذا الزعم السخيف يوصف بأنه علم وتقدمية على حين يوصف منطق الايمان بأنه جمود ورجعية؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

لقد آن الأوان لتهتك الأستار عن أدعياء التقدم الذين يمثلون في الواقع ارتكاسا إنسانيا إلى جاهلية عديمة الشرف والخير، مبتوتة الصلة بالعقل وذكائه والعلم وكشوفه.





(٢٤)

التضحية

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) يونيو (١٩٧١م)

قالوا: إن فترة الشباب أخصب مراحل العمر، وأجدرها بحسن الافادة وعظم الإجادة!

فهي القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.

وقد قرر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ **(الروم: ٥٤)**.

ومن ثم كان على المرء أن يقدم حسابا عاما عن حياته كلها، وحسابا خاصا عن طور الشباب وحده، فهو طور له خطره وأثره «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه،...».

والحق أن أمجاد المتفوقين، وأشواط الصاعدين إنما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عرامه وإقدامه في السبق والانطلاق على أن الشباب وإن اكتنفته من طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة، إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد! فهناك رجال تظل وقدة الشباب حارة في دمهم وإن أنافوا على الستين، لا تنطفئ لهم بشاشة، ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتر لهم همة.!

وهناك شباب يحبون حبوا على أوائل الطريق لا ترى في عيونهم بريقا، ولا في خطاهم عزما، شاخت أفئدتهم في مقتبل العمر، وعاشوا في ربيع الحياة لا زهر ولا ثمر!

ومن الأخطاء تصور الشباب قدرة جسد، وفتاء غريزة! إن الشباب توثب

روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

نعم إن فترة الشباب في حياة الإنسان هي أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الفائرة لكنها ليست عهد العافية المكتملة في البدن الناضج فقط، بل إنها- كذلك عهد النزعات النفسية الجياشة، يمدها الخيال الخصب، والرجاء البعيد.

والأمم تستغل في شبانها هذه القوى المذخورة، وتجندها في ميادين الحرب والسلم، لتذلل بها الصعب، وتقرب البعيد.

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم.

وقد راقبنا الثورات التي اشتعلت في أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام، فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها، وحملوا عبئها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع، يخطون مصارع الأعداء، ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء!

ولا يزال الشباب من طلاب وعمال وقود المحركات الحرة، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد، وقبلة المربين والمرشدين والزعماء الذين ينشدون مستقبلا أزكى لهذه الحياة.

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوي عليه من دلائل الإيثار والتفاني ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام، ومافقدت من أمجاد عظام.

فلا ينتهي هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبي الذي أخزانا في ديننا ودنيانا!

بيد أن هناك رجالا تأخرت بهم السن وذهبت عنهم سورة الشباب، وتكاثرت الصلات التي تربطهم بالدنيا، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد في

قلوبهم تمسك بالشباب المولي عن جلودهم وعظامهم، وتبقيه، بل تضاعفه في قلوب تنبض بالحق وتدفعه في العروق مع الدم، فإذا أنت ترى منها بأس الحديد، وجرأة الأسود، وترى رجالا تستهويهم المغامرة، ويطيرون إلى التضحية في سبيل الله أخف من الشباب الغض..

قد يقبل الشباب على المخاطرة وسبل البذل أمامه ميسرة، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها! وإن قتل لم تبكه امرأة أيم! ولا ولد يتيم! وخفة حمله من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب، أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت في دمه نوازع النجدة.. أما البطولة الفارعة فهي أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب في مناكب الأرض لرعايتها، ويسير في الحياة وهو موقر بأثقالها، غير أنه - وهو الزوج المحب والأب الرحيم، والراعي المسؤول- مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله، مخلص للدين الذي اعتنقه، مقدر للحقوق التي ارتبطت به.

فإذا أحس للإسلام طلبا سارع إليه ولباه بروحه، وماله، ولم تشغله أعباء الحياة التي يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التي آمن بها.

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبدالله بن حرام، يرى في قصته جلالا تنحني له الجباه.. إعزازا للأبوة الرقيقة التي جادت بنفسها، واستودعت الله أسرة من غلام واحد وست بنات!

روى أبوداود والنسائي عن جابر بن عبدالله قال: «خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يقاتلهم، وقال لي أبي: يا جابر عليك أن تكون في نظاري أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا، فإنى والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي، قال: فبينا أنا في الناظرين! جاءت عمتي بأبي وخالي، عادلتهما على ناضح! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم في مصارعهم، فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا...»

وروى البخاري عن جابر أيضا: «لما حضر أحد- يعني القتال عند الجبل وفوقه- دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله! وإن عليّ ديناً، فاقضه واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا.. وكان أول قتيل».

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصد هجوم المشركين على المدينة تاركا وراءه هذه الأسرة الكبيرة وقوامها كما رأيت بنات يحتجن إلى الكافل الحاني، ولم يكن أبوهن ذا بسطة في المال ينفق منه عن سعة، ويترك لعقبه من بعده ما يغني ويصون، بل كان الرجل مهموما بشؤون الرزق، ينصب فيه ويستدين، وغلام فرد إلى جوار ست بنات يكون غالبا قرة عين الوالد وموضع حبه العميق، لكن عبدالله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد في سبيل الله وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن للبنات يخدمهن، فإن ابنه لو قتل قبله، فلن تطول بالأب الحياة.

إنه لا بد مقتول في أقرب معركة.

إن أصحاب المبادئ سراع إلى تلبية مبادئهم! عندما يقرع باب، الكريم ينهض ويقول:

فقمت ولم أجثم مكاني ولم تقم — مع النفس علات البخيل الفواضح

وعندما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها، وينطلق وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (**طه: ٨٤**).

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الاسلام.. وروى الشيخان عن جابر قال: أصيب أبي يوم أحد فجعلت أكشف عن وجهه وأبكي! وجعلوا ينهونني، والنبي ﷺ لا ينهاني، وجعلت فاطمة بنت عمرو -رضي الله عنه- تبكيه! فقال ﷺ: تبكينه أو لا تبكينه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه!

وروى الترمذي عن جابر قال: لقيني رسول الله مرة وأنا مهتم، فقال: ما لي أراك منكسرا؟ فقلت: استشهد أبي يوم أحد، وترك عيالا ودينا، فقال: ألا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قلت بلى، قال ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وإنه أحيا أباك فكلمه كفاحا، فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك! قال: يارب تحييني فأقتل ثانية! فقال سبحانه وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم لا يرجعون: فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا...﴾ **(آل عمران: ١٦٩)**.

والمرء يحار، أيعجب من كرامة الشهيد على الله؟ أم حلاوة الفناء في الله التي ذاقها أولئك الشهداء؟

إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده، بل تطلع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرة أخرى عن أحب شيء فيها، ويتمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال!

ولقد كفل الله أولاد الشهيد، وقضى عنه دينه في حديث يطول.

ولندع حديث الصدر الأول ونستأنف حديث الأشياخ المجاهدين في عصرنا هذا، إننا واجدون رجالا من طراز رائع، صنعهم الإسلام القوي فأحكم صناعتهم، وقذف بهم على جند الباطل فجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.. من أولئك النفر الغر عمر المختار.. البطل الذي بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطاردا «الطليان» الذين أغاروا على طرابلس، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار، وفيه يقول شوقي:

بطل البداوة لم يكن يغزو على ... «تنك» ولم يك يركب الأجواء

لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاء

وقد وقع الشيخ المهيب في أسر الأعداء، فألفوا محكمة قضت بقتله

شنقا! والمستعمرون قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة لا مع صديق ولا مع خصم، وقد ندد شوقي بهذا الحكم الشائن فقال:

خفيت على القاضي وفات نصيبها   من رفق جند قادة نبلاء

تسعون لو ركبت مناكب شاهق   لترجلت هضباته اعياء

ويقول:

شيخ تمالك سنه، لم ينفجر-   كالطفل- من خوف العقاب بكاء

الأسد تزأر في الحديد ولن ترى   في السجن ضرغاما بكى استخذاء

ثم يخاطب الشعب طالبا منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ فيقول:

فأرح شيوخك من تكاليف الوغى   واحمل على شبانك الأعباء

على أن منطق اليقين لا يكترث بفوارق السن، فإن العقيدة المتفجرة في القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتيانا نشيطين، أما إذا تخلخل الإيمان فإن الشاب الجلد يمسي حلس منفعة تافهة مهينة!

والدعوات العظيمة لا تضار بشيء مثل ما تضار بهذا الصنف من المتلونين المتطلعين، الصنف الذي يحاذر أن يمسه سوء ويسارع إلى إحراز الغنائم، ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات، أما قلبه فهو بعيد بعيد.. الصنف الذي صور القرآن موقفه النابي المريب في هذه الآيات:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (**النساء: ٧٢، ٧٣**).

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة وصاحب رسالة إذا بنى حياته في حساب الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر.

ربما كان الرجل خالي البال لا يتبع أهلا ولا مالا، فهو يهز كتفيه لما تفد به الليالي من أحداث، أفإذا بلي بأثقال الفضائل ألقى بها في عرض الطريق، وأضحى لا يهدأ أو لا يهيج إلا لمنافعه الخاصة؟

كذلك فعل المنافقون قديما! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ...﴾ **(الفتح: ١١، ١٢)**

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة، أو مقامرة بعيدة الربح، فنكصوا وأفئدتهم صفر من معاني اليقين والتضحية التي تجعل الشهيد يقبل على الموت، ويود لو يرد إلى الحياة ليموت مرة أخرى.

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف!

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ ...﴾ **(الفتح: ١٥)**.

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب، أو تتدخل في نياتهم هذه المنافع:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ **(المنافقون: ٩)**.

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة، ومن مماتهم عبرة، ومن مسلكهم مع أهليهم وأموالهم أسوة حسنة.





(٢٥)

حدود التشريع في الإسلام ومكانة الاجتهاد فيه

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) سبتمبر (١٩٧١م)

ما هي حدود التشريع في الإسلام؟ وما هي مكانة الاجتهاد فيه؟ إذا أردنا معرفة ذلك، فلا بد أن نكون، قبل كل شيء، على ذكر بين من أمرين:

أولهما: أن الحاكمية في الإسلام مختصة بالله وحده، لا يشاركه ولا ينازعه فيها غيره، ذلك بأن التوحيد، كما فسره القرآن يستلزم أن يكون الله وحده هو المعبود بالمعنى الديني المعروف، ليس ذلك فحسب، بل يستلزم أن يكون الله وحده هو الحاكم المطاع، والآمر والناهي، والشارع بالمعنى السياسي والقانوني أيضا، وهذه الحاكمية القانونية قد أبدأ القرآن وأعاد في بيانها بمثل القوة والجزم الذي يبين به عقيدة الألوهية الدينية، وأكد كل التأكيد أن كلا من هاتين المنزلتين من المقتضيات اللازمة لألوهية الله تعالى لا يجوز فصلها عن الأخرى بحال من الأحوال، وقرر بما لا مجال فيه للارتياب والشك أن إنكارها إنكار لألوهية الله، ثم إن القرآن لم يترك أي منزع لشبهة أن يراد بالقانون الإلهي قانون الطبيعة والفطرة، وجعل من واجب الإنسان، إذ يدعوه إلى التوحيد، أن يعترف في حياته الخلقية والاجتماعية بذلك القانون الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله، بل إن الإيمان بهذا القانون، وبتجرد الإنسان عن استقلال نفسه وحرية ذاته إزاءه هو الذي يسميه القرآن بالإسلام ويأبى- بأوضح ما يكون من البيان- أن يكون للإنسان حق في أن يقضي برأيه شأنا من شؤون حياته إذا كان قد قضاه الله ورسوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾**(الأحزاب: ٣٦)**.

وثانيهما، وهو لا يقل في أهميته في الإسلام عن توحيد الإله- هو أن

محمدا ﷺ آخر رسل الله وخاتم أنبيائه، وهذا ما تخرج به عقيدة توحيد الإله من حيز الفكرة المجردة فتبرز بشكل نظام عملي ويقوم على أساسها بناء نظام الإسلام الشامل للحياة الإنسانية، ذلك بأنه قد اجتمعت بموجب عقيدة الإسلام تعاليم جميع الأنبياء السابقين مع زيادة تعاليم مهمة أخرى في تعليم محمد ﷺ، فهو وحده المصدر الموثوق به لهدى الله وتشريعه، ولن يأتي من الله بعده هدى أو تشريع يحتاج الإنسان أن يرجع إليه، وتعليم محمد ﷺ هو القانون الأعلى الذي يمثل للناس مرضاة الحاكم الأعلى، وقد وصل إلينا على صورتين:

القرآن: وهو كلام الله لفظا ومعنى ويشتمل على أحكامه وأوامره ونواهيه،

والسنة: أو الأسوة الحسنة لمحمد ﷺ «وهي التي تبين غاية القرآن وتشرح مقصد نزوله».

ما كان محمد ﷺ مبلغا لكتاب الله فحسب، بل كان من وظيفته مع ذلك أن يكون إماما للناس وقائدا وحاكما ومعلما ومرشدا، يشرح لهم القانون الإلهي بقوله وعمله، ويخبرهم بغايته الحقيقية ويربيهم على مطالبه ومقتضياته، ويعمل على تشكيلهم في صورة جماعة منظمة، ويري العالم كله، في قالب دولة راشدة مرشدة، كيف يقوم على مبادئ الإسلام نظام حضارة متكاملة راقية، وأن هذه المهمة التي اضطلع بها الرسول ﷺ طوال حياته النبوية (٢٣ سنة متوالية) هي السنة التي باشتراكها واجتماعها مع القرآن يكتمل القانون الاعلى من الحاكم الأعلى لرعيته في الأرض، وأن هذا القانون الأعلى هو المعروف «بالشريعة» في المصطلح الإسلامي.

حدود التشريع

وقد يظن الإنسان لأول سماعه بهذه الحقائق الأساسية أن الدولة الاسلامية لا مجال فيها أصلا لتشريع الإنسان، إذ إن الله هو الشارع الوحيد فيها، ولا وظيفة فيها للمسلمين سوى أن يتبعوا ما جاءهم به الرسول

من قانونه، بيد أن الحقيقة أن الإسلام لا ينافي تشريع الإنسان وإنما يحيطه بسياج من القانون الإلهي ويحده بعلوه، أما ما هي دائرة تشريعه تحت القانون الإلهي الأعلى وفي ضمن حدوده، فهذا ما أريد بيانه في هذه الكلمة متوخيا الايجاز والاختصار.

تفسير الأحكام

منها ما قد جاء فيه القرآن والسنة بحكم قاطع واضح، أو وضعا له قاعدة خاصة فليس لفقيه ولا لقاض ولا لمجلس تشريعي أن يغير في مثل هذه المعاملات والشؤون أحكام الشريعة وقواعدها، وليس معنى ذلك أنه لا مجال مع هذه الأحكام لتشريع الإنسان، بل إن دائرة تشريع الإنسان فيها أن يعرف أولا بكل دقة ما هي أحكام الشريعة في واقع الأمر ويحدد ثانيا مفهوم تلك الأحكام، ويتبين لأي الحالات والوقائع هي، وتقرر أخيرا صور تطبيقها على القضايا الطارئة الحاضرة وتفاصيلها الفرعية إن كان فيها المجال، والذي يجب أن يشخص مع كل ذلك هو أين وإلى أي حد يجوز للإنسان التشريع للأحداث والوقائع الاستثنائية على ألا يصطدم مع أحكام الشريعة وقواعدها.

القياس

ومنها ما لم تأت فيه الشريعة بحكم، ولكن لها أحكام في أمثاله وأشباهه فالتشريع في مثل هذه الشؤون والمعاملات يكون بأن تعرف علل الأحكام بدقة تامة وتنفذ في كل شأن توجد فيه تلك العلل ويستثنى منها كل شأن لا توجد فيه تلك العلل.

الاستنباط

ومنها ما لم تأت فيه الشريعة بحكم صريح، ولكن جاءت فيه وفي أمثاله بقواعد جامعة أو أظهرت مرضاة الشارع عنه، فيجب العمل على تنميته وترقيته وما هو مبغض عنده يجب العمل على محوه واستئصاله، فالتشريع

في مثل هذه الشؤون والمعاملات يكون بأن يعرف ما جاء فيها من قواعد الشريعة ومرضاة الشارع، ويوضع في القضايا العملية الحاضرة من القوانين ما يقوم على هذه القواعد ويحقق مرضاة الشارع.

دائرة التشريع بحرية الرأي

ومنها ما سكتت الشريعة في بابه سكوتا تاما، فلا جاءت فيه بحكم صريح، ولا بهداية في أمثاله وأشباهه حتى يقاس عليها، فلا معنى لسكوت الشريعة في مثل هذه الشؤون إلا أن الحاكم الأعلى بنفسه قد أجاز الإنسان أن يقضيها برأيه، فالتشريع جائز فيها للإنسان بكل حرية على أن يكون موافقا لروح الإسلام وقواعده العامة، وألا تختلف طبيعته عن طبيعة الإسلام الشاملة حتى يلتئم أحسن التئام مع نظام الإسلام للحياة.

الاجتهاد

وكل هذا العمل التشريعي الذي يحرك نظام الإسلام للقانون ويرقيه حتى يلبي حاجات البشر ويجاري تطورات الزمان، لا يمكن أن يتم إلا بتحقيق علمي وخاص وبذل للقوة الذهنية على صفة غير عادية، وهو المعروف بالاجتهاد في المصطلح الإسلامي.

والاجتهاد معناه لغة بذل الجهد واستنفاده، والمراد به اصطلاحا بذل الجهد واستنفاده في استجلاء حكم الإسلام أو مقصوده في القضية تحت البحث، وقد يخطئ بعض الناس ويفسرون الاجتهاد بمعنى التمتع بحرية الرأي دونما قيد أو شرط، على أن كل من له أدنى إلمام بطبيعة القانون الإسلامي ومزاياه لا يكاد يذهب به سوء الفهم إلى أن فيه مجالا لهذا النوع من الاجتهاد لأن القانون الحقيقي في الإسلام هو القرآن والسنة، ولا يجوز التشريع فيه للمسلمين إلا بشريطة أن يكون مأخوذا من هذا القانون الحقيقي أو في ضمن الحدود التي يبيح لهم أن يتمتعوا فيها بحرية رأيهم،

فكل اجتهاد لا يستند إلى أحكام الشارع الحقيقية ولا يتقيد بحدودها ليس من الاجتهاد الإسلامي في شيء ولا مكانة له في نظام الإسلام القانوني.

الأوصاف اللازمة للمجتهدين

ولأن الاجتهاد ليس المقصود به إحداث الثلم في القانون الإلهي ليستبدل به القانون الإنساني، وإنما المقصود به فهم القانون الإلهي فهما دقيقا وجعل نظام الإسلام القانوني ملبيا لحاجات البشر مجاريا لتطور الزمان تحت هدايته وإرشاده، فلا يصح أي اجتهاد إلا بأن يكون المتولون لمهمته على جانب عظيم من الصفات الآتية:

١ - الإيمان بالشريعة الإلهية، والإيقان بكونها الحق، والعزيمة الخالصة لاتباعها، وخلو الذهن والفكر من الرغبة في التحلل من حدودها وقيودها وعدم أخذ الغايات والمبادئ من مصدر غير مصادرها.

٢ - الإلمام الجيد باللغة العربية وقواعدها وأساليب أدبها، لأن اللغة العربية هي التي بها نزل القرآن ولا يتسنى معرفة السنة إلا بها.

٣ - التضلع بعلم القرآن والسنة حتى لا يعرف به الإنسان أحكام الشريعة الفرعية ومواضعها فحسب، بل يفهم أيضا قواعدها الكلية وغاياتها معرفة جيدة.. يجب أن يعرف المجتهد ما هي خطة الشريعة لإصلاح الحياة الإنسانية بأجمعها، ويعرف إلى جانب ذلك ما هي مكانة كل شعبة من شعب الحياة في هذه الخطة الجامعة الشاملة، وما هي الخطوط التي تريد الشريعة أن تؤسس عليها مختلف شعب الحياة، وما هي المصالح التي ترمي إليها في تأسيسها أو بكلمة موجزة: إن الاجتهاد شيء يتطلب من الإنسان علما بالقرآن والسنة يوصله إلى مغزى الشريعة وجوهرها.

٤ - الوقوف على تراثنا القانوني الذي ورثناه عن فقهاء السلف، والحاجة إليه ليست للتدريب على الاجتهاد فحسب، بل هي كذلك لاستمرار الارتقاء القانوني لأنه ليس- ولا يسوغ أن يكون - المقصود بالاجتهاد أن

يهدم كل جيل جديد ما بناه سالفه أو يحكم عليه بالبلى ويشرع في بنائه من جديد.

٥ - التخلق بالأخلاق الفاضلة حسب مقياس الإسلام للأخلاق، لأنه لا يمكن بدونه أن يطمئن عامة الناس إلى اجتهاد المجتهدين ولا أن تنشأ في قلوبهم عاطفة الاحترام للقانون إذا كان قد قام بوضعه الأفراد غير الصالحين.

ليس المطلوب ببيان هذه الأوصاف أن على كل مجتهد أن يثبت بدلائل على كونه متصفا بها، بل المطلوب ببيانها أنه لا يمكن بالاجتهاد إنعاش القانون الإسلامي وترقيته على الخطوط الصحيحة، إلا بأن يكون نظامنا لتعليم القانون صالحا لإعداد رجال من ذوي العلم متصفين بهذه الأوصاف والأخلاق المذكورة، وكل تشريع بدون ذلك لا يمكن أن يتفق مع نظام الإسلام القانوني ولا أن يستسيغه مجتمع المسلمين.

الطريق الصحيح للاجتهاد

وكما أن قبول الأمة شيئا من الاجتهاد والتشريع يتوقف على أن يكون المجتهدون صالحين للاجتهاد، فكذلك هو يتوقف على أن يكون اجتهادهم بطريق صحيح يطمأن إليه، فالشريطة الاولى للاجتهاد الصحيح - سواء أكان تفسيرا لحكم أو قياسا عليه أو استنباطا منه - أن يكون مبنيا على دلائل من القرآن والسنة، وأما إذا كان التشريع في دائرة المباحات فعلى المجتهد أن يأتي بالدلائل على أنه لا القرآن ولا السنة قررا حكما أو قاعدة في القضية، ولا جاء في أحدهما أساس للقياس فيها، ويجب أن يكون الاستدلال بنصوص القرآن والسنة قائما على قاعدة من القواعد المسلم بها بين أهل العلم، فإذا أراد المجتهد أن يستدل بالقرآن، فعليه ألا يفسر كل آية إلا بما تسمح به اللغة العربية وقواعدها وأساليبها المعروفة، ويتفق مع سياق عبارة القرآن، ولا يصطدم مع بيانات القرآن عن الموضوع نفسه

في مواضع أخرى، وتؤيده شروح السنة القولية والفعلية أو لا تعارضه على الاقل، وإذا أراد أن يستدل بالسنة الفعلية - مع رعاية اللغة وقواعدها وسياق العبارة- ألا يستدل في مسألة ما إلا بروايات صالحة لقيام الحجة بها حسب أصول علم الرواية، ولا يغفل ما في تلك المسألة الخاصة من الروايات القوية الأخرى ولا يستنتج من رواية ما يخالف الكتاب والسنة الثابتة بالطرق القوية الأخرى، وكل اجتهاد لا تراعى فيه هذه الأمور ولا يقوم إلا على أساس أهواء النفوس ورغباتها وأمانيها، فإنه لو جعل جزءا من القانون بالقوة السياسية، لن يقبله ضمير المسلمين الاجتماعي، ولن يكون جزءا من نظام الإسلام القانوني، إنه يبقى جزءا من القانون ما دامت القوة السياسية التي تنفذه آخذة بزمام نظام الحكومة ثم لا يكون محله مع زوالها إلا إلى سلة الأوراق المهملة.

كيف ينال الاجتهاد درجة القانون؟

ونظام الإسلام للقانون فيه عدة صور لنيل اجتهاد فرد أو طائفة درجة القانون فمنها أن ينعقد عليه إجماع أهل العلم من الأمة، ومنها أن يتلقاه الجمهور بالقبول كما قد تلقوا الفقه الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي في غير واحد من البلاد الإسلامية، ومنها أن تتبناه حكومة من حكومات المسلمين وتجعله قانونا لنفسها، ومنها أن يكون في الدولة مجلس للتشريع حسب الدستور فيسن القانون باجتهاده، أما اجتهاد مختلف أهل العلم علاوة على هذه الصور، فهو بمثابة الفتوى لا أكثر، وأما أقضية القضاة في المحاكم فهي- على نفاذها فيما يرفع إليهم من الدعاوى وكونها بمثابة النظائر والأشباه - لا تكون قانونا بالمعنى الصحيح، حتى إن أقضية الخلفاء الراشدين لم تنل درجة القانون في الإسلام ممن صدرت عنهم بصفتهم قضاة في المحكمة.

إني سأحاول في ختام هذا البحث أن أجيب - بأقصى ما يمكن من الإيجاز - على ما يمكن أن يثار حوله من اعتراضات: فالاعتراض الأول هو على المكانة التي بينتها للسنة مع القرآن في التشريع الإسلامي، فأريد- جوابا على هذا الاعتراض- أن أقدم إليكم أمورا، حتى تتضح لكم القضية وذلك بالترتيب الآتي:

أولاً - إن من الحقائق التاريخية الثابتة التي لا تقبل الإنكار والجحود أن الرسول ﷺ ما كان قد اكتفى- بعد أن اكرمه الله تعالى برسالته- بتبليغ الناس القرآن بتلاوته عليهم، بل كان مع ذلك قد قام بحركة شاملة، ظهر كنتيجة لها، مجتمع إسلامي خالص ونظام جديد للمدينة والحضارة وقامت دولة واسعة في بلاد العرب، فالسؤال الذي ينشأ في هذا الصدد: ان جميع هذه الأعمال التي قام بها الرسول عليه الصلاة والتسليم، علاوة على تبليغ القرآن بتلاوته على الناس، بأي صفة وعلى أي اعتبار كان قد قام بها؟ هل كان قيامه بها من حيث كان رسولا من الله، ممثلا لمرضاته، مثل تمثيل القرآن إياها، أم إنما كانت رسالته تنتهي بمجرد تلاوته ما ينزل عليه من القرآن حتى لم يكن بعدها إلا رجلا عاديا من عامة المسلمين، حيث لا حجة بقوله ولا عبرة بفعله في حد ذاته من الوجهة القانونية؟ فإذا سلمنا بالصورة الأولى، فلا بد لنا أن نسلم بالسنة حجة قانونية مع القرآن، وأما في الصورة الثانية، فلا مبرر البتة لجعلها من القانون.

ثانيا - أما القرآن فيبين لنا بيانا واضحا شافيا لا لبس فيه ولا إبهام، أن الرسول ﷺ، ما كان مبلغا لما ينزل عليه من القرآن فحسب، بل كان- مع ذلك- إماما للناس وحاكما ومعلما يجب على المسلمين أن يتبعوه ويطيعوه على المنشط والمكره ويعتبروا حياته أسوة لأنفسهم.

وأما العقل، فيأبى كل الإباء أن يعترف بقول من يقول إن الرسول إنما هو رسول لحد تبليغه للناس كلام ربهم، وما هو بعد ذلك إلا رجل مثل سائر

الرجال، أما المسلمون منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا، فما زالوا ولا يزالون مجمعين على الاعتقاد بأن حياة الرسول ﷺ أسوة واجبة الاتباع، وأن كل أمر من أوامره ونهي من نواهيه يجب الوقوف عنده، إن هذه هي العقيدة التي ما زال ولا يزال عليها المسلمون، ولا يسع مسلما أن يجحد بأن هذه هي مكانة الرسول التي آمن بها المسلمون في كل مكان وفي كل زمان، وأنهم لأجل هذا ما زالوا يسلمون بسنته مصدرا أساسيا لقانونهم مع القرآن، وليت شعري كيف يجوز لرجل في هذا الزمان أن يتحدى هذه المكانة للسنة ما دام لا يعلن إعلانا واضحا سافرا أن محمدا ﷺ إنما كان نبيا إلى حد تبليغه القرآن، حيث كانت نبوته تنتهي بمجرد فراغه من تلاوته على الناس ثم إن هذا الرجل- اذا كان يدعي ذلك- عليه أن يبين إن كان يعطي الرسول هذه المكانة من عند نفسه أو إن القرآن هو الذي قد أعطى الرسول هذه المكانة؟ أما في الصورة الأولى فلا علاقة له بالإسلام أبدا وأما في الصورة الأخرى، فعليه أن يستدل بنص من نصوص القرآن.

ثالثا - والسؤال الذي ينشأ بعد تسليمنا بالسنة مصدرا أساسيا للقانون في حد ذاتها هو ما هي الوسيلة لمعرفة السنة؟ فأقول جوابا على هذا ان ليس لأول مرة قد واجهنا السؤال بأن السنة، التي تركتها في الدنيا تلك الرسالة التي كانت قد ظهرت في بلاد العرب قبل ألف وخمسمائة سنة، ماذا كانت هي؟ فهناك حقيقتان تاريخيتان لا تقبلان الإنكار أو المكابرة أولاهما أن المجتمع الذي تأسس على تعليم القرآن وسنة الرسول ﷺ منذ بدء الإسلام، لا يزال حيا قائما إلى هذا اليوم وما فارقته حياته ليوم واحد، وما زالت جميع مؤسساته طيلة هذه المدة قائمة بأعمالها بصفة غير منقطعة وأن التشابه الذي يوجد اليوم بين المسلمين في جميع أقطار الأرض على تباعدها في عقائدهم وأساليب فكرهم وأخلاقهم وقيمهم وعباداتهم ومعاملاتهم ونظريتهم في الحياة وطريقتهم لها، إن هذا التشابه أو التماثل بين المسلمين الذي يغلب فيه عنصر التوافق والتطابق على عنصر التخالف

والتفارق، لهو دليل واضح، وبرهان قاطع على أن المجتمع إنما أقيم على سنة واحدة بعينها، وأن هذه السنة ما زالت جارية في مجراها بصفة واحدة بدون انقطاع ولا توقف وأن هذه السنة ليست بشيء مفقود حتى نحتاج للبحث عن آثارها إلى التخبط خبط عشواء في الظلمات.

والحقيقة التاريخية الثانية، التي لا تقل عن الأولى في جلائها وسطوعها، هي أن المسلمين ما زالوا في كل زمان بعد الرسول ﷺ يبذلون سعيهم ليعرفوا ما هي السنة الثابتة، وما هو الشيء الأجنبي الذي يحاول التسرب إلى نظامهم للحياة بطريق صناعي؟ وبما أنهم كانوا يرون في السنة مصدرا لقانونهم وما كانت تحكم محاكمهم إلا بها ولا كانت تجري شؤون حياتهم- من شؤون بيوتهم إلى شؤون حكوماتهم- إلا على أساسها، فما كان لهم بوجه من الوجوه، أن يكونوا من الغافلين غير المكترثين لشيء في تحقيقها، فما زال كل جيل منا- منذ خلافة الإسلام الأولى إلى هذا اليوم- يرث عن سالفه وسائل هذا التحقيق ونتائجه ولا يزال محتفظا به عندنا اليوم كل عمل تم على يد جيل من أجيالنا الماضية بدون انقطاع ولا ضياع.

فهاتان الحقيقتان التاريخيتان إذا تأمل فيهما الإنسان ودرس ما اتخذ من الوسائل لنقل السنة دراسة علمية وافية، لا تكاد تساوره الشبهة بأن قضية تحقيق السنة ووسائل معرفتها معضلة لا يمكن أن يوجد لها حل.

رابعا - لا شك أن قد ظهرت في الماضي، ويجوز أن تظهر في المستقبل كذلك، اختلافات كثيرة في المسلمين حول تعيين المعنى لكثير من أحكام القرآن وآياته، فإذا كان لا يجوز أن يكون وجود مثل هذه الاختلافات دليلا على ترك القرآن، فكيف يجوز أن يكون دليلا على ترك السنة؟ من القواعد التي ما زال يعترف بها من قبل ولا بد من الاعتراف بها اليوم أيضا، أن كل من يدعي شيئا أنه من أحكام القرآن أو أحكام السنة، عليه أن يأتي بدليل على دعواه، فإن كانت دعواه قوية، فلا بد أن ترغم أهل العلم من الأمة أو

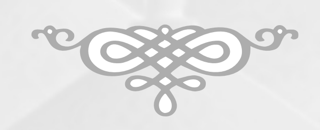
عددا كبيرا منهم على الأقل، على الاعتراف بصحتها، وأما إن كانت دعواه بدون وزن باعتبار الدليل، فلا تنال رواجا في الأمة أبدا، وهذه هي القاعدة التي على أساسها قد اجتمع عشرات الملايين من المسلمين في مختلف أقطار الأرض على مذهب من المذاهب الفقهية وأقامت جماعات كبيرة منهم نظامها الاجتماعي على طريق من الطرق لتفسير أحكام القرآن ومجموعة من مجامع السنة الثابتة.

هذا هو جوابي على الاعتراض الأول، أما الاعتراض الثاني على مقالي، فهو أن فيه التناقض أي أن قولي «أن ليس لفقيه ولا لقاض ولا لمجلس تشريعي أن يغير في أحكام الكتاب والسنة القاطعة» وقولي «إنه يجب أن يشخص بصدد تفسير الأحكام أنه أين وإلى أي حد يجوز للإنسان التشريع للحالات والوقائع الاستثنائية على ألا يصطدم مع أحكام الشريعة وقواعدها»، فهذان القولان بينهما التناقض في نظر المعترض، غير أني ما استطعت أن أجد بينهما هذا التناقض، لأن الدنيا لا يوجد فيها قانون، إلا وفيه الاستثناء من القاعدة العامة في حالة الاعتذار والاضطرار، وأن القرآن نفسه فيه غير نظير واحد لمثل هذه الرخص والاستثناءات، وأن الفقهاء قد حددوا القواعد التي لا بد من رعايتها في تعيين الرخصة ومواقعها، كقاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» وقاعدة «إن المشقة تجلب التيسير». والاعتراض الثالث على جميع أولئك الذين قد بينوا في مقالاتهم شرائط للاجتهاد والمجتهدين، وبما أني واحد من هؤلاء، أرى من الواجب على نفسي أن أقوم بالرد على هذا الاعتراض.

فالذي يحسن بي- في هذا الصدد- أن أطالب المعترض بأن يتفضل ويعيد النظر مرة أخرى فيما بينت في مقالي من الشرائط، ويبين أي هذه الشرائط يريد إسقاطه، أشرط أن يكون المجتهد مؤمنا بالشريعة الإسلامية وموقنا بكونها الحق، أم شرط أن يكون ملما باللغة العربية وقواعدها وأساليب أدبها، أم شرط أن يكون متضلعا من علم القرآن والسنة، أم شرط

أن يكون واقفا على تراث الأمة القانوني الذي ورثناه عن فقهاء السلف أم شرط أن يكون مطلعا على أحوال الحياة العملية، أم شرط أن يكون متخلقا بالأخلاق الفاضلة حسب مقياس الإسلام للأخلاق؟ - هذه هي الشرائط التي بينتها في مقالي، فليتكرم المعترض ويبين بالتحديد أي شرط من هذه الشرائط يجب حذفه، أما القول بأنه لا يمكن أن يوجد في الدنيا كلها إلا عشرة أو أحد عشر رجلا يعتبر أهلا لمثل هذه الشرائط، فإني لا أرى هذا القول إلا مبالغة شنيعة في سوء الظن بمسلمي الدنيا.

ولعلنا لم ننل الانحطاط حتى في نظر أعدائنا إلى درجة ألا يروا من بين مسلمي الدنيا كلها إلا عشرة أو أحد عشر رجلا متصفين بهذه الصفات اللازمة للاجتهاد، وأقول إنكم إذا كنتم متشوقين إلى فتح باب الاجتهاد لكل زيد وعمرو، فافتحوه على الرأس والعين، ولكن بينوا لي على الأقل أن الاجتهاد الذي سيتولاه الجهال بالإسلام، غير المتقيدين بالأخلاق، غير المخلصين في إرادتهم، المشبوهين في نياتهم، ماذا ستعملون لجعل اجتهادهم شرابا عذبا فراتا يستسيغه جمهور المسلمين؟



(٢٦)

العلم يدعو للإيمان

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) أكتوبر (١٩٧١م)

إلى متى يظل الإنسان منطلقا في هذه الحياة كالقذيفة الطائشة، لا يدري كيف يسير، ولا إلى أين المصير؟

وإلى متى يبقى مندفعا بقواه المذخورة وأهوائه المحصورة حتى إذا نفدت قوته وبطلت حركته سقط حيث طاشت به مطارح الدنيا؟

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ **(الحج: ٣١)**.

عجبت لقوم ينكرون الله، ويجحدون مبتداهم منه ومنتهاهم إليه!

وأعجب من ذلك أن يتوسلوا إلى إلحادهم بالعلم! العلم الذي هو نهج الإيمان بالحق، ودليل الوجود الأعلى!

فإذا ذهبت تتعرف شبههم وجدت إما قصورا في العلم يلحق صاحبه بالجهال، وإما غرورا بأدنى الحظوظ منه.

والمغرور بالقليل يرسل أحكامه مبتسرة مضللة، لا وزن لها ولا معول عليها.

وفي بلادنا صنف من الناس ليس له زاد من المعرفة، إلا قراءات على هامش الأسفار الضخام التي كتبها العلماء الراسخون.

قابلت أحدهم يوما ما وما زلت أذكر الحوار العنيف الذي دار بيني وبينه! كان هذا المغفل يجادلني في وجود الله، ويسوق كلمات حفظها من نظرية النشوء والارتقاء، ويريد ليوهمني أن خلق الإنسان سوي المشاعر نابض الأجهزة لماح الذكاء أضحى عملا في مقدور العلم وأن معامل الكيمياء توشك أن تفاجئنا بهذا الاختراع!

فلما تحسست حصيلة هذا المجادل من علوم الكون والحياة وجدتها قشورا يسيرة، فاستغربت أن رجلا بضاعته حروف الهجاء في فن من الفنون يصطنع فيه درجة الإمامة التي تمحو وتثبت! وفي ماذا؟ في حقيقة الوجود الأعلى!

فاكتفيت بأن أكشف لهذا المغرور جهالته، ثم تركته، وعلى لساني قول الشاعر:

نجا بك عرضك منجى الذباب حمته مقاذيره أن ينالا!

وتذكرت قول الله تبارك تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ (**الحج: ٨، ٩**).

من الخرافات الشائعة، أن كثيرا من عظماء التاريخ لا أخلاق لهم، وأن كثيرا من علماء الكون لا إيمان لهم!

وأحسب أن ترويج هذه الخرافة بعض ما تلجأ إليه الشياطين في محاربة الإيمان والأخلاق، حتى تنشأ الأجيال الغضة وهي تحسب التحلل والتمرد أقصر الطرق إلى العبقرية والسمو!

والحق أن عرى الأخلاق هي التي صنعت ألوف الرجال، وأن الإيمان بالله حقيقة مقررة لدى جمهور العلماء الراسخين.

نعم قد تكون لدى هؤلاء العلماء رِيَبٌ في أغلب الديانات المشهورة أو فيها كلها، بيد أن العيب لا يرجع إلى أولئك العلماء الماديين قدر ما يرجع إلى أصحاب الأديان الذين شوهوا رسالات الله، إما بتحريف الكلم عن مواضعه، وإما بالأعمال الشائنة التي تضع من أقدار المتدينين، وما يحملونه من دين.

والقرآن الكريم لم يصم بالكفر إلا قوما تَكشّف لهم الحق فجحدوه، وعرض عليهم الدين كاملا فأزروا به وانتقصوه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (**محمد: ٢٥**) ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ...﴾ (**النساء: ١١٥**)

أقول ذلك بعدما انتهيت من مطالعة كتاب «العلم يدعو للإيمان» وموضوع الكتاب يفهم من عنوانه أنه تعريف بالخلائق يقودك إلى خالقها وشرح للكون ينتهي بك إلى باريه.

وهل للإيمان الذكي العميق نبع يجيش به إلا من هذه المطالعة الدارسة للحياة والأحياء؟ ولأمر ما قال الله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (**الأنعام: ٧٥**).

إن الإيمان لا ينمو في قلب، ويتخلل شعابه، ويغمر رحابه إلا بمدى ما يعي المرء من آيات الله في ملكوته.

ومسلك المؤلف العالم في كتابه هذا يقوم على عرض الحقائق المتيقنة عرضا لا أثر فيه للأوهام والفروض، ولا مكان فيه للمغيبات والنصوص.

إنه يحترم قوانين المنطق الحديث والفلسفة الحرة ويستهدي إلى غاياته طرقا لا يختلف على صحتها المؤمنون بما وراء المادة والجاحدون لها.

ولقد تابعته بعقلي كما تتبع العين الأشعة الكاشفة، وهي تنتقل من أقصى الأفق إلى أقصى الأفق، إن ثروة هذا الرجل في المعارف الكونية طائلة هائلة، وإنك لتعجب أهو أخصائي في الفلك أم في التشريح أم في الكيمياء أم في غيرها؟

ولا غرو فهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، فحديثه عن العالم الكبير الذي نعيش فيه، وعن القوانين الضابطة لسيره، وعن الأسرار الكامنة في

متونه وحواشيه حديث الخبير الراسخ المتأنق في سرده واحتجاجه!

والكتاب كله تفصيل مطرد متسق، لما أسماه علماء التوحيد عندنا بدليل الإبداع، وأساس هذا الدليل على وجود الله لفت النظر إلى ما في الكون من دقة وحكمة.

هل رأيت شريط السكة الحديد الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مثلا؟

إنه يربو على مائتي ميل.. والمسافة بين الخطين المتوازيين الممهدين لانطلاق عجلات القطار فوقهما لا تزيد ولا تنقص مع بعد الشقة!

ألا يدل ثبات هذا العرض على إعداد مقصود لسير القطار فوقه؟ ألا تدل طريقة المد والتمكين على أن القطار المنساب سيجري بسرعة معينة؟ ويحمل أثقالا كثيرة؟

هل إذا رأيت أذرعة القاطرة تغمز العجلات بعدما حركتها سلسلة مضبوطة منسقة من الآلات والأجهزة، فإذا القطار يتحرك وينهب الأرض نهبا، أتحسب أن هذه الأجهزة المتراكبة والآلات المتناسقة قد أخذت أوضاعها العتيدة من غير فكرة صاحبتها وغرض تنتهي به؟

هذا مستحيل!

على هذا النحو أخذ الباحث الضليع يسوق آلاف الأمثلة من حقائق الأرض والسماء فإذا أنت أمام حشود لا آخر لها من براهين الوجود الأعلى، اسمع إليه يقول:

«قد رأينا أن العالم في مكانه الصحيح، وأن قشرة الأرض مرتبة إلى مدى عشرة أقدام، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا أوكسجين ولا نبات! وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة، ولو زادت سرعة الأرض

حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة إن وجدت تغيرا تاما، وقد رأينا هذه الشمس هي الوحيدة بين الآلاف التي جعلت حياتنا على الأرض ممكنة وأن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون صحيحة كلها على ما وجدناها، وهي صحيحة فعلا، ورأينا أن الغازات التي بالهواء منضم بعضها إلى البعض بنسب دقيقة، وأن أقل تغيير فيها يكون قتالاً... إلخ».

ماذا يعني ذلك كله؟ ألا يردك إلى الله ويعلقك به؟

ومع ذلك فيوجد من الناس من يقول لك: إن الساعة التي في معصمك قد استدارت تروسها وتشابكت آلاتها وانضبطت دقائقها تحرك عقرب الثواني، وتحرك عقرب الساعات بعدما تحرك عقرب الدقائق كل ذلك بمحض الصدفة!

فهذا الحساب المحصى للزمن لم تشرف على تسجيله وإحكام مراصده فكرة واعية ولا يد صناع! كذلك يقول بعض المتعالمين عن السموات والأرض وما بينهما.

وقد تحدث هذا العارف الحصيف عن الصدفة وما ينسبه لها الواهمون من تنظيم واقتدار فقال: «إن الصدفة تبدو شاردة غير منتظرة أو غير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب عند قليلي الخبرة، ضعاف الملاحظة.

ولكن إذا كنا ندهش لمفاجآتها فإنها- مع ذلك- خاضعة لقانون صارم نافذ! لنفرض أن معك كيسا يحوي مائة قطعة رخام تسعة وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء.. والآن هز الكيس وخذ منه واحدة، إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد... إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة، وإن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (المائة بعدما ضوعفت مائة مرة)!

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية!

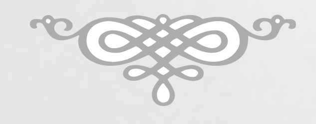
إن نتائج المصادفة مقيدة بقانون صارم تقييدا وثيقا كما أن اثنين واثنين يساويان أربعة»

ويقول في مكان آخر «وإذا نظرنا إلى حجم الكرة الأرضية ومكانها في الفضاء وبراعة التنظيمات التي تمسكها فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد إلى مليون. وفرصة حدوثها كلها لا يمكن حسابها حتى بالبلايين.

ونقول بل لا يمكن افتراضها إلا في تصور المستحيلات، فإن العقل الذي يمنع أن تبني المصادفات دارا من بضع حجرات يجزم آكد الجزم بأن هذا العالم الكبير- بأفلاكه وآماده وحيوانه وجماده وإنسه وجنه- يستحيل أن تنشئه صدفة عارضة!

ثم هل نحسب أن مؤونة إبقائه وحياطته أيسر من إيجاده لأول مرة؟

إن كلا الأمرين ليس إلا لله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (**الزمر: ٦٢، ٦٣**).



(٢٧)

الحج

العدد (٨٣) ذي القعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م)

الإسلام دين توحيد خالص، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره، ويصرف إليه همته، ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار، ويرتبط به في خياله ويتمسك بأذياله، فلا وسائط ولا مظاهر، ولا صور ولا أصنام، ولا هياكل ولا طبقة كهان ولا سدنة، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (**البقرة: ١٨٦**)، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (**الزمر: ٣،٢**).

إذن فالإسلام دين يطلب تجردا في الخيال، وسموا في الفكر، ونقاء في الإرادة والنية، وإخلاصا في العمل والتطبيق وانقطاعا عن الغير، لا يتصور فوقه أكثر منه، ومستوى في الفكر والعقيدة، لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات، والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقة والسمو، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (**الشورى: ١١**).

ولكن الفطرة البشرية هي الفطرة البشرية، فالإنسان ما زال- ولا يزال- باحثا عن شيء يراه بعينه، فيوجه إليه أشواقه، ويقضي به حنينه ويشبع به رغبته الملحة، في التعظيم والدنو.

وقد اختار الله أمورا ظاهرة محسوسة، اختصت به ونسبت إليه وتجلت عليها رحمته، وحفتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله، وارتبط بها وقائع

وحوادث، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه، ودينه وتوحيده، وحسن بلاء أنبيائه، وسماها «شعائر الله» التي جعل تعظيمها تعظيمه، والتفريط في جنبها تفريطا في جنبه، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة، بل حث على ذلك، ودعا إليه فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ **(الحج: ٣٢)**، وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ **(الحج: ٣٠)**.

ثم إن الإنسان ليس عقلا مجردا، ولا كائنا جامدا يخضع لقانون، أو إرادة قاسرة، ولا جهازا حديديا يتحرك ويسير تحت قانون معلوم، أو على خط مرسوم، إن الانسان عقل وقلب، وإيمان وعاطفة وطاعة وخضوع وهيام وولع وحب وحنان، وفي ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته، وسر قوته وعبقريته وإبداعه، وسر تفانيه وتضحيته، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة، وأن يصنع العجائب والخوارق، واستحق أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ووصل إلى ما لم يصل إليه ملك مقرب، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد.

إن صلة هذا الإنسان بربه ليست صلة قانونية عقلية فحسب، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه، ويخضع أمامه، ويطيع أوامره وأحكامه، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك، صلة لا بد أن يرافقها ويقترن بها، ويتحكم فيها حنان وشوق، وهيام ولوعة، وتفان وتهالك، والدين لا يمنع من ذلك، بل يدعو إليه ويغذيه ويقويه، فتارة يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ **(البقرة: ١٦٥)** وتارة يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ **(التوبة: ٢٤)** ويذكر أنبياءه ورسله وينوه بحبهم وحنانهم، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب، فيقول عن يحيى عليه السلام: ﴿**وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا**﴾ **(مريم: ١٢-١٣)** ويحكي قصة خليله إبراهيم، كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده، وفلذة كبده، وكيف وضع السكين على حلقومه، وحاول ذبحه حتى شهد ربه بصدقه وحسن بلائه، وقال: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ **(الصافات: ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦)** ولذلك قال في وصف إبراهيم:﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ **(هود: ٧٥)**.

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله، وآلائه ونعمائه وإشادته بها والعودة إليها مرة بعد مرة، فإن الصفات هي التي تثير الحب وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام، «بالنفي المجمل والإثبات المفصل» فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب، ويفيض منه الحنان، وتنبعث به الأشواق، وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفي رائد العقل كان الإثبات رائد القلب، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى التي نطق بها القرآن ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون وسبح بها المسبحون، وسبح في بحارها ونزل في أعماقها الغواصون، لكان هذا الدين جامدا، لا يملك على أتباعه قلبا، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة، ولا يحدث في القلب رقة، ولا في الصلاة خشوعا، ولا في العين دموعا، ولا في الدعاء ابتهالا، ولا في الجهاد تفانيا، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح، ولا مرونة ولا سعة، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة، لا عاطفة فيها ولا أشواق، ولاحنان فيها ولا هيام، وإذن، أي فرق بين الحياة والموت، وبين الإنسان والجماد؟ لقد كان المسلم في حاجة إلى

غذاء للقلب، وإلى زاد للعاطفة، وإلى أن يقضي شوقه، ويروي غلته، مرة بعد مرة وعلى فترة بعد فترة، وكان في حاجة إلى أن تطفح كأسه، فما قيمة كأس تمتلئ ولا تطفح؟ وكان في حاجة إلى أن تفيض هذه الكأس، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض؟

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق، وأن يبرز هذا الحنان، وأن تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كل يوم، فيسلي بها قلبه ويطفئ بها غلته، ويهدئ بها ثائرته، ويخفف بها حرارة شوقه، ووهج نفسه، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعا، أو تسقط دموعا، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولع، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع.

لقد كان المسلم في حاجة، بعد هذه الصلوات، التي يصليها كل يوم، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا تم النصاب وحال الحول، إلى أن يشهد موسما هو ربيع الحب والحنان، وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين.

وكان المسلم في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور، المقلد المطبق، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟ وكان في حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات، وقوانين وضعية، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس، ويفك قيوده وأغلاله، وينتزع الزمام من يد عقله، الذي استبد به زمانا طويلا، ويعطيه لقلبه وعاطفته، فيتحكمان فيه ما شاءا، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون، فلا حرية لمن ملكه المجتمع، وسيطرت عليه الحضارة، وتسلطت عليه آلهة التقاليد، ولا توحيد لمن أسرته العادات، والمألوفات والشهوات، ولا يعتبر مطيعا منقادا مسلما مستسلما من اعتمد دائما على عقله، لا ينشط لعمل، ولا يسرع لامتثال أمر حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق، ويعرف

فوائده المادية المحسوسة. والحج بوضعه الدقيق الغامض، المنافي للمألوف المعروف لعباد العقل والمادة، وأسارى النظم والترتيبات، دعوة إلى الإيمان بالغيب، واتباع الأمر المجرد، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة، وفي مكان محدود، وصرف عن طلب الدليل والحكمة والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان، وفي كل زمان ومكان.

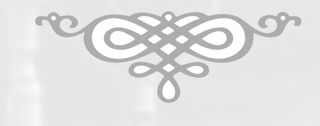
والحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر، وتلبية وإجابة للطلب، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى، وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة.. يقيم ويرحل، ويمكث وينتقل، ويخيم ويقلع، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر، ليست له إرادة ولا حكم، وليس له اختيار ولا حرية، ينزل بمنى، فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات، من غير أن يقف بالمزدلفة، ويقف بعرفات، ويظل سحابة النهار مشتغلا بالدعاء والعبادة، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب، ليستجم ويستريح، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة، ويقضي حياته محافظا على الصلوات في وقتها، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه، ليس عبدا لصلاته وعاداته، فلا يصليها إلا بالمزدلفة، فيريد أن يطيلها، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى منى.

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيمين، نزول وارتحال ومكث وانتقال، وعقد وحل، ونقض وإبرام، ووصل وهجر، ولا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى.

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين، وأشد الناس حبا لله، وأحبهم إلى الله في عصره، وأسرته الصغيرة، الطيبة المباركة، بأكبر دور في الحب والولاء، والإخلاص والوفاء، والإيثار والفداء، وقاموا بأروع رواية وأجملها في تاريخ الحب السامي والولاء الطاهر، والإخلاص المعجز، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون، والموحدون

المخلصون، والمحبون في كل عصر، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم، واحتذوا حذوهم، وترسموا خطاهم، وحكوا هذه الرواية وأعادوها، فطافوا حول البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ووقفوا بعرفات، وباتوا في المزدلفة ورموا الجمرات ونسكوا في منى.

وكان في المكان والزمان، وفصول الرواية التي يعيدونها، والأعمال التي يقلدونها، ونسائم الحب التي ينشقونها، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه، وطبقات الأمة، التي يتصلون بها ويعاشرونها، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الارض، وفي هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية والاستغفار، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة، وينبه النفوس الخامدة، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت، أو كادت تنطفئ، ويجلب رحمة الله.



(٢٨)

مشاعر أسيفة في ذكرى المولد

يا للرجال بغير دين!

العدد (٨٧) **ربيع الأول** (١٣٩٢هـ) **إبريل** (١٩٧٢م)

الله جل جلاله ربَّى محمدا ليربي بهِ العَرب وربّى العرب بمحمَّد ليربي بهم الناس

أحيانا يقترف الناس في جنب الله سيئات يظهر فيها جهلهم به، واجتراؤهم عليه، وينكشف فيها ما فاتهم من خشوع وأدب، فيكون تعليق القرآن الكريم على هذا النوع أو العوج المنكور ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (**الحج: ٧٤**) أو ما أشبه ذلك من التعليقات التي تبرز بعد الشقة بين ما يجب لله، وما يقع من الناس.

والنقائض في أفعال البشر كثيرة، ولعل أخسها بعد الإساءة إلى الله ما يلقاه محمد ﷺ من جماهير العرب في هذا العصر الأنكد! إنهم ما أحسنوا إلى تراثه، ولا قدروه، ولا غالوا بشرف الانتساب إليه عندما ابتلوا بالتقصير فيه! بل وجد فيهم من يريد العيش بعيدا عن رسالته زاهدا في دعوته.

ولما كان الله قد ربى محمدا ليربي به العرب، وربى العرب بمحمد ليربي بهم الناس، فإن معنى التجهم لمحمد وتراثه أن العرب ينتحرون في الميدان العالمي، وأنهم يحاولون أن ينأوا بأنفسهم في ركن من الأرض فقير من عناصر الشرف والسيادة ومقومات الحق في الدنيا والآخرة!

إنني أسأل نفسي بإلحاح في هذه الأيام العجاف: هل يشعر العرب بأن محمدا مرسل للعالمين؟ وأن هذه «العالمية» في دعوته تفرض عليهم بعد إذ عرفوه أن يعرفوا الناس به، وهم عندما يعرفون الناس به لن يصفوا لهم ملامحه الشخصية وإنما يشرحون لهم رسالته الإلهية!

لكن عرب اليوم لا يقدرون محمدا قدره، ولا يخلفونه بأمانة في مبادئه وتعاليمه، ولا يحسنون قبح الشبهات التي أثارها خصومه ضده، بل هم- علما وعملا- مصدر متاعب للإسلام ونبيه الكريم، وشاهد زور يجعل الحكم عليه لا له! قد تقول: حسبك حسبك، إن الناس بخير، ومحبتهم لرسولهم فوق التهم فلا تطلق هذه الصيحات الساخطة فما تحب الجماهير أحدا، كما يحب أتباع محمد محمدا.

وأقول لك: سوف أغمض العين عن ألوف من المتعلمين ضلل الاستعمار الثقافي سعيهم، وشوه بصائرهم وأذواقهم، مع أن وزنهم ثقيل في قيادة الأمة العربية، فما قيمة الحب الرخيص الذي تكنه جماهير الدهماء؟

إنه حب غايته صلوات تفلت من الشفتين مصحوبة بعواطف حارة أو باردة، وقلما تتحول إلى عمل كبير وجهاد خطير، والترجمة عن حب محمد بهذا الأسلوب في وقت ينهب فيه تراثه أمر مرفوض، إن لم يكن ضربا من النفاق!

أذكر أني ذهبت يوما لأحد التجار كي أصلح شيئا لي، فاحتفى بي وقدم بعض الأشربة، وأفهمني أنه أتم ما أريد بعد أن وفيته ما أراد، ثم شعرت أن عمله كان ناقصا ولا أقول مغشوشا! فقلت: ليته ما حيا ولا رحب، وأدى ما عليه بصدق! ماذا أستفيد من تحيات لا جد معها ولا إخلاص؟

والشأن كذلك مع أقوام قد تموج أحفال المولد النبوي بهم، أو قد يصرخون بالصلاة على رسول الله في أعقاب الأذان، أو قد يؤلفون صلوات من عند أنفسهم يحار المرء في تراكيبها لإغراقها في الخيال.

وقد يكون حبهم تمسكا شديدا ببعض النوافل، وهروبا تاما من بعض الفرائض، أو حنانا لا ندى معه ولا عطاء كهذا الذي قال له الشاعر:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما قدمت لي زادا

أي حب هذا؟ إن العرب لا يعرفون أي شرف كتب لجنسهم ولغتهم وأمسهم وغدهم عندما ابتعث الله محمدا منهم، وإن التقدير الحق لهذا

الشرف لا يكون بالسلوك المستغرب الذي يواقعونه الآن، ومنذ بدأوا يعبثون برسالة الله بينهم.

لما أراد رب العزة أن يعلن بركته النامية ورحمته الهامية اختار في كتابه العزيز عبارتين مبينتين

الأولى تتحدث عن هذه البركة في مظهر القدرة التي تجمع أزمة الكون في يده، فيستحيل أن يغلب يوما على أمره، أو يشركه أحد في ملكه، وفي هذا المعنى يقول جل شأنه: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (**الملك:١**).

والثانية تتحدث عن هذه البركة في صورة الرجل الذي حمل هداه الأخير إلى عباده، وتفجرت ينابيع الحكمة من بيانه وسيرته، فكان القرآن الذي يتلوه مشرق شعاع لا ينطفئ، يهتدي على سناه أهل القارات الخمس ما بقي الليل والنهار، وفي هذا المعنى يقول جل شأنه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(**الفرقان: ١**).

إن الإنسان المبعوث رحمة للعالمين أشعل الأمة التي ظهر في ربوعها فانطلقت لأول مرة من بدء الخليقة تحمل للناس الخير والعدل، واستطاعت أن تؤدب جبابرة الأرض الذين عاثوا في أرجائها فسادا، وظنوا أن كبرياءهم لن يخدشها أحد!

حتى جاء الرجال الذين رباهم محمد فقوموا صعر المعتدين، وأعزوا جانب المستضعفين، وكم تحتاج الدنيا في يوم الناس هذا إلى هذا الطراز من الرجال ليحموا الحق الذليل، وينقذوا التوحيد المهان، ويقروا الأخوة الإنسانية المنكورة، وينزلوا البيض إلى منزلة السود أو يرفعوا السود إلى منزلة البيض.

لكن السقطة الرهيبة للعرب المعاصرين أنهم ذاهلون عن المكانة التي

منحهم محمد إياها، هابطون عن المستوى الذي شدهم إليه، وفيهم من يفتح فمه ليقول: إن العرب يمكن أن يكونوا شيئا من غير محمد!

قبح الله وجهك من قائل أفاك!

ومن أيام جاءني نفر من العامة متنازعون على إدارة مسجد، بعضهم يريد في الأذان أن يقول أشهد أن سيدنا محمد رسول الله.. والآخر يريد الاكتفاء بالوارد، فلا يذكر لفظ سيدنا لأنه مبتدع.

ونظرت إلى أعراض المرض الذي يفتك بالأمة المعتلة، وقلت لهم: إن محترفي الإفك من المبشرين والمستشرقين ملأوا أقطار العالم بالافتراء على محمد وشخصه ودينه، ورسموا له صورة مشوهة في أذهان الكثيرين، وأنتم هنا لا تزالون في هذا الغباء.

ما أشقى دينا أنتم أتباعه! إن المسلمين بين ما ورثوا من جهل، وما نضح عليهم من ضلال العصر لا يزالون يهرفون بما لا يعرفون.. إن حب محمد يوم يكون لقبا يضفيه عليه الكسالى الواهنون فهو حب لا وزن له، ولا أثر! ويوم يكون أحفالا رسمية وشعبية بيوم ميلاده، فهو حب لا وزن له ولا أثر، ويوم يكون قراءة لكتابه في مواكب الموت ومجالس العزاء، فهو حب لا وزن له ولا أثر.. لأن محمدا هو الرسول الذي رسم للبشر طريق التسامي الحقيقي، ورسم للجماعات طريق التلاقي على الحقائق والفضائل، فدينه عقل يأبى الخرافة.. وقلب يعلو على الأهواء.

ماذا كسب المسلمون عندما حولوا الدين من موضوع إلى شكل؟ وماذا كسب العرب عندما شقوا طريقهم إلى المستقبل وهم يطوون اسم محمد وتراثه من نشاطهم السياسي والعسكري؟

إن مسلمي الباكستان هزمتهم سياسة امرأة ذكية ماهرة! ورجالات العرب دوختهم سياسة عجوز شمطاء يا للرجل بلا دين!



إنني وألوفا من المؤمنين نحب محمدا ﷺ، ونشعر بما له في أعناقنا من دين، وبما أفاء علينا من نعمة، وبما يجب أن يتوطد له في الدنيا من سلطان مادي وأدبي، وبالفقر المدقع الذي يعانيه العالم لحرمانه من الرسالة التي اضطلع بها وخلفه في إبلاغها العرب، فلم يحسنوا البلاغ.

إنني ألوم نفسي، وألوم قومي، ويتردد في نفسي صدى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (**الزخرف: ٤٤**).



قال لي أحد الصالحين: إننا نحيّي ربنا جل شأنه ونحن جلوس في صلوات، أليس كذلك؟

قلت: نعم، عقب الركوع والسجود، نهمس وأيدينا على الركب: التحيات لله...

قال: ثم نتوجه إلى الرسول بالسلام بصيغة المخاطب الحاضر، نقول- وكأن الكلام لشخص قريب منا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته...!

قلت: أجل، كذلك نفعل، على بعد المكان والزمان بيننا وبين الرسول الكريم!

قال: إن السلام أفرغ في تلك الصيغة قصدا، لأن النبي يجب أن يكون حيا في ضمير كل مؤمن، يجب أن ينتصب له مثال مرموق في وعي المسلم اليقظ تتحقق فيه ملامح الصورة الذاهبة!

وهل تؤخذ الأسوة الواجبة إلا من هذا الاستحضار الدائم؟

لقد مرت أعصار على موت الرسول ﷺ، لكن القيم الرفيعة التي تجسدت فيه ونماذج العبودية لله، والجهاد في سبيله والحنو على خلقه، وصور الكمال البشري في العفاف والعدل والإيثار والمرحمة... تلك كلها معان لم تمت، وإنما خلدت في كيان هذا النبي المحمد.

والمسلم عندما يقول في صلواته: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته إنما يقترب من إمامه الأعظم الذي أمره الله أن يتأسى به، وأن يسعى في ركابه.

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ **(الأحزاب: ٢١)**



واسترسل الرجل الصالح في عاطفته المهتاجة، وأخذ يشرح لي ما يعني، قال:

إن الشمس في رائعة النهار لا تعتبر غائبة عن بصير، وتستطيع كل مرآة مجلوة الصفحة أن تعكس صورة لقرصها أو لهالتها أو لأشعتها، ومحمد ﷺ في عالم اليقين والخلق، شمس لا ينكر لها بريق ولا يغيم لها ضوء.

ان القدوة الطيبة تقوم على استحضار المثل الأعلى في الذهن، ومحاولة السير على غراره في الخارج، والائتناس الدائم بهذا المثل الأعلى هو الذي يلهج الألسنة بعد تحية الله تبارك وتعالى بالسلام على رسوله، سلام «حضور» لا سلام «غيبة» ومن ثم كان كل مصل يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباده الصالحين».

ومحمد رسول الله- ﷺ- معقد الحقائق التي يصلح بها العالم من أزله إلى أبده، والتعاليم التي جاء بها لا يستغني عنها الأولون والآخرون إلا إذا استغنت الأكوان عن نظام الجاذبية وسائر السنن العامة، واضطراب الحياة إنما يرجع إلى تجاهل الهدايات التي جاء بها النبيون، والتي أتمها وأجملها هذا النبي الخاتم وما يثوب الناس إلى رشدهم إلا يوم يحتفون بهذه الرسالة وصاحبها ويعرفون حكم الله عن طريقه.

وكان حقا على العالم كله أن يصدق بهذه البعثة العامة، ولكن العالم تنكر لها وتطاول على رجلها الكبير.

وعندي أن الشفاعة العظمى التي جاءت السنن بثبوتها لرسول الله ﷺ- لا تعدو أن تكون لونا من تأديب البشر كافة على موقفهم السابق من نبي الإسلام، فإن رسول أي عظيم يستحق من التوقير والإعزاز بقدر ما لمرسله من مكانة، والرجل الذي أرسله رب العالمين كان يجب أن يلقى من التكرمة ما يرفع ذكره، ويعلي شأنه، غير أن أكثر الناس تواصوا بالصد عنه وجحد دعوته، ورغبوا عن الحق الذي معه، وبخسوا قيمته ثم تتابعت الأجيال والخلف في أغلب بقاع الأرض يتوارثون عن سلفهم هذا التكذيب الشنيع.

ولو نظرت في هذه الألوف المؤلفة من الكنائس والمعابد، لوجدت داخلها أجهزة منظمة دوارة تعمل في غير ملل لصرف الناس عن الإسلام ونسبة أقبح النعوت إلى نبيه المبرأ الشريف.

وكأن الله تبارك اسمه شاء أن يعرف هذه الأمم مدى ما كانت فيه من غباوة، وأن يذيقها شيئا من مرارة الجريمة التي ارتكبتها، فهو في ساحة العرض الشامل لأصناف الخلائق يحشر سكان القارات الخمس على مر القرون.. يحشرهم في صعيد واحد، ثم يكشف الغطاء عن عيونهم وإذا هم يتبينون فداحة جهلهم بالله الكبير المتعال، ويتبينون شناعة خصامهم لإمام رسله.

وهنا يموج بعضهم في بعض، ويضطربون في حيرة مفزعة لا يرجى منها خلاص، وتتحرك جموعهم إلى كل نبي سمعوا باسمه في العالم الذي انتهى، يناشدونه أن يسأل الله لهم الرحمة، ولكن النبيين كلهم يرفضون التصدي لهذا المطلب ويعود أهل القارات الخمس متراكضين إلى الرجل الذي طالما قيل لهم إنه كاذب... إنهم يحسون الآن عن يقين أنهم أخطأوا في حقه، وأنهم يوم صدوا عنه كانوا يخسرون أنفسهم وأهليهم!

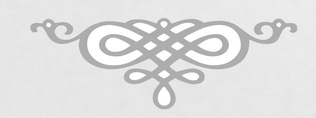
الشفاعة العظمى- في نظري- موقف يحاكم فيه التاريخ البشري كله، ليعترف أن انصرافه عن الإسلام كان مشاقة لله وعداء لأحب أوليائه وأصدق دعاته.

وما أعجب أن تجد الإنسانية نفسها في حرج يوشك أن يقضي عليها، ثم تعلم فجأة أن التنفيس عن كرباتها ربما تم باللجوء إلى الرجل الذي عاشت دهورا وهي تروي عنه الأكاذيب وتنسب إليه الأساطير.

والتجاء أهل الأرض إلى محمد في تلك الساعة العصيبة، ولجوؤه إلى الله يطلب مغفرته للعبيد الأغرار، ذلك في ظني هو المقام المحمود، المقام الذي نسأله لمحمد عقب كل أذان يتردد صداه في مهاب الريح ليستجيب له قوم وينصرف عنه آخرون «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته».



قلت: إن محمدا في عالم العقائد والحقائق شمس وضاحة نفاحة، لكن العميان كثير وقد مكث هذا الرسول النبيل يصدع بأمر الله وينقذ الناس من أهوائهم ومظالمهم، ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى تاركا فينا تراثه الجليل، من كتاب وسنة فليتعلم الدعاة من حياة سيد الدعاة أن أجر الحق المبذول لا يعجل في الدنيا، وأن للمقام المحمود موعدا في غير هذه الدار يتعلق به وحده الدعاة الأبرار.



(٢٩)

على هامش الإسراء

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢هـ) أغسطس (١٩٧٢م)

عندما يتدبر التالي سورة الجمعة يرى في آياتها منعة الأمة العربية، والحكمة التي من أجلها ولدت في التاريخ!

ولك أن تسأل: ما علاقة أمة العرب بسورة الجمعة؟ وقد جرى في نفسي هذا التساؤل قبل ان أعلم أن يوم الجمعة كان يسمى في الجاهلية «يوم العروبة» ثم غلب عليه عنوان الشعيرة التي استحدثها الإسلام، والتي لم يكن العرب من قبل يحتشدون لها، أو يلتقون في عيدها!

ومعروف أن النبي ﷺ لم يصل الجمعة في مكة، وإنما صلاها بعدما قدم المدينة، فهل صليت في المدينة قبل الهجرة النبوية إليها؟

يبدو أن ذلك قد وقع، فقد روى عبدالرزاق في مسنده قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها النبي ﷺ، وقبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: إن لليهود يوما يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل يوما نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلي فيه، فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم وقد روي ذلك الحديث من طرق أخرى صحيحة.

فكأن سورة الجمعة هي سورة العروبة! فلننظر بعد هذه التقدمة إلى السورة نفسها.

لقد بدأت بتسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم، والله ولي المنة والفضل، وأهل التقوى والمغفرة، وقيم السموات والأرض ومن فيهن.

ومن حكمة الله الماضية إلى يوم الدين أن يمنح اصطفاءه من شاء من الأفراد والأجناس ليكونوا مجلى رحمته، ومظهر نعمائه.

وفي الآية الثانية من هذه السورة، وبعد ثناء الرحمن على ذاته، ذكر- تبارك اسمه- أنه اختار العرب ليحملوا رسالته الخاتمة إلى خلقه ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **(الجمعة: ٢)**.

وقوام هذا الاختيار ثلاثة معان بارزة:

- الأول تلاوة آيات الله، فإن أهل الكتاب أخفوا كثيرا منها، وعبثوا بمعالم الوحي حتى التبس الحق بالباطل، وتحول الدين من أفواههم إلى سقام للعقول والضمائر بدل أن يكون شفاء لما في الصدور، واستنارة لذوي الألباب.

لكن النبي الخاتم تلا على أمته آيات الله كاملة غير منقوصة، مستقيمة لا عوج فيها، وأصبح العرب من بعده أمناء الله على هداياته، وفي أيديهم وحدها الصحائف التي لا ترقى إليها ريبة، ولا تلحقها آفة.

- وتلاوة الحق يتبعها التأثر به، والارتفاع إلى مستواه سيرة وسريرة، وذلك معنى التزكية، وقد ربى محمد عليه الصلاة والسلام جيلا من الناس له فضل أدب وتقوى أهله لقيادة العالم عن جدارة لا عن دعوى، والمتأمل في مسالك هؤلاء الأميين من العرب يعجب لإدمانهم العبادة، وحبهم الجهاد، وغيرتهم على الحق، ونفورهم من الدنايا.

إن هذه الأمة الجديدة التزمت نهجا في التربية النفسية والاجتماعية أعز الإيمان وأعلى قدره!

- والمدد العقلي لهذه الرفعة الخلقية والسياسية نبع من علوم الكتاب والسنة، ومدارسة ما أودع الله فيها من حكمة بالغة.. ثم إن علوم الدين عندنا تتسع دائرتها لتشمل الكون كله، أي لتشمل كل ما يدل على الله، ويكشف عن جلاله وعظمته. ومن هنا كانت الحضارة الإسلامية تستند

إلى الوحي الحق، وما ينبعث عن هذا الوحي من علم وأدب.

وذلك ما نهضت به الأمة العربية فأضاءت ظلمات التاريخ، وصححت مسيرة الحياة. وذاك ما أسداه محمد للناس وأولهم قومه ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **(الجمعة: ٢)** لكن عهد العرب بالنبوات بعيد، فإن علم «الكتاب» عرف بقوم آخرين تخصصوا فيه وتوفروا عليه، أما العرب أنفسهم فقد ألفوا الأمية وألفتهم، حتى أصبح اسم «الأميين» علما عليهم.

فأنى لهم قياد العالم في هذا المجال، وهؤلاء، بنو إسرائيل، قد احتكروا النبوات دهرا طويلا، حتى ظنوا أنفسهم همزة الوصل بين الأرض والسماء، وتسموا بالشعب المختار، إشارة إلى هذه المكانة العتيدة؟

هنا يرد قوله تعالى في سورة «العروبة»: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **(الجمعة: ٤)**.

لكن الفضل الإلهي لا يتنزل على من لا يترشح له، ولا ينسحب من أمة دون سبب واضح! فلم عزل الله اليهود وأحل مكانهم العرب؟

وبدأت السورة تجيب على هذا التساؤل ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **(الجمعة: ٥)**.

إنك لا تأمن على تأديب ولدك معلما سيئ الأخلاق رديء الطبائع! فكيف يكل الله تربية العالمين لشعب قاسي القلب، مظلم السريرة، جامح الشهوات؟

لقد عزل اليهود عن مكانتهم القديمة لأنهم برذائلهم ومعاصيهم هبطوا دونها.. إن صلتهم بالوحي الإلهي تشبه صلة الدابة بما تحمل من كتب.

وما داموا لم يستفيدوا هم أنفسهم منها فكيف يفيدون غيرهم؟

ومن ثم جردوا من أمجادهم الأولى وقلد العرب هذه الأمجاد، فالعرب-

بابتعاث محمد منهم- أصبحوا الشعب المختار الجديد المكلف بحمل أمانات الوحي المؤتمن على هدايات الله!

ومضت سورة «الجمعة» أو سورة «العروبة» تسرد العيوب الجسيمة التي فشت بين اليهود فأزلتهم عما كانوا فيه من فضل رفيع.

إن موالاة الله تقتضي حتما البذل فيه، والتضحية من أجله، وإيثار ما عنده على الدنيا وما فيها.

وموالاة الله تجعل ذويها يحبون الآخرة أكثر مما يحب غيرهم الدنيا، وتطهرهم تطهيرا من الجبن والإخلاد إلى الأرض.

ولكن اليهود بلغوا في حب المال حد الشره، وفي حب الحياة حد التشبث بها والحرص عليها،

وقد أخذت السورة الكريمة تقرعهم على هذا الخلال ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ **(الجمعة: ٦، ٧)** الآيات.

إن الأمة العربية لما اختارها الله لحمل رسالته الخاتمة كانت أنقى جوهرا، وأعمق أثرا، من بني إسرائيل!

ويبدو أن العرب- حتى في جاهليتهم الأولى- كانوا يحسون فتك الأمراض النفسية والاجتماعية بأهل الكتاب المجاورين لهم، وأن هؤلاء الكتابيين يفقدون الصلاحية المفروضة فيمن يتصل بالوحي ويتحدث عنه!

وتأمل قوله تعالى وهو يستحث العرب على الإيمان ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ **(الأنعام: ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧)**.

إن أولئك الأميين لا يقولون ذلك إلا لأنهم احتقروا أهل الكتاب، واكتشفوا في بواطنهم وظواهرهم ما يسوء.

والواقع أن التدين الفاسد لعنة على الحياة، وأن تحول الدين إلى كهانة واحتراف واحتكار يخلق طائفة من المرضى المستكبرين أو الموجهين المنخورين، يفسدون في الأرض ولا يصلحون، تتأخر بهم الحياة ولا تتقدم، وتشقى بهم ولا تسعد.

من أجل ذلك اصطفى الله العرب بعدما آتاهم رشدهم، وأقام عوجهم، فخرجوا على الناس وهم أسلم فطرة وأهدى سبيلا.

فكان انسياحهم في الأرض عجبا وكانت بركتهم على الحياة نامية، وكانت ضرباتهم للباطل حاسمة شافية، وما ندري أي درك كانت الدنيا جمعاء سوف تهوي إليه لو لم ينطلق العرب شرقا وغربا بهذا الدين الحنيف..

وفي الموازنة بين الأمة الجديدة، حاملة الرسالة الخاتمة، وبين أهل الكتاب الأوائل يقول الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (**آل عمران: ١١٠**).

والأمم تصلح للحياة والسيادة بمقدار كثرة الخير وقلة الشر فيها.

إن مادة الشر يستحيل أن تنحسم من بين الناس ولو كان الأنبياء رعاتهم ولكن الأمم إذا توارى الانحراف في مساربها وشعر فاعلوه بنكره، واستعلن البر في أرجائها، وشعر فاعلوه بمجده كانت أجدر بالبقاء، وأحق برعاية الله.

أما إذا قل الأخيار، وبرز الفجار، فإن البلاء يعم، والانكسار يحيق، ما يغني في دفعه صلاح نادر وتقوى ضئيلة!

والأمر بالمعروف يجيء إثر الإحساس بحقه في الظهور والسيادة، والنهي عن المنكر يجيء إثر الإحساس بضرورة استخذائه واستخفائه، وهذا وذاك

يلدهما الإيمان النابض بالقدرة والنشاط،

وقد كان ذلك الإيمان سمة الأمة الفتية الناشئة من قلب الصحراء.

أما بقايا أهل الكتاب فإن العفن الفكري أو النفسي كان ضاربا في أحوالهم وأعمالهم.

وربما اصطلحت ضمائرهم مع المنكر فأساغته، وتراخت عن المعروف فتركته ينسحق تحت أقدام الطغاة والفساق.

كان العالم- والحالة هذه- فقيرا إلى نجدة تسعف الحق المهزوم، والشر المتبجح، وذلك ما فعله أبناء القرآن الكريم الذين نفخ فيهم محمد من روحه وتعهدهم بحكمته!

وفي سورة «الجمعة»، أو سورة «العروبة»، نرى أن الله ذكر فضله على العرب بهذه الرسالة فقال ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ (**الجمعة: ٤**).

ثم شرع بذكر مآسي بني إسرائيل وغدرهم بما أخذ عليهم من عهود، أما في سورة آل عمران فإن الله جل شأنه ذكر أولا انحراف اليهود وفسقهم عن أمر الله، ثم أعلن عزله لهم، ونزع الملك منهم، واختيار العرب دونهم لقيادة العالم.

فقال أولا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (**آل عمران: ٢٣**).

وبعد أن رفض هذا السلوك، وبنى عليه طرد أصحابه وجه الخطاب إلى نبيه محمد: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(**آل عمران: ٢٦**) وظاهر من السياق أن ذلك في إيثار محمد وأمته العربية على بني إسرائيل! قد نقول: ما علاقة هذا كله بقصة الإسراء؟ والجواب أن ليلة الإسراء كانت تقريرا عمليا للحقائق التي أبرزناها

من سورة الجمعة وغيرها، قلنا في كتابنا «فقه السيرة»: لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم، فقد ظلت النبوات دهورا طوالا وهي وقف على بني إسرائيل، ظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أنواره على الأرض، وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار.. فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالا بالقيادة الروحية في العالم، من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية «إسرائيل» إلى ذرية «إسماعيل».

وقد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾ (**البقرة: ٩٠**).

لكن إرادة الله مضت، وحملت الأمة الجديدة رسالتها، وورث النبي العربي تعاليم: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضي، وإدماج الكل في حقيقة واحدة، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه فيكون هذا الانتقال احتراما للإيمان الذي درج- قديما- في رحابه.. ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة.

إن النبوات يصدق بعضها بعضا، ويمهد السابق منها للاحق، وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ (**آل عمران: ٨١**).

وفي السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقرارا مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه، أخذت تمامها على يد «محمد» بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين، والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ليس مدحا يساق في حفل تكريم، بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية ومنذ تولت السماء إرشاد الأرض، ولكنه جاء في إبانه المناسب.

لماذا سردت هذا القصص الغابر؟ إنه ليس سرد تاريخ مضى، وخبر كان.. إنه تعريف أمة تائهة بحقيقتها، ورسالتها، وقدرها المكتوب، وحسابها الدقيق!

إن العرب ينبغي أن يعرفوا من هم، وبم أوثروا، وما المطلوب منهم لليوم الحاضر والغد القريب.

وسورة الإسراء التي حكت في الآية الأولى وحدها خلاصة القصة، ثم تتابعت آياتها تستعرض الحكم، وتسوق النذر.. هذه السورة أكدت للعرب مثلما أكدت لغيرهم أن الله يعامل شتى الأجناس بقانون موحد لا مكان فيه لمحاباة أو فوضى.

فمن تطلع إلى الدنيا وحدها حبسه الله في نطاقها ورمى إليه- جل شأنه- بما يريد منها، أما الآخرة فلا بد لكسبها من شروط ثلاثة:

- أن تكون إليها الوجهة.
- أن يقترن الاتجاه بالسعي الجاد.
- أن يقترن السعي بالإيمان الخالص.

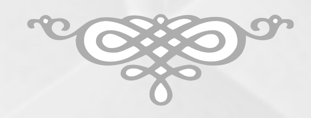
وفي الفريقين معا يقول الله جل شأنه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم

مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (**الإسراء: ١٨، ١٩**) هذا الحكم ينطبق على خلق الله أجمعين لا يستثنى منهم أحد.

فماذا يريد العرب من الله؟ إن غيرهم لما أهان وحيه نزعت منه الراية، وأهين في الأرض والسماء، فهل يريدون أن يتنكروا لوحي الله لديهم، ومواريثه بينهم، ثم يتجاوز عنهم، ويبسط يده عليهم بالخير والنصر ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (**الجاثية: ٢١**).

ونعود إلى خواتيم سورة الجمعة أو سورة «العروبة»، لنرى فيها السعي إلى ذكر الله وإقام الصلاة، فإذا وفينا بحق الله انتشرنا في الأرض لننال من خيرها ما يعيننا على أسباب الفلاح.

إن الدين والدنيا قد اجتمعا عندنا في قرن، واتسقا في غاية ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (**الجمعة: ١٠**).





(٣٠)

رمضان
بين تقاليد الماضي وهزائم الحاضر

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) أكتوبر (١٩٧٢م)

للجسد الإنساني وقوده الذي يحيا به ويتحرك، ويستحيل حرمان هذا الجسد من مصادر وجوده ونمائه وتنقله هنا وهناك!

التجويع التام يقتله، والحرمان من عناصر رئيسية يثير الاعتلال في كيانه، ويفرض عليه الذبول واللغوب.

ولم يجئ في شرع الله تكليف من هذا النوع المحرج، بل جاء في السنة استعاذة النبي عليه الصلاة والسلام من هذا البلاء «أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت»،

لكن الواجدين من الناس عندما يطعمون لا يكتفون بتناول الغذاء المطلوب لأبدانهم، بل يلتهمون مقادير أكبر.. كل على قدر نهمته وطاقته! ونحن نفتن في تزويد أنفسنا بأزيد من حاجتها، والرغبات تمتد مع التلبية المستمرة، وتألف ما اعتادت، وتطلبه إن فاتها!

وهذا الجسد العجيب قادر على اكتناز ما يفرض عليه، إما بدانة مفرطة، أو قبولا لما يشحن به، ثم عملا صوريا فيه، ثم خلاصا معنتا منه! وهو الخاسر في هذا الجهد الضائع، والحياة العاقلة من حوله تقول: لو كان هذا نصيب معدة فارغة لكان خيرا له ولها، ولكان أسعد وأرشد، وقديما قيل:

والنفس طامعة إذا أطمعتها وإذا تـرد إلى قـليل تقــنع!

لعل فريضة الصيام تذكرنا بهذه الحقيقة النفيسة التائهة، لكن هناك شيئا آخر يجيء رمضان ليذكرنا به نحن العرب والمسلمين في أقطار الأرض كلها.

نعم، إذا كانت شهية بعض الناس مفتوحة للمزيد من ملذات الدنيا فما أحرى المنهزمين بأن تنكمش أيديهم وتغص حلوقهم، وإذا كان أهل الأديان كلها يمرحون ويهشون فما أحرى بني الإسلام بالصيام عن فنون المتع وألوان السرور.

ذلك أن المرحلة التي يمرون بها لا تتحمل من ذلك قليلا ولا كثيرا.. في أعقاب المتاعب التي تصيب الأمم، وتنتظم آلامها الأفراد والجماعات، يحدث تغير شامل في السلوك القومي العام. ويزهد الصغار والكبار في فنون من المتع كانوا من قبل يألفونها، وأنواع من المرح طالما ابتهجوا أيام السلام بها.

وهذه عادة عربية قديمة، كان أسلافنا الأوائل إذا نال منهم عدو أو حل بهم مكروه، هجروا تقاليد السرف والترف، وصدوا عن أسباب اللهو والمجون، وما يسمح أحدهم لنفسه بسرور غامر، وضحك عال إلا إذا نال ثأره أو استرد ما فقده، أو أوقع بخصمه مثل ما نزل به، فإذا تم له ما يبغي قال وهو مستريح:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا أكاد أغص بالماء الفرات

وقد نزل أبوسفيان، وجمهور أهل مكة على هذه العادة بعد هزيمتهم في معركة بدر، فحلف أبوسفيان أن يحرم نفسه شتى الملذات حتى يدرك ثأره من محمد.

واتسق هذا المعنى في تقاليد البطولة التي شاعت بعد بين المسلمين، فيقول شاعرهم:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم عن النساء ولو باتت بأطهار!

والمعنى أنه في ساعات الجد لا ينبغي الاكتراث بما عداه، وفي أيام الكفاح يجب على الأمم أن تقتصد اقتصادا شديدا في مظاهر الفرح والتسلية.

وما دام أبناؤنا وإخوتنا في الجبهة وما دامت قطع من أرضنا تحت أقدام العدو، وما دام جحد حقوقنا ظاهرا في أسلوب التبجح الذي نستمع إلى نبراته، فما مكان الراحة والهدوء عند محبي الراحة والهدوء؟

وما كان التوسع في الإنفاق والبذل في المرفهات عند عشاق البعثرة والترفيه؟

لقد آن الأوان ليراجع العرب والمسلمون سلوكهم الخاص والعام، فيحذفوا من أساليب معايشهم وأفراحهم وأحزانهم الكثير مما لا يتفق مع أيام الحرب، وليعلموا أن حبل الكفاح طويل، وأنهم بإزاء عدو ماكر غادر تختبئ وراءه كل قوى العدوان في الأرض، وأن هدف المعركة الإتيان على تاريخهم ورسالتهم وحاضرهم ومستقبلهم، فكيف مع هذه النيات الهائلة نستخف بالأمر،

أو نأذن لمشاعر الدعة والهزل أن تخامر القلوب؟

إن الأثر النفسي العظيم لفريضة الصيام هو تدريب المؤمن على ضبط نفسه، وإحكام أمره، وتقييد شهواته، فهو إذ يترك بعض الأعمال المباحة يتمرن على ترك جميع الأعمال المحظورة، أو التي تفرض ظروف المروءة وأعباء الكفاح أن يتركها، وقديما قال رجل عزيز صلب:

يقولون: هـذا مـورد! قلـت: قـد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما!

ولقد كان رسول الله ﷺ صاحب طاقة كبيرة على الحياة، مهما تباينت ظروفها، واختلف عليها العسر واليسر، والانكسار والانتصار، ولقد علم أصحابه أن الاستسلام للشهوات المادية، والحرص على نمط معين من الملذات، سقوط بالهمة وخور في العزيمة، واسترخاء مع الشيطان.

قال عليه الصلاة والسلام يصف المجتمعات المعتلة «إن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم» وقال: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى».

وقال: «إن شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم، نبتت عليه أجسادهم» وقال- يصف عشاق الليونة والرخاوة والمظاهر الجوفاء- «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة» والقطيفة والخميصة أنواع من الأقمشة الملبوسة والمفروشة تمتاز بالفخامة والنعومة، يحرص عليها طلاب الراحة وعبيد المثل الدنيا لا المثل العليا.

ويظهر أن بعض المسلمين لا يستفيدون من صيامهم هذه الآثار النفسية والاجتماعية التي تعين على خلق شعوب مجاهدة تتحمل متاعب الحصار الاقتصادي والعسكري، وأنهم حريصون في جوانب كثيرة من حياتهم على تقاليد اليسار والسعة، والتشبث بما ألفوه أيام السلام والسلامة!

وما نفكر في تحريم مباح، ولا في زجر الناس عن طيبات أحلت لهم، ولكنا نفكر في مواجهة العدو المتربص وضرورة وعي الأساس الأوحد للقائه، وهو أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم.. عندما أعلن غاندي المقاطعة السلبية، وحمل شعبه على الرضا بخيوط المغزل الهندي، وهجر الإنتاج الرائع لمصانع إنجلترا ونسيجها الرقيق الجيد كان ذلك «الصيام» بداية التحرر ونهاية الاستعمار، ولذلك يقول الشاعر العربي رشيد سليم الخوري

لقد صام هندي فـدوَّخ دولـة فهل ضار علجًا صوم مليون مسلم ؟

إنني ألفت أنظار قومي إلى أننا أمام جهاد شاق المراحل، ثقيل التكاليف، وأن النجاح فيه يتطلب من الآن نظرة عابسة، ورفضا لصنوف المباهج!

ترى هل أستطيع أن أقترح إلغاء أفراح الأعياد؟ والاكتفاء بشعائرها الدينية الرصينة وحسب؟

إن ولع العرب الشديد باللهو واللعب منته بهم بتة إلى التلاشي، ودلالته

واضحة على موت القلوب، وقبول الدنايا، وعشق الدنيا وكراهية الموت.

إن عبادة الحياة، وتكريس القوة والوقت لها وحدها علة قديمة بين الناس وهي العلة التي أرخصت القيم الرفيعة، وألهبت الغرائز الوضيعة، وصرفت القصد عن الله، وعلقت الهمة بالحاضر القريب، ونسيت ما عداه!

في المجتمعات التي فتكت بها هذه العلة يقول جل شأنه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ **(الإنسان: ٢٧)** ويقول: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ **(النجم: ٢٩، ٣٠)**.

ومظاهر هذه العلة معروفة في انتهاب اللذات من غير شبع، والبحث عنها دون اكتراث بحل أو حرمة، واعتبار الوجود الأرضي هو الإطار الأوحد للحس والإدراك.

فإن فات فليس عنه عوض، وإن أقبل فيجب التفاني فيه وارتشافه حتى الثمالة! إنه لا شيء بعده يرتقب! وأحسب أنه في هؤلاء يقول جل شأنه وهو يذيقهم عقابه ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ **(غافر: ٧٤، ٧٥، ٧٦)**.

والمدنية الحديثة قد ضاعفت لأبنائها الفرص لعبادة الحياة والعب منها دون ارتواء، وذلك أن الشهوة تغري بالشهوة، كما أشرنا آنفا، والرغبات الإنسانية قد يضر بها القرب، ولا يزيدها الظفر إلا اشتعالا، على نحو ما

قال الشاعر:

أعانقها والنفس- بعد- مشوقة إليها، وهل بعد العناق تداني؟

وألثم فاها كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان!

والأديان في أوروبا وأمريكا عجزت عجزا تاما عن علاج هذا السعار، لقصورها الذاتي أولا، ولاشتغالها مع ذلك بمحاربة الإسلام بدل أن تتعاون معه على فعل شيء ما يحفظ على الإنسانية مستقبلها المتداعي.. والغريب أن المسلمين نافسوا غيرهم في التهاوي على هذه المتع والتشبع منها جهد المستطاع.

قد تقول: وما الغرابة في ذلك؟ أليسوا بشرا كالبشر؟

وأجيب: إنني لا أنكر على المسلمين- خاصة- أن يشاركوا الأوروبيين والأمريكيين في ألوان المتاع التي اخترعوها.. إنني قد أفهم أن يعود رواد الفضاء من رحلة مضنية ليلتمسوا بعض النزه البريئة أو المريبة في ليل أو نهار.. أما الذين يتسكعون بين دورهم وأجران القمح والأرز، أو الذين يتركون خيامهم على مدى سهم في مراعيهم الساذجة، أو الذين يركبون سياراتهم ليجلسوا في الدواوين محسودين لا مجهودين أو... أو... فما لهؤلاء والبحث عن الملذات المخترعة في الشرق أو الغرب؟

إن بعض الناس يذهب إلى العواصم العالمية المرموقة ثم يعود ليتحدث عن لياليها الصاخبة!

فهلا تحدث عن أيامها الجادة، وعن العرق المتصبب من أجساد الكادحين الصغار والكبار على سواء؟

إن المهندس هناك قد يغير وجهه وملبسه كله طول النهار ثم ينطلق بعد ذلك ليستجم وفق ما يفهم ويعتاد.

ويوجد عندنا من يقلده في الانطلاق الأخير، ولا يتأسى به قيد أنملة في الكفاح الذي سبقه!

أي بلاء أصاب العرب والمسلمين حتى عموا عما يجب أن يرى، وحملقوا عيونهم فيما يجب أن تغضَّ عنه، وتسترخي بإزائه؟

إنهم لو فقهوا سر الصيام، وسر الحياة العفيفة المبنية عليه لكان لهم موقف آخر.

بل لو أنهم أدركوا ما كانوا عليه، وما صاروا إليه، وما تبيته القوى المتربصة بهم، لكان لهم قبل الصيام صيام، وقبل القيام سهر يطير معه المنام!

من سنين طوال ورمضان يستقبله العرب والمسلمون بطريقة رتيبة.. روايات أقلها جاد وأكثرها هازل تعرضها الإذاعات المسموعة والمرئية.. أغان بعضها ديني(!) والآخر لا دين له، تشنف الآذان.. فكاهات تخلق الأجواء الضاحكة، وتسلي الجماهير التائهة.. مواعظ تقليدية ممجوجة يفر أغلب الناس من سماعها أو كتابات إسلامية في موضوعات مختارة عن عمد لتخدير الفكر وتفتير الهمم.

صور جميلة أو دميمة للمساجد والآثار الإسلامية.. أحفال باهتة جرى رسمها وإخراجها بحيث تنعدم فيها الروح ويضعف التأثير.

إن أعداء الإسلام لا يطلبون من أمة الإسلام أن تفعل بنفسها أكثر من ذلك!

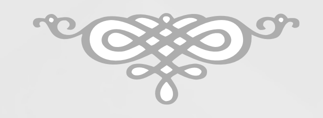
لما مات أبو امرئ القيس الخليع الضليل قال هذا الشاعر يصف ما سيفعل: اليوم خمر وغدا أمر! لقد جعل لسكره حدا ينتهي عنده، إنه اليوم وحسب!

ومات امرؤ القيس وهو يجاهد لاستعادة مجده، ويقول لصاحبه يسليه عن هموم الكفاح ومشقات الضرب في الارض:

فقلت له لا تبك عينك، إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا!

لكن جمهرة كبيرة من شباب العرب لا يزالون يقولون: اليوم خمر وغدا خمر.. فمتى الصحو؟

ألا يستحق المسجد الأقصى وقفة تدبر واستعبار، يتلاوم فيها المفرطون، ثم يغضبون لله غضبة تمحو العار، وتدرك الثأر؟



(٣١)

الإلحاد ليس تطورًا

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) مارس (١٩٧٣م)

ربما شك بعض الناس في حقيقة الدين الذي يعتنقه، أو في جدواه عليه!

فإن ساور هذا الخاطر أحدا من خلق الله، فإن العربي آخر امرئ يعرض له هذا الظن، بل يقرب من المستحيل أن يساوره!

ذلك أن فضل الإسلام على العرب كفضل الضياء والماء على الزرع..

لا أقول: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، بل أقول: أوجدهم من عدم، وجعل لاسمهم حقيقة، وأقام بهم دولة وأنشأ حضارة!

قد تكون بعض العقائد عقاقير مخدرة للنشاط البشري!

لكن الاسلام لما جاء العرب شحذ هممهم، وأنار عقولهم، ووحد صفهم، وطار بهم إلى آفاق مادية وأدبية لم يحلم بها آباؤهم، ولا تخيلها أصدقاؤهم أو أعداؤهم!

مضى العرب في طريق المجد الذي شقه الإسلام لهم، فعرفهم العالم وكان من قبل يجهلهم، وأفاءوا على ماضيه القريب ما لا ينكره إلا متعصب كنود!

وارتبطت مكانة العرب الذاتية والعالمية بهذا الدين، فهم يتقهقرون إذا تخلوا عنه، ويستباح حماهم! وهم يرتقون ويتقدمون إذا تشبثوا به، وتحترم حقوقهم!

على عكس ما عرف في أمم أخرى لم تستطع التحليق إلا بعدما تخففت من مواريثها الدينية، كلاًّ، أو جزءا!

وقد استطاع مسلمو الجزائر في هذا العصر أن يستخلصوا حريتهم من براثن عاتية، وأن يدفعوا ثمن هذا الخلاص مليونا ونصفا من الشهداء!

وما ينبغي تقريره في هذا المجال أن الاسلام وحده كان وقود هذا الكفاح القاسي، الإسلام لا القومية!

فلما ظفر الجزائريون باستقلالهم بدأوا يستعيدون عروبتهم التي فقدوها خلال قرن وربع، وضعت مشروعات لجعل الأفراد والجماعات ينطقون بالعربية ويتفاهمون بها، بعدما كادت هذه اللغة تبيد أمام زحف الفرنسية وسيادتها في الشوارع والدواوين!

إن الإسلام بالنسبة إلى العروبة ولي نعمتها وصانع حياتها، وقد اعترف مسيو جارودي- وهو شيوعي فرنسي عاش ردحا من الزمن في جبهة التحرير الجزائرية- .

- الإسلام ولي نعمتَنا وصَانع حضَارتنا
- سَيبقى الليل حتى يحمل العَرب رسَالة الإسلام

اعترف بأن الدين وحده هو الذي أوقد شرر هذا الكفاح العزيز الغالي، وأن الإسلام يستحيل أن يوصف بأنه مخدر للشعوب!

والإسلام لا يجعل من العرب شعبا مختارا يفضل غيره لسلالة معينة أو دم خاص، كلا كلا، إن الله اختار لعباده تعاليم راشدة وشرائع عادلة، ثم وكل إلى العرب أن يحملوا هذه التعاليم والشرائع، ليعملوا بها وليعلموها من شاء.

والله يأبى كل نعرة عنصرية أو استعلاء قومي.

وينصح الأمة كلها بالطاعة والإصلاح ويتهدد عدوها بالطرد والهوان، ثم يأمرها بالمقاومة ورفض الاستسلام، وسيكون المستقبل لها إن هي أبقت حبلها موصولا بربها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا

تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾(**محمد: ٣٣، ٣٤، ٣٥**).

إنها مبادئ محددة، تنطلق الأمة منها، فتكون بعين الله، أو تند عنها فيدعها الله لنفسها!

بالوفاء لهذه المبادئ تصعد، فإن فرطت هوت.. ولذلك يقول الله للمنهزمين في أحد ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ (**آل عمران: ١٣٩**) فالعلو والتدبر في هذه الآيات الثلاث يعطي فكرة بينة أن تفضيل الأمة هو تفضيل سلوك ومنهج، لا تفضيل دم أو لون.. وأن الإيمان الشريف والاستقامة الواضحة أساس العزة المنشودة.. وأنه مهما لاقى المسلمون من صعاب وهزائم فلا يجوز أن يقبلوا سلما مخزية، ولا أن يعطوا الدنية من أنفسهم.

ولهم أن يركنوا إلى الله، ولن يذل جانبهم، ما آمنوا به وعملوا له.

واليقظة العزيزة التي صنعها الإسلام وهو يبني الأمة يمكن أن نتابعها من مرحلتين:

الاولى في العهد المكي، يوم كان المسلمون قلة تتوقع الضيم ويتجرأ عليها الأقوياء! لقد أمر المسلمون إبان هذه المحن أن يثبتوا ويشمخوا بحقهم، ويتنكروا لكل هوان ينزل بهم، ويطلبوا ثأرهم ممن اعتدى عليهم، فإن عفوا فعن قدرة ملحوظة لا عن ادعاء مرفوض!

انظر كيف وصفت سورة الشورى المكية طلاب الآخرة الذين يؤثرون ما عند الله على هذه الدنيا، إنهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ **(الشوري: ٣٨، ٣٩، ٤٠)**.

فطلاب الآخرة- كما وصفتهم السورة المكية- ليسوا الذين يعيشون في الدنيا أذنابا مستباحين، أو ضعافا مغموصين، أو كما يقول الشاعر يصف قوما تافهين:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود!

لا، لا، إن هؤلاء المؤمنين بالدار الآخرة يفرضون أنفسهم على هذه الحياة الدنيا، ويكرهون العدو والصديق على أن يحسب حسابهم ويزن رضاهم وسخطهم، ويعلم أن نتائج العدوان عليهم أذى محذور وشر مستطير!

لأنهم إذا بغي عليهم ينتصرون، ويلطمون السيئة بمثلها!

وليس هذا بالنسبة إلى الحق الأدبي للجماعة كلها، بل هو كذلك بالنسبة إلى حق الفرد في ماله الخاص.

فقد سئل النبي ﷺ: أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟

قال : لا تعطه مالك!

قال : أرأيت إن قاتلني؟

قال : قاتله!

قال : أرأيت إن قتلته؟

قال : هو في النار؟

قال : أرأيت إن قتلني؟

قال : فأنت شهيد![1]

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٧٧).

هل هذه الوصايا هي التي تخدِّر الأفراد والجماعات؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

فإذا تجاوزنا العهد المكي إلى العهد المدني نجد توجيها ينبع من هذه الروح الأبية الشامخة.

إن الهوان جريمة، وقضاء الحياة في ضعف واستكانة مرشح أول للسقوط في الدار الآخرة

ومن هنا أثبت القرآن الكريم هذا الحوار بين ملائكة الموت وبين الذين عاشوا في الدنيا سقط متاع، وأحلاس ذل!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ **(النساء: ٩٧)**.

والهجرة المفروضة هنا هي التحول من مكان يهدر فيه الإيمان وتضيع معالمه إلى مكان يأمن فيه المرء على دينه.

ولكن حيث استقرت دار الإسلام، فلا تحول، وإنما يبقى المسلمون حيث كانوا ليدافعوا عن ترابهم ذرة ذرة، ولا يسلموا في أرض التوحيد لعدو الله وعدوهم.

والآية تحرم قبول الدنية وإلف الاستضعاف، وتوجب المقاومة إلى آخر رمق.. ومما يؤكد هذا المعنى أن القرآن أحصى الطوائف التي تُعذر في هذا التمرد المطلوب على قوى الشر.

ومع استثنائها فإن مصيرها ذكر معلقا على رجاء المغفرة والعفو لا على توكيد ذلك!

﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ

سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ (النساء: ٩٨، ٩٩).

والتعبير بعسى هنا مثير للقلق، وهي إثارة مقصودة حتى لا يقعد عن مكافحة المعتدين من يقدر على إلحاق أي أذى بهم مهما قل.

إن المؤمن لن يكون أبدا ثالث الصنفين اللذين عناهما الشاعر في قوله:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان، عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشق فلا يرثى له أحد!

المسلم لا يقبل الحياة على أية صورة وبأي ثمن، إما أن تكون كما يبغي، وإما رفضها وله عند ربه خير منها وأشرف!

ومن صيحات الكرامة والإباء قول رسول الله ﷺ: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»!

وفي حديث آخر «من قتل دون مظلمته فهو شهيد!».

هل رأيت استنهاضا للهمم، واستنفارا للنضال، واستثارة للذود عن الدماء والأموال والأعراض، أحر من هذه المبادئ؟

أيمكن في منطق العقل والإنصاف أن يوصف هذا الدين بأنه مخدر للشعوب؟ ألا شاهت الوجوه!

وربما اتصل بهذه التهمة المتهافتة تصور البعض أن الدين رباط مع الماضي، وأن التطور ينافيه..

ونتساءل نحن: ما هذا التطور؟ إن الإلحاد ليس تطورا! بل هو ترديد لكفر الصغار من جهلة القرون الأولى.

من ألوف السنين وقفت قبيلة عاد من رسولها موقفا كأنما لخصت فيه كل ما يقال في هذا العصر على ألسنة الشطار من دعاة الإلحاد: ﴿ أَيَعِدُكُمْ

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ **(المؤمنون: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨)**.

إن التحلل من قيود الدين وفضائله ليس تجديدا ولا ابتكارا، بل هو خنوع للغرائز الدنيا التي أنامت ألوف الخلعاء والخبثاء من عشرات القرون، وجعلتهم يحيون وفق شهواتهم وحدها! فأي ارتقاء في ذلك المسلك الرخيص..؟؟

يا شباب العرب، اقدروا التراث النفيس الذي شرف الله به أمتكم، وأقام عليه تاريخكم.

إن الدين الذي تنتمون إليه رفع مناركم قديما، وهو وحده القدير على استنقاذكم من ورطات هذه الأيام!

لا تنخدعوا بمن يزهدكم في رسالتكم، فهو يرسم لكم طريق الموت!

إن أمما أخرى لاذت بعقائد أردأ جوهرا وأسوأ منهجا، واستطاعت أن تغالبكم وأن تنال منكم، فعودوا سراعا إلى دينكم وثقوا أنه وحده العاصم من الغرق.

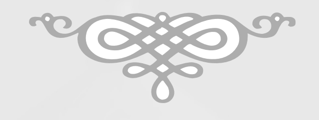
كم يحزنني أن أرى شبابا عربيَّ النسب أعجمي الفكر واللغة والضمير!

لا يستند إلى عقيدة، ولا يعتز بتاريخ، ولا يستظل براية، ولا يسير إلى غاية، خدعوه فقالوا: الجيل الصاعد.. ولو صدقوه لقالوا: الجيل الضائع الهابط..

أنظر إليه مليا، ثم أهمس في حسرة: إنك بهذا الشرود والفراغ تصنع الهزيمة تلو الهزيمة، وتجر الكارثة بعد الكارثة!

متى تعود إلى كتاب ربك، وسنة نبيك؟

سيبقى الليل حتى تقع هذه العودة المرتقبة، ويحمل العرب مرة أخرى رسالة الإسلام.



(٣٢)

آية الكرسي

العدد (١١٤) جمادى الآخرة (١٣٩٤هـ) يونيو (١٩٧٤م)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ **(البقرة: ٢٥٥)**.

هذه الآية تعرف بين المسلمين بآية الكرسي، وقد نوهت السنة النبوية بفضلها ومكانتها، وتتكون من عشر جمل متصلة المعنى في الحديث عن ذات الله وصفاته.

(١) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ ليس في الوجود أحد يتجاوز مرتبة العبودية، فكل ما عدا الله عبد له، وهو وحده المتفرد بالألوهية في السموات والأرض.

من قال عن نفسه إنه إله فهو كاذب، ومن قال عنه الناس ذلك فهم عليه كذبة، وقد تمر بالناس أعصار يتخذون فيها بعض الجمادات والدواب آلهة، وهذه أعصار الانحطاط الذهني والنفسي التي نرجو أن يتم خلاص البشر جميعًا منها.

ولكن الضلال الشائع إلى اليوم اتخاذ بعض البشر الطيبين آلهة مع الله بحجة أنهم انبثقوا منه أو أنه حال فيهم.

وقد حارب الإسلام هذه الضلة حربا شديدة، وأكد أن البشر مستحيل أن يرتفعوا إلى مصاف الآلهة، وأن الله العلي الكبير لا يمكن أن يهبط إلى منازل البشر.

إنه الإله الذي خلق غيره، ومنحه الحياة، وقام على أمره من المهد إلى اللحد ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ **(الفرقان: ٣)**.

ورسول الإسلام- وهو قمة البشرية- عندما يدعو الله يؤكد هذه الحقيقة: «اللهم أنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك وفي قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك».

(٢) ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ...﴾ والأحياء من الخلق ليس لهم من أنفسهم ما يوجب الحياة، إن الحياة عرض مفاض عليهم من خارج أنفسهم.

وهو عرض يفارقهم يومًا ولا يعود إليهم إلا وفق مشيئة مفيضه جل شأنه، الحي الذي لا بداية لحياته ولا نهاية، فحياته وصف ملازم له أزلًا وأبدًا، وذلكم الفارق بين حياة الخالق والمخلوق.

ومن ثم يقول الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ **(الزمر: ٣٠)** أما المتفرد بالحياة العظمى فهو الله.

ولما كانت هذه الحياة وضاحة نفاحة ناسب أن يجيء عقبها وصف القيوم أي الذي يمد الأكوان والخلائق كافة بحركاتها وسكناتها، ويشرف إشراف إحاطة وهيمنة على شؤونها وأحوالها، فهي أحوج ما تكون إليه وهو أغنى ما يكون عنها.

وقد ورد في الآيات والآثار أن الله قائم على كل نفس بما كسبت وأنه القيم على السموات والأرض ومن فيهن.

والقائم على الشيء، والقيم عليه أو القوام عليه، ألفاظ تتفاوت في الكشف عن هذه الإحاطة الشاملة لفنون التصريف وألوان السيطرة على العالم.

ولكن لفظ القيوم جاء على هذه الصيغة في المبالغة إشارة إلى أنه من

المستحيل أن يفلت زمام الأمور من الخالق أو أن تسير في وجهة غير ما قضى، إذ كل شيء يستند في وجوده وبقائه وتقلبه إلى هذا الوجود الأعلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ (**فاطر: ٤١**).

وهذه الجملة - الحي القيوم - أولى الجمل التسع التي ترادفت أشبه بالاستدلال على الوحدانية المتقررة في الجملة الأولى من آية الكرسي.

إذ هذه الأوصاف تنفي الشركة نفيا حاسمًا، وتشهد للباري أنه لا إله غيره.

(٣) ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ السنة ما يخالط الأجفان من أوائل النعاس، والنوم هو الاستغراق التام.

والمراد أننا نحن البشر تدركنا ساعات غفلة نفقد فيها الشعور بأنفسنا وما حولنا.. بل نحن في إبان اليقظة يختلف انتباهنا ونشاطنا الذهني نحو ما نفكر فيه وما يحيط بنا.. وعند الكلال يضعف هذا الانتباه، وتهن العزيمة، وتكثر الأخطاء.

لكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن، ولا يغفل عن أمر في السماء لاهتمامه بأمر في الأرض، ولا تلحقه عوارض الوهن والإعياء، ولا تنفك قبضته الواعية عن ذرة من العرش أو الفرش لسهو أو إغفاء.

(٤) ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ الله واسع الملك، وما تقول في غنى يشمل آفاق السموات وفجاج الأرض؟

إن العالم كله، علوه وسفله، ملك لله وحده.

والذين يظنهم الجاهلون شركاء لله، ليس لهم في هذا العالم ذرة، إن كانوا أصناما فما هي الأصنام؟ تماثيل نحتها المصورون فهم في الحقيقة يملكونها ولا تملكهم.

إن كانوا بشرا، فهؤلاء البشر ملك لمن صورهم في الأرحام، وجعل صدورهم تهبط وتعلو بالشهيق والزفير، ولو شاء أن يقف دقات قلوبهم في أية لحظة من ليل أو نهار ما رده راد.

إن هناك مُلاَّكاً على المجاز يضعون أيديهم على بعض التراب ليرتفقوه حينا، وربما طغوا بما يملكون ظاهرا، ثم يجيئهم الموت فيدعون الحياة صفر الأيدي، يدعونها لمالكها الحق الذي له ميراث السموات والأرض ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ **(الأنعام: ٩٤)**.

(٥) ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ القاعدة العامة في الإسلام أنه لا شفاعة لمشرك، أو ملحد.. وأنه لا حق لأحد من الملائكة أو المرسلين يذهب به إلى الله ليقول له اعف عن فلان أو اترك فلانا.. وأن الأساس الأول للنجاة هو الإيمان والعمل الصالح.

ولذلك قال الله تعالى قبل هذه الآية مباشرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ **(البقرة: ٢٥٤)**.

ويقول مخبرا عن مصاير المشركين والمجرمين ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ **(المائدة: ٧٢)**. ويقول أيضا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ **(فاطر: ١٨)**.

وقد يقع- لمن ينجون بأعمالهم- شيء من الفضل ترتفع به درجاتهم فوق ما يستحقون.

أو يقع- لمن قاربوا ولم يصلوا- شيء من العفو ينجحون به ولا يرسبون، ويجعل الله السبب الظاهر في ذلك شفاعة المرسلين أو الصالحين.

وهي شفاعة لا ترجع إلى أن هؤلاء المرسلين أو الصالحين يجيرون على الله أو ينقذون منه من يريد عقوبته، كلا، فما يجرأ ملك ولا نبي على أن يقف من الله هذا الموقف.

إنهم لايشفعون إلا بإذنه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى.

قال تعالى ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (**الأنبياء: ٢٧، ٢٨**).

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ (**طه: ١٠٩**).

وربما قال قائل: ولم هذه الشفاعة وما قيمتها؟ والجواب.. أنها لا تعدو لونا من إكرام الله في الدار الآخرة لمن أهينوا بسببه في الدنيا، فيريد الله أن يصلح بالهم وأن يعلي قدرهم، وأن يشعر عباده بما لهم عنده من مثوبة ومنزلة، وأن يطوي قلوب المقصرين والمتأخرين على محبتهم وإعزازهم لما سبق إليهم من فضل على أيديهم.

بيد أن الشفاعة المذكورة لا تهدم قواعد العدل، ولا تعطل موازين الحساب ولا يحتاج إليها سابق بالخير، ولا ينتفع بها مارق من الحق.

(٦) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ليس يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، وعلم الأمس واليوم والغد عنده سواء.. كأن العالم منذ خلق، وإلى أن تبدل معالمه صفحة واحدة يستوي فيها القريب والبعيد والأول والآخر.

وذاك- بداهة- لأن الخالق يعلم ما خلق، ولا يتصور أن أحدا صنع من ورائه شيئًا فيكون هو- سبحانه- جاهلا به.

إن الإبداع - وهو إبراز شيء من العدم- لا يقدر عليه إلا الله.

والتغيرات التي تحدث في المادة - وهي محور الأعمال البشرية- لا تتم إلا بأقدار الله، ومن هنا كانت إحاطة العلم.

ومن هنا كان معنى قولنا: إن الله لا يعلم هذا الشيء.. إن هذا الشيء لا وجود له، إذ لو كان موجودًا لعلمه حتمًا، وهذا معنى الآيات الكريمة.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (**يونس: ١٨**).

ولقد تجول الفكرة في خاطري- وكم يحمل تيار الشعور الساري في كيان المرء من خطرات وسوانح- فأقول: إن الله يعلم هذه الخطرة المارة، كما تمر السحب بالآفاق.

ثم أقول: وعلمه بها منذ أجيال!

وأَسْتَتْلِي القول: وهو يعلم من غيري مثل ما يعلم مني!

ومن غيري ألوف مؤلفة تزحم أرجاء العالم.

وعلمه يسع هؤلاء في عصرنا.. وما قبل عصرنا وما بعد عصرنا!

وما يملك المرء وهو يتابع هذا التصور إلا أن يهتف بالآية.

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (**غافر: ٧**).

(٧) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ ينابيع المعرفة تنبجس ابتداء من مشيئة الخالق، حتى العلم بما يقع في مجال السمع والبصر، إنه لولا ما ركب في الإنسان من عقلٍ مُدركٍ لمَّاحٍ ما استطاع أن يفقه مما حوله شيئًا.

والاطلاع على ما هو أعمق من ذلك موكول إلى مراتب الذكاء الإنساني،

وأنصبتنا من هذا الذكاء مقسومة علينا ونحن أجنة في بطون الأمهات.

ومن هنا كان فتح نوافذ قليلة يطل منها العقل البشري على آفاق من العلم محدودًا بما تهيئ المشيئة العليا من أسباب عادية أو غير عادية.

ومصادر المعرفة المعتادة مبثوثة في كتاب الكون المفتوح، وفي تجارب الناس مع الحياة العامة، ويمكن بالوعي والتأمل والتجربة أن نبلغ آمادا بعيدة في هذا المضمار دون حرج ودون قيد.

أما المعارف الغيبية التي مصدرها الوحي الأعلى، فإن الله قد اصطفى لها رسله الأولين وقد انتهى هذا المصدر بالرسالة الخاتمة.

ولن يحيط أحد بشيء من هذا العلم عن الاتصال بالله أو بملائكته، ومن زعم ذلك فهو كاذب.

وقريب من ذلك الإنباء بالغيوب، فإن هذا ليس من العلوم الميسرة، للخلق حتى تتاح فرصها للبشر على سواء، ولا مكان لوحي ينزل به بعد انقضاء النبوات.

ومن ثم فلا يقبل من أحد القول بأنه داخل ضمن الإمكان العام في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

(٨) ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾.

المتبادر إلى الأذهان أن السموات والأرض هما حدود الملك الإلهي، وهذا خطأ، فإنهما بعض آثار القدرة العليا فحسب، وكذلك قال في آية أخرى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ **(الشورى: ٢٩)**.

وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ **(الروم: ٢٥)**.

هما من آيات الله، وآيات الله الشاهدة بجلاله لا يحاط بها، وكرسيه من الرحاب بحيث يسع السموات والأرض وسائر ما لا نحصي من آيات.

ونحن لا ندري ما الكرسي؟ ولا نكلف باكتناه ذلك.

وكل ما ندركه من هذه الجملة هو ما توحي به من الإشراف الإلهي العالي على سائر الخلق، ما نرى منه وما لا نرى منه، وأن السموات والأرض ما يستغرقان إلا جزءًا من الملكوت الواسع الذي اشتمل عليه هذا الكرسي ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾(**البروج: ٢٠**).

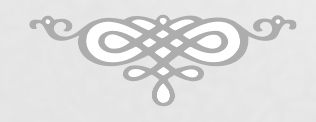
(٩) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ ﴾ لا يتجشم أية مشقة في ضبط السموات والأرض وتدبير الأمر بينهما، كما أنه لم يتجشم أية مشقة في الخلق الأول، وهذا ما ذكره في قوله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (**الذاريات: ٤٧**).

أي إن ذلك البناء شيء هين إلى جانب ما في وسعنا، كما ينفق صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فلوسًا قليلة، فلا يرى أنه أعطى شيئًا طائلا، كذلك- ولله المثل الأعلى- بناء العالم وحفظه، وما يتعب الخالق المدبر، ولا يثقله ولا يرهقه، لفرط عظمته.

والجملة السابقة في وصف الكرسي تشير إلى علو الذات.. ولذلك جاءت الجملة الأخيرة.

(١٠) ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

تذييلا يختم المعاني السابقة بذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مناسبين للمقام، مقام العلو والعظمة الواجبين لذي الجلال والإكرام.



(٣٣)

نظرات في سورة «الأنعام»

العدد (١٠٩) محرم (١٣٩٤هـ) يناير (١٩٧٤م)

سورة «الأنعام» من السور الطوال التي نزلت بمكة تقيم قواعد الإيمان، وتنصب حوله البراهين، وتجادل عنه الأعداء والجاهلين.

وأسلوب السورة يتسم بالأخذ والرد، والحوار الحي، والنزول إلى أرض الواقع، واستخراج كل ما لدى المشركين من شبهات ومزاعم.

ولذلك تكررت كلمة «قل» للنبي- عليه الصلاة والسلام- أربعا وأربعين مرة يتنزل بعدها التوجيه الإلهي إعلانا للحق وخذلانا للباطل.

وسورة الأنعام بهذه الخاصة من أشد السور قمعا للضلال، وإخمادا لأنفاسه، وإعلانا لمنار التوحيد وجمعا للأفكار والأفئدة عليه.

ونبدأ بإلقاء «نظرة» على مراحل الصراع بين الإسلام وأعدائه في هذه السورة المباركة.

إن الحق الغريب في البيئة العاتية يبدأ ضعيف الشأن قليل الناصر يلقاه الأقوياء بالنظر المتجهم، ويتناولونه بالسخرية الظاهرة، ويرفضون رفضا شديدا أن يدخلوا فيه بل أن يسمحوا له بالسير.

والله عز وجل في هذه السورة يوجه الحديث إلى الطرفين المتنازعين فيطلب من المشركين أن يحذروا المستقبل وأن يتأملوا في تاريخ الماضين لتنحسم سخريتهم: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (**الأنعام: ١٠، ١١**).

وفي الوقت الذي يُنَبَّهُ المشركون فيه إلى مصيرهم يقال لصاحب الرسالة ومن معه من المؤمنين: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ **(الأنعام:٣٤)**.

أي اثبتوا أيها المؤمنون، وتحملوا صنوف الأذى، وصابروا الليل الطويل حتى يطلع فجر النصر- ولا بد أن يطلع - فإن كلمات الله لعباده وقوانينه في خلقه لن تتغير، ويمكن استقراء الصراع القديم بين الهدى والضلال لتعرف هذه الحقيقة.

بيد أن حبل النزاع طويل ويظهر أن طوله يستغرق أعمارا كاملة، وأن النتيجة المرتقبة تتحرك ببطء رهيب.. بطء يغري الكافرين بالتطاول والصلف، وتكاد معه أرواح المؤمنين أن تزهق.

وتستطيع أن تتبين موقف الفريقين في هذا الحوار ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ ...﴾ **(الأنعام: ٥٧، ٥٨)**.

إن الله عز وجل يعطي المبطلين فرصا واسعة ليؤمنوا إذا أرادوا، ويبدو أن سعة هذه الفرص لا تزيدهم إلا ضراوة، ولقد راقبت سيرة المشركين مع النبي عليه الصلاة والسلام فوجدت أن المشركين أنفسهم هم الذين فتلوا الحبال التي شدت حول أعناقهم وأجهزت على حياتهم.

إنهم هم الذين صنعوا معركة بدر وكانوا قادرين على العودة من حيث جاءوا بعد نجاة قافلتهم، لكن مشاعر الكبر التي أدارت رؤوسهم وترجم عنها أبوجهل في كلمته الحمقاء «لا نعود حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور وتغني لنا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا».

هذه الكلمة هي التي ألحقت بالشرك أول هزيمة قاتلة، وأحنت رأسه إحناء مذلا إلى آخر الدهر، وكما فعل المشركون بأنفسهم ذلك في بدر كرروا صنيعهم قبيل الفتح الأعظم ليعطوا المسلمين حق دخول مكة بعدما نقضوا العهد المبرم ورفضوا الهدنة الممتدة.

إن الخط الذي رسمه القدر كان فوق فكر البشر، وذلك هو السر في قول الله لنبيه:

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **(الأنعام: ٥٨)**.

إن على أهل الحق شيئا واحدا.. أن يعيشوا به وأن يعيشوا له.

أما كيف يديل الله لهم من عدوهم فهذا ما استأثر العلم الإلهي به، وتعجز القوى عن دركه وارتفاع أهل الحق إلى مستواه في خلقهم وسلوكهم شيء صعب ولكن ما منه بد.

ثم هم بعد هذا الارتفاع لا بد أن يخضعوا لسنن الله الكونية التي تتناول أولياءه وأعداءه على سواء، ويُعَدّ التعرض لها جزءا من الاختيار الشامل في قصة الموت والحياة.

وتأسيسا على ذلك يأمر الله نبيه أن يفهم المؤمنين بأنه «بشر» لا يملك طاقات فوق العادة، وأنه يتعرض مع جماهير المؤمنين لتكاليف الصراع الخالد بين الإيمان والكفر، فلا هو صاحب مال لا ينفد ولا هو مدرك للغيوب، ولا هو ملك متخفف من خواص المادة الإنسانية.. إنه صاحب دعوة اصطفاه الله لفتح البصائر المغلقة وهداية الجماهير التائهة.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ **(الأنعام: ٥٠)**.

وقد قضت الحكمة العليا أن تغير الظروف التي يعيش البشر فيها تغييرا

يرغم على الانتباه لما يطلب منهم، فإن الناس إذا ألفوا النعماء قلّ تقديرهم لها وقلّ شكرهم لمرسلها الكبير وقلّ اكتراثهم بحقه وقلّ استماعهم لرسله.

ومن ثم فإن الله يسلبهم ما يطغيهم لعلهم يعتدلون!

وقد صح أن النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى كبرياء قريش وطول صدودها دعا الله عليهم فقال: «اللهم سبعا كسبع يوسف!»

أي أرسل عليهم سبع سنين عجاف تكسر كبرياءهم وترد إليهم صوابهم.

وهذا علاج حق فإن الذاهب بنفسه قد يتواضع ويعقل إذا فقد ما غره من مال أو جاه.

وفي هذه السورة الكريمة يقرر الله جل شأنه هذه السنة الحكيمة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ **(الأنعام: ٤٢)**.

والبأس سوء الأوضاع الاقتصادية، والضراء سوء الأحوال الصحية.

وليس أضرى بالأفراد والجماعات من هذين البلاءين، وجدير بمن فقد صحته وماله أن يجأر إلى الله تائبا طالبا النجدة.

ومع ذلك فإن هناك شعوبا بليدة تنزل بها القواصم فما تطلب من الله رفعها وما تقف بساحته منيبة ضارعة بل تبقى على غوايتها وكفرها ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **(الأنعام: ٤٣)**.

وهذا لون خطير من موت القلوب وعصف الشهوات بالأمم، وقد كان المفروض أن الآلام ترد الناس إلى بارئهم كي يحجب سخطه عنهم فإذا أوذوا وظلوا في عماهم فمعنى ذلك أن الفساد تغلغل في كيانهم واستبد بزمامهم.

وقد يطول بالأمم العناء- والحالة هـذه- كما قال تعالـى في سورة أخرى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ **(المؤمنون: ٧٥، ٧٦، ٧٧)**.

لكن سورة الأنعام تذكر لونا آخر من مكر الله بالأمم، فإن الله يرفع العذاب النازل بالأمم الشاردة ويعيد إليهم ما فقدوا من نعمة ومتاع، بل ربما أرسل اليهم أكثر مما ألفوا ليزدادوا ترفا وشرها. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **(الأنعام: ٤٤، ٤٥)**.

إن قطع دابر «المتكبرين» بعدما طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد نعمة تقر بها العيون وتنشرح بها الصدور وتتبادل عليها التهنئة ويشكر عليها رب العالمين.

وظاهر من وصف القرآن لمراحل التغيير من رخاء إلى شدة ومن شدة إلى رخاء؛ أن الزمان طويل، وأن أهل الحق خلال أيامه ولياليه يجب أن يصبروا ويصابروا «والعاقبة للتقوى». نعم زمان طويل يبدأ فيه النضال والباطل قوي مستقر والحق ضعيف منكور، ثم تنشب الحرب النفسية والدموية لتتغير بعدها الأوضاع فيقوى الحق ويضعف الباطل.. بيد أن هذا التغيير يقطع من الزمن طريقا طويلا، وإلى قبيل النهاية لا تؤذن الأمور بانهيار في جبهة الضلال، بل قد تظل مرهوبة الجانب محذورة الشر.

ولذلك فإن المعادن الهشة تتفتت على مراحل الطريق، وينجم النفاق، ويؤثر الضعاف والجبناء أن ينجوا بأنفسهم ويستريحوا إلى دنياهم.

من أجل ذلك يأمر الله نبيه بالثبات على الحق وتثبيت المؤمنين عليه ويكشف له عورات الشرك ومقابحه لينفر العقلاء منها ويفروا من طريقها

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ...﴾ **(الأنعام: ٧١)**

فليبق الحيارى ضالين عن رشدهم وليلزم المؤمنون صراطهم المستقيم مهما تجشموا من مشقات ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ **(الأنعام: ٧١، ٧٢)**.

لكن متى ينتهي هذا الصراع؟ وترتفع راية الحق؟ لا ندري! ولا بد من نهاية له على أية حال ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسۡتَقَرٌّۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ **(الأنعام: ٦٧)**.

وعلى أصحاب الإيمان طال المدى أو قصر أن يعيشوا له، وأن يعيشوا به. وهذا المعنى هو الذي سيطر على المسلمين في العصر المكي فَتَكوَّن منهم جيل اعتنق الإسلام وربط به سفره وإقامته، وتعبه وراحته، وصداقته وخصومته وحياته ومماته.

وقد قررت سورة الأنعام ذلك في خواتيمها لتجعل فيه منهجا خالدا لكل جيل مكافح إلى قيام الساعة.

وعلى صدر الطريق نلمح خاتم الأنبياء يتلو ما أمر الله به ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحۡيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ **(الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)**.. أجل إنه الأول تجردا لله وتبتلا إليه ودأبا على عبادته وتسبيحا له وتمجيدا وركوعا وسجودا، ثم حماية لهذا الدين بالنفس والمال فالحياة لله والموت في سبيله.

وعندما استوحش التوحيد في زحام العالم وطمعت الخرافة أن تأتي عليه من القواعد، نهض الإنسان الكبير «مُحمد بن عبد الله» ورمى بكل ما يملك من طاقات في المعركة البائسة المضطربة فإذا الشيطان يخور.. وإذا الشرك السافر والمقنع يتقهقر.. وإذا التوحيد الخالص يتقدم ويشيع.. وإذا العدالة

في الحساب والسلوك تتقرر ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ **(الأنعام: ١٦٤)**.

إن الخلاف الديني سوف يبقى ما بقيت الأرض ولن يبت فيه إلا الله وحده! وستنشأ الأجيال الجديدة وهي في مهدها حاملة مظاهر هذا الخلاف.

والمهم أن يكون المؤمن بالله ورسوله رفيع اليقين والخلق معا، طاهر القلب والسيرة جميعا، مقتفيا أثر نبيه العظيم وهو يؤكد أن صلاته ونسكه وحياته ومماته لله جل شأنه، إن هزائم الحق في أغلب الأحيان تجيء من تفريط المؤمنين وهبوطهم دون هذا المستوى المطلوب فمن ولد مسلما ورزقه الله هذا الشرف فليعلم أنه مكلف بخدمة الحق وتزيين صورته وتنقية حقيقته، وحسن عرضه والقيام به وتلك هي الفريضة المنوطة بعنقه.

إنك لم تولد مسلما تفضل غيرك دون جهد مبذول وعبء محمول، بل قد يفضلك غيرك يوم تبتذل النعمة الموروثة وتتركها للضياع أو الامتهان.

في هذه السورة الجليلة نلمح منطق القرآن الكريم في بناء العقائد وغرس الإيمان وهو منطق بعيد عن التقعر، بريء من الغموض يقوم على وصف الله جل شأنه بما ينبغي له من نعوت الجلال والكمال، ويلفت النظر إلى آفاق الملكوت كي يدرك الإنسان عظمة ربه خلالها، وصدر سورة الأنعام يتسق مع هذا المنهج فقد بدأ الكلام بحمد الله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور، ثم لفت القرآن الكريم النظر إلى تاريخ الأمم الأولى وموقفها من قضية الإيمان وكيف أن غفلتها هوت بها! وأن جحودها لنعمة الله أوردها شر الموارد.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ **(الأنعام: ٦)**

بيد أن جماهير الناس ربما ضاقت بهذا المنطق ولم يعجبها أن تقاد من عقلها، ولا أن تستثار مواهبها العليا كي تؤمن، إنها تريد شيئا آخر، تريد خوارق للعادات تشد انتباهها أو تشبع فضولها أو تتجاوب مع الاتجاهات المادية في ذوقها وحكمها، والرسالة الخاتمة لا ترضى هذه النزعة ولا تحمدها.

ومن ثم فإن المنطق القرآني مضى في طريقه يحرك العقل الجامد ويطلب إليه أن يؤدي وظيفته العتيدة في البحث والموازنة والحكم.

والعرب في جاهليتهم أصروا على مقترحاتهم في ضرورة أن تسند الدعوة «معجزات حسية» وقاوموا النداء المتتابع بضرورة أن يفتحوا عيونهم إلى آيات الله في كونه وإبداعه في خلقه ودلائل عظمته المسطورة بين سمعهم وبصرهم.

ونحن نرى أن إصرار الجاهلية على موقفهم إنما نشأ عن عناد كريه، وجحد بكل ما يجب التسليم به من مقررات إنسانية محترمة. ولو أنهم أجيبوا إلى ما طلبوا ما اعترفوا بالحق ولا انقادوا له، وهنا نجد في سورة الأنعام مجموعة من النصوص تشرح هذه الحقيقة ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(**الأنعام:** ٧) فهم لا يؤمنون ولو نزل عليهم كتاب من السماء يلمسون أوراقه ويحسون وجوده! وقد طلبوا أن يتحدث إليهم أحد الملائكة لكن كيف يتم هذا؟

إن البشر جهزوا بحواس محدودة لا تستطيع أن ترى الماديات إلا في حجم معين، وعلى بعد معين فكيف ترضيهم السماء ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ (**الأنعام:** ٨) أي أنهم سيسترسلون في عنادهم ويرفضون الإيمان بعد استجابة مطلبهم وعندئذ تعجل عقوبتهم وينزل بهم العذاب الأليم.

على أن ذلك كله مع قدرتهم على رؤية الملك في طبيعته النورانية، فإذا استحال ذلك وتجسد لهم الملك فإن الشبهات باقية والمماراة مستمرة ﴿... وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ **(الأنعام: ٩)**.

وتناولت سورة الأنعام الخوارق مرة ثانية في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(الأنعام: ٣٧)**.

أي أن الخوارق المطلوبة ليست مما يعجز القدرة العليا، ولكن الحكمة الإلهية فوق رغبات الطفولة، وعندما يريد الصغار ألا يكبروا.. وعندما تريد الإنسانية ألا ترتفع إلى مستواها العقلي، فإنه لا بد من إرغامها على الصعود والأخذ بيدها إلى أعلى وتكليفها أن تحترم العلم، ولعل ذلك السر في أن النبي عليه الصلاة والسلام قارن بين ما منح من معجزات، وما أجراه الله على أيدي المرسلين الأولين من آيات. ثم قال: «ما من نبي من الأنبياء قبلي إلا وأوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر وكان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي.. فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».[١]

إن هذا الحديث يشعر بأن الله جل شأنه يريد أن يبني الناس إيمانهم على حسن البحث والنظر وصدق الفطانة والاستنباط لا أن يهملوا أفضل ما أوتوا، وينتظروا القوارع والخوارق كي يعرفوا ربهم.

والمرء عندما يجحد الخاصة التي رجح بها بقية الحيوانات ويريد أن يحيا بغرائزه البدائية وأفكاره الساذجة وحدها.. لا ينبغي أن يجاب إلى ما يشتهي، وهذا سر ختم الآية بقوله جل شأنه ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتعود سورة الأنعام إلى تصوير لجاجة المشركين في طلب الآيات الحسية

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٨١).

وتعليق الإيمان على وقوعها، قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (**الأنعام: ١٠٩، ١١٠**).

ومن حقنا أن نتساءل عن قيمة هذا القسم من مشركين سووا بالله مخلوقاته وحلفوا أيضا على أنه لن يبعث أحدا وأن الدنيا هي الحس كله ولا شيء بعده.

إن هؤلاء المشركين كأنما يذكرون اسم الله من باب الاسترسال مع الخصم، أو كأنهم يقولون نقسم بالله الذي تزعمونه معشر المؤمنين وتتعلقون به.

أي قسم هذا؟

إن الأمر لا يعدو التشبث بما اقترحوه من قديم، أي إنهم ما زالوا متعلقين بالخوارق التي بنوا عليها إيمانهم، وهي إن جاءت فلن تؤسس في نفوسهم يقينا ولن تزحزحهم قيد أنملة عن جاهليتهم التي ورثوها وأوهامهم التي ألفوها.

وما الظن بقوم يقولون لله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (**الأنفال: ٣٢**).

أما كان حريا بهم لو كانوا مخلصين أن يقولوا: اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

ولكنها الطفولة البشرية كما قلنا هي التي دفعت إلى هذه المطالب دون تقدير لها، أو ارتباط بنتائجها.

ولا بد من أن نسجل هنا خطأ سرى في الفكر الإسلامي سريانا مستغرباً هو اهتمام المسلمين بالخوارق وربط الصلاح النفسي بها حتى أصبحت الولاية عند الجماهير لا مفهوم لها إلا وقوع الخوارق على أيدي الأحياء أو الأموات!

إن هذا الخطأ امتداد للطفولة البشرية التي أنكرها الإسلام على الجاهلين القدامى عندما تشبثوا بخوارق العادات وربطوا صدق النبوة بها، واستهانوا بقيمة العقل في تقديرها وإثباتها.

وعلماء الكلام.. بل علماء الأديان عموما لا ينكرون وقوع الخوارق، ولكنهم يرون أن هذه الخوارق الواقعة عديمة الدلالة على ما يزعم لها؛ إذ هي تقع من المؤمن والكافر والبر والفاجر، وفي كتب علم التوحيد عندنا تسميات شتى لخوارق العادات بحسب صدورها من الناس، ولم يقل أحد إن لهذه العجائب دلالة حاسمة أو غير حاسمة على صدق الإيمان وقرب المنزلة عند الله.

الولاية كما عرفها القرآن الكريم هي الإيمان والتقوى سواء حدث لصاحبها شيء من هذه العجائب أم لم يحدث!

وقد نبه المحققون إلى ذلك عندما قالوا: «لو رأيت إنسانا يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تشهد له بخير حتى ترى مسلكه مع الكتاب والسنة».

وهذا كلام جيد وهو يربط الكمال المنشود بالرقي المعنوي والاستقامة النفسية ولا يعطي ما وراء ذلك قيمة ما! إننا عندما نتدبر سورة يوسف نجد أنها تضمنت ثلاث رؤى كشفت عن المستقبل، فجاء تطبيقها صادقا كوضح النهار.

- أولى الرؤى الثلاث لنبي كريم المعدن حسن الدعوة إلى الله.
- أما الرؤييان الأخريان فهما لقوم لا يعرفون الله ولا يحسنون معاملته.

بعضهم كان سجينا وعاش بعد سجنه يسقي سيده الملك خمرا، والبعض الآخر كان ملكا غريبا على دائرة الإيمان ومنطقه.

وقد بنيت خطة الدولة الاقتصادية على رؤياه خمسة عشر عاما. وأحسبني لو صورت فكر المسلمين الآن لقلت: إنهم يحسبون الرؤيا الصادقة

أمارة على عظمة المنزلة عند رب العالمين ولو كان صاحبها لا يعرف صلاة ولا صياما، وقد لاحظنا ونحن نقرأ سورة الأنعام أنها زجرت المشركين زجرا شديدا لتطلعهم إلى الخوارق، وغفلتهم عن التدبر والوعي.

والسورة بهذه اللفتة الكريمة تريد أن تنبه إلى أن العظمة الإنسانية لها أصولها العتيدة وأبعادها المحددة. وإذا كان الله قد رزقنا عقلا فيجب على هذا العقل أن يبحث ويقضي.. والأديان إنما تستمد وجاهتها وتستحق القبول بما حوت من زكاة للنفوس ورشد للسلوك.. والأديان الفاشلة أو المهتزة القواعد تتحايل على إثبات صحتها وجمع الناس حولها بإطلاق الإشاعات عن خوارق وقعت لأحيائها أو موتاها.

وهذه الخوارق في الأغلب مفتعلة لا تعتمد على شيء.. إنما هي الخيال أو التوهم، ولو أن ما زعموه كان صحيحا ما دل هذا على شيء طائل، فإن الأديان تقوم على الصدق العقلي والنضارة الخلقية، وهذا ما طلبت منا سورة الأنعام أن نستيقنه وأن نبني عليه حكمنا.. هل معنى ذلك أن حياة «محمد» عليه الصلاة والسلام كانت خلوا من الخوارق؟ كلا!

لقد صحت «الأسانيد» أن جملة من الآيات الباهرة ظهرت في سيرة النبي الكريم، ورأت جماهير من الناس كيف زاد الطعام في يده وكيف نبع الماء من بين أصابعه وكيف هطل المطر توا استجابة لدعوته، وكيف... وكيف...

إن عشرات من هذه الآيات الحسية ثبتت له- عليه الصلاة والسلام- ولكن هذه الآيات لم تعتبر سنادا لإثبات النبوة ولا كان بها التحدي إلى آخر الدهر.

لقد اعتبر أمرها ثانويا بالنسبة إلى القرآن الكريم.. الكتاب الذي أحيا الفكر وأيقظ القلب وأنهض الأمم ودفع الأجيال في طريق حضارة يانعة وربط بين الناس وربهم ربطا يتجدد على مر الأيام إذ لا يزال هذا الكتاب منذ نزل إلى يوم الناس هذا.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، صانع الإيمان الحر، وسائق العقول بطريق الاستدلال إلى معرفة ربها والانقياد له.

هذه السورة المكية حافلة بالدلائل التي تسوق الناس سوقا إلى الله، وتفتح الأبصار على الآيات الشائعة في ملكوته، والروائع التي بثها هنا وهناك تشهد بوحدانيته وعلوه ولطفه.

إن بعض المستشرقين والمبشرين تحدث عن الأسلوب المكي فقال: إنه عاطفي يعتمد على الإثارة أكثر مما يعتمد على التفكير، وتبعهم في ذلك سماسرة مستأجرون في ميدان الأدب والثقافة تحمسوا لهذه الأكذوبة وأخذوا يروجونها.. والقضية كلها دعوى تافهة، وسورة الأنعام- من بين السور المكية- مليئة بالبصائر التي تنير طريق الحق وتجلو الغشاوات عن سالكيه.

وكلمة «بصائر» في قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ ﴾ **(الأنعام: ١٠٤)** هذه الكلمة واضحة الدلالة على العمل العقلي الذي يمزق الظلمات ويكشف الشبهات ويعرف الناس بربهم عن طريق السريرة الصافية والفطرة الواعية.

وعلى ما ألفنا في هذه السورة نسمع بعد كلمة «قل» سؤالا عن رب المكان يجيء على هذا النحو ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ ﴾ **(الأنعام: ١٢)** أهو رب المكان وحده؟ لا، إنه رب الزمان أيضا ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ **(الأنعام: ١٣)**.

إن اليقين في تلك السورة يؤسس على النظر العقلي المتأمل المستنتج الذي يستعرض شتى الفروض ثم يرفض الخطأ ويقر الصواب، وإنك لترى ذلك في السياحة الفلكية التي تضمنتها هذه السورة لإبراهيم عليه السلام، وهو ينتقل من الكواكب إلى مكوكبها، ومن الشارق الغارب إلى من لا يغيب تجليه، ولا تنقطع قيوميته على العالم الرحيب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾(٧٥).

ومن ثم نلحظ أن وصف الله في هذه السورة يجيء أحيانا بعد اسمه العلم الظاهر، وأحيانا بعد ضمير الغيبة، فيكاد الوصف البارز ينقل ضمير الغيبة إلى ضمير حضور وقد بدا ذلك من الصفحة الأولى في السورة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً...﴾ **(الأنعام: ٢)**،

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُم...﴾ **(الأنعام: ٣)**،

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ...﴾ **(الأنعام : ٦)**،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...﴾ **(الأنعام : ٦٠)**،

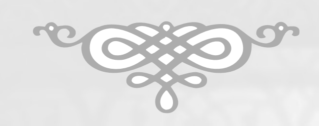
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ ...﴾ **(الأنعام : ٩٧)**،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ ...﴾ **(الأنعام : ٩٨)**.

ويظل الأمر كذلك حتى آخر السورة، فكما بدئت بضمير الغيبة الذي يبعث على الشهود ختمت به... ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ **(الأنعام : ١٦٥)**

وهكذا تقف الإنسانية كلها بإزاء الاختيار الكبير الذي ينتظم جميع أفرادها.. تقف أمام ربها العدل الذي يكلف كل امرئ بقدر ما أوتي من إمكانات مادية وأدبية.

على أنه مهما تفاوت الذكاء البشري بساطة وعمقا، فلا يجوز أن يعمي عن الله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور.



(٣٤)

صورة شاملة
لسورة (يس)
من التفسير الموضوعي

العدد (١٠٠) ربيع الآخر (١٣٩٣هـ) مايو (١٩٧٣م)

لن نحتاج إلى كبير عناء في استبانة الخيوط الخفية التي تشد أجزاء هذه السورة وتجعل من معانيها وأغراضها كيانًا متماسك الحقائق وضيء الملامح.

بدأت السورة بقسم جليل .. قسم بما في الدليل من دقة وحكمة على صدق الدعوى ووجاهة صاحبها! ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢، ٣، ٤).

إن القرآن هو الشاهد الثقة على أن محمدا حق.

وما تضمنه القرآن من حكمة بالغة حجة فوق الريب على أنه وحي من السماء، وأن الذي يتلوه مصدق الدعوة راشد الطريق.

ثم تضمنت السورة تمهيدًا وجيزًا عن مواقف الناس من هذه الرسالة وانقسامهم بين مؤيد ومعارض وليس ذلك عجبًا.

فالناس من قديم الزمان صنفان.. صنف يحتبس في المواريث الفكرية التي آلت إليه لا يعدوها ولا يحب أن يستخرجه أحد مِنْ نطاقها، وصنف آخر مرن التفكير، حر الوجهة يعطي نفسه حق المقارنة والترجيح ثم ينطلق بعدئذ على ما أحب.

ومن الصنفين جميعًا كان الكافرون والمؤمنون.

وعقب هذا التمهيد ثلاثة مشاهد متميزة استغرقت السورة كلها، ودارت على محور واحد هو إضاءة الطريق أمام السائرين، وسط الأدلة التي تدعم

الحق، وتذيب التعصب للباطل وتبني الإسلام على أصوله العتيدة من حركة العقل، ووعي التجارب، واحترام الفطرة..

- المشهد الأول دليل تاريخي من الماضي البعيد يقص نبأ القرية التي قاومت المرسلين وكذبت تعاليمهم فأصابها ما أصابها.
- والمشهد الثاني دليل من الحاضر المحسوس يلفت النظر إلى آيات الله في البر والبحر والفضاء، ويرجع البصر بين فجاج الأرض وآفاق السماء كي يستخلص العبر الدالة على رب العالمين.
- والمشهد الثالث والأخير: دليل من المستقبل الآتي يؤكد للبشر أن لعالمهم الذي يعيشون فيه أجلا ينتهي إليه، وأن وراءه عالمًا آخر يسعد فيه المهذبون العقلاء ويشقى فيه من سفه نفسه، وحقر عقله، وأساء سيرته، وفقد شرفه.

من التمهيد الذي افتتحت به هذه السورة الكريمة ومن تلك البراهين الثلاثة المستمدة من الماضي والحاضر والمستقبل تكونت «يس».

ونستطيع أن نلمح الروابط بين أول السورة وآخرها إذا ما أعدنا قراءتها متدبرين حال العرب الذين فوجئوا ببعثة محمد يدعوهم إلى توحيد الله وحمل الرسالة التي اصطفاهم الله لها ومتدبرين كذلك الأدلة المثيرة المتلاقية كلها على أن الله حق، ونبيه حق، وهي أدلة كانت ولا تزال تهدي الحيارى في كل زمان ومكان.

فلنعد مرة أخرى إلى التمهيد وما بعده.

إن ناسا كثيرين يحيون داخل فكرة ثابتة سيطرت عليهم دون بحث أو نقاش..

والسجناء في أوهامهم ينظرون يمينًا ويسارًا فلا يرون إلا السدود التي احتبسوا فيها والأحوال التي عاشوا في ضيقها وجهلوا ما وراءها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ (٨، ٩).

والأغلال التي تحيط بالرجل العتيد وتجعله يعجز عن لي عنقه هنا وهناك في حركة حرة يبصر بها شتى المناظر والأوضاع.. هذه الأغلال من صنع نفسه ابتداء وما ضاعفها الله عليه إلا لأنه هو يريد استبقاءها كما قال جل شأنه في سورة أخرى:

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ﴾ (**مريم: ٧٥**).

ويستطيع أي امرئ أن يخرج من ذلك السجن الظلوم إذا رحم نفسه وخشي ربه وعرف الحكمة من محياه ومماته.. إنه عندئذ يؤمن بالله ويهتدي بوحيه، وذلك ما بدأت الأدلة تتساق لتحقيقه.

فلنقف قليلًا عند المشهد الأول منها وهو الذي يبدأ بقوله تعالى:

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ (١٣).

لقد كذب أهل القرية رسالات السماء تقريبًا كما فعل أهل مكة وقالوا لرسلهم ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ (١٥).

وماذا يملك الأنبياء للناس؟ إنهم لا يحملون عصا يسوقون بها الجماهير، ولكنهم يملكون قدرة على الإقناع وتجلية الحقائق لذلك قالوا: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (١٧).

بيد أن العميان يكرهون الضوء، وما كان عليهم من بأس لو تركوا رسل الله يتكلمون بما لديهم فمن ارتضى منطقهم دخل فيه وإلا انصرف عنه؟

إن أهل القرية لم يفعلوا ذلك بل قالوا لهم﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (١٨).

وأقبل من بعيد رجل منصف لم يذكر القرآن اسمه ليكون أسوة للرجال

الذين إن حضروا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا.. الرجال الذين يعملون بعيدًا عن الشهرة والظهور.

وتحدث الرجل حديث العقل ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٢) ما دام الله هو الذي خلق وما دام المرجع إليه فما معنى البعد عنه والتجهم لهداه؟ ولمن أذهب؟ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٣، ٢٤).

وذهب الرجل ضحية الإيمان الذي أعلنه وشرح أسبابه.. ويبدو أنه كان عميق الإخلاص لقومه شديد الرغبة في هدايتهم فلما استقبلته بشاشة النعمة والرضوان تمنى لو أن قومه يعلمون ذلك المصير.. ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٦، ٢٧).

فماذا كانت عاقبة مكذبي الرسل، ومهددي الحريات، ومخرسي صوت العقل؟ هل احتاج الأمر إلى تجريد جيش من السماء لتأديبهم ؟ كلا، يقول الله ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ (٢٨، ٢٩).

كان جديرًا بأبناء آدم أن يعوا هذا المصير وأن يرويه الأسلاف للأخلاف غير أن عبر الماضي تمر دون أن يذكرها الكثيرون ولو استفاد الحاضر من الغابر لتجنب الناس ويلات شتى.

ومع روعة المثلات الأولى فإن الإفادة منها قَلَّت إلى حد أن القرآن الكريم يرسل هذه الصيحة المنددة المفندة ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣٠).

فلنطو هذا المشهد ولنلق نظرة على مشهد ثان في هذه السورة يُعرّف الناس بربهم ويقفهم أمام آياته التي يرونها في الصباح والمساء.

يبدأ هذا المشهد بوصف ما تنبت الأرض.. خذ حفنة من هذا التراب

الذي لا نهاية له في الحقول والحدائق، أترى فيه سكرًا أو دهنًا أو نشا أو أملاحًا أو ألوانًا أو غير ذلك كله مما تحسه وتطعمه في الحبوب والفواكه التي تأكلها؟ كيف خرجت من هذا الطين البارد الجامد شتى الألوان التي تصبغ الثمر والزهر بالصفرة والشقرة؟ وكيف خرجت الطعوم الحلوة من هذا الكدر والقذى؟ ومن لف هذه الحبوب في أغلفتها المحكمة ولف هذه الفواكه في قشورها الزاهية؟ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٣، ٣٤، ٣٥).

ودليل ثان مما يمتد إليه سمع الناس وبصرهم من ترادف الليل والنهار عليهم.. إن انحصارنا في حركاتنا المحدودة يشغلنا عن حركة الفلك الدائر وذلك أننا نصبح ونمسي ونودع شتاء ونستقبل صيفًا دون أن ندري كيف تداولنا الليل والنهار والحر والبرد.

إن ذلك كله نتيجة جريان هائل للكوكب الذي نسكنه والكواكب التي تشرف علينا، وهو جريان مرهوب السرعة في هذا الفضاء الرحب.

ومع أننا نسكن كونًا دوارًا لا يني يسبح في ملكوت شاسع الأبعاد فإن هذا الدوران وذلك السبح محكومان بنظام محيط ملجمان بزمام ضابط ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٤٠) ودليل ثالث من هذه السفن التي تجري في الماء.. يقدر أن الأجسام ترسب وتطفو وفق قانون مدروس مطرد، ومن ثم أمكن صنع سفن في أحجام الجبال تحمل الألوف من الأنفس والقناطير المقنطرة من المتاع ثم تنطلق متهادية فوق اللجج لو شاء ربها أبقاها فوصلت إلى مرافئها سالمة، أو شاء نفخ في الأمواج الحاملة فأرغت وأزبدت ورمت في قاع البحر بما حملت فما يستطيع أحد إسداء عون، ولا إنجاء هالك.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾(٤٣، ٤٤) ودليل رابع من هذه الأنعام المسخرة لنا ننتفع من محياها ومماتها..

لكن قبل أن نشرح هذا الدليل وغيره ينبغي أن نذكر أن وسط السورة قد قام على معنى محدد معقول، أما المشهد الخاتم للسورة فهو حديث عن البعث والجزاء يبدأ من قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٤٨، ٤٩).

ويستمر هذا الحديث إلى نهاية «يس» وربما تخلله من المشهد الثاني ما يلفت العقل إلى آيات الله الجديرة بالنظر كقوله جل شأنه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾(٧١، ٧٢).

إلا أن ذلك الامتداد العقلي لا ينقص من انفراد آخر السورة بكلام مثير عن نهاية العالم وبداية عصر الثواب والعقاب.. فلننعم النظر في المشهد.. إنه ينبئنا بأن أمر الله يأتي مباغتًا والناس مستغرقون في أعمالهم اليومية لا يتوقعون حدثًا ما..

قد يخرج الموظف إلى عمله فلا يبلغ الديوان إلا وقد وقعت الواقعة.. أجل وربما قامت الساعة والخادم ذاهب لشراء بعض السلع فلا يعود بها، وتصوير القرآن لقيام الساعة يوضح أنه يتم والناس مسترسلون في الحديث حول شؤونهم يتجادلون في تقرير وجهات نظرهم وبينما هم كذلك ينفخ في الصور ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(٥٠).

حتى الهاجعون في مقابرهم من آماد بعيدة.. إن قومتهم ليوم الحساب تجيئهم مفاجئة حتى ليصيحون دهشين ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ ويجيب كل شيء

﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾(٥٢).

ولا نمضي في وصف النعيم وترغيب المؤمنين فيه ولا في وصف العذاب وترهيب المنحرفين منه، وإنما نتوقف لنتأمل في بعض أدلة البعث التي ختمت بها السورة.

ألم تسأل نفسك يوما: ماذا كنت قبل مائة عام، قبل أن يوجد هذا البدن المكتنز بالشحم واللحم يتوقد فيه هذا الروح المنعم بالفكر والشعور؟ ماذا كنا؟ بعض هذا الهواء المنتشر في الجو؟ بعض هذا التراب الممتد على الأرض؟ لا ندري !

وإذا كان ذلك نسبنا المادي فمن أي أصل تولد الفكرة والشعور؟

إنني أجزم بأني وجدت بعد عدم، وأن هذا الإيجاد يتكرر جيلًا بعد جيل، ومع دلالة هذا الخلق على رب مبدع عظيم، على رب مقتدر حكيم.. مع هذه الدلالة الصارخة فإن هناك صُمّا لا يسمعون وعميانا لا يبصرون وناسًا يتكلم أحدهم عن الله ولقائه بجهل غريب ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾(٧٧، ٧٨).

وإن الشخص الذي يعرف من أي باب دخل الحياة لا يليق به أن يرسل هذا السؤال، إنه يتناقض مع نفسه حينما يستبعد وجوداً كان هو صورة حية له ودليلًا أبديا على إمكانه..

من يحيي العظام وهي رميم؟ يحييها منشئ الإنسان من نقطة الصفر.. إن البعث ليس وعدًا بشيء يتم في المستقبل فهو يستغرب الآن.. إنه تكرار لعمل يتم كل يوم بل كل ساعة من ليل أو نهار فما وجه الاستغراب في وقوعه؟ ولكنه الجهل الغليظ ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا...﴾(٧٩، ٨٠)

فلنرسل فكرنا وراء هذه اللفتة، هناك في الحقول الناضرة والحدائق

الغناء حيث الصمت السائد والنماء البطيء يتنفس النبات دون أن نشعر وفي شهيقه وزفيره يقول علماء الطبيعة إنه يمسك «الكربون» ويرسل «الأكسوجين» يمسك النار ويرسل لنا الحياة ما أعجب القدرة وما أغرب هذه المتناقضات.

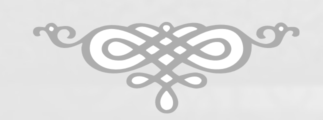
ومضى النظم الكريم يستكمل أدلة البعث، ويشرح دلائل العظمة الإلهية ثم يختتم السورة بهذا الختام ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٨٣) هذه سورة «يس»، مقدمة تناولت رسالة محمد بالشرح الوجيز وتناولت معارضيه ومؤيديه بالتعليق اليسير، ثم ثلاثة مشاهد فصلت وجه الحق في هذه الرسالة الخاتمة تفصيلًا تناول العالم من أزله إلى أبده واستطاعت أن تدفع الباطل وتَذْرُوهُ هباء.

هذه هي السورة التي ارتفع صوت الوحي فيها ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (٧٠) ومع ذلك فإن جماهير المسلمين تواضعت على قراءتها في المقابر بين رفات الموتى.

ألا ما أظلم المسلمين لكتاب ربهم، وتراث نبيهم، وأساس تاريخهم، ومهاد حضارتهم!

ولسنا نزعم أن المقدمة والمشاهد الثلاثة المذكورة قد انتظمت في قوالب فنية كما يصنع العلماء المحدثون في تأليفهم، كلا إن القرآن أكبر من ذلك فاحتواؤه على المعاني يشبه احتواء الكون المادي على مصادر المعرفة في وحدة لا انفصام بين أجزائها.

ولكننا في هذا اللون من التفسير نجتهد في اكتشاف محور تدور عليه السورة كلها أو ملامح تشيع في كيانها العام. ثم نصف ذلك للقارئ حتى يحسن الانتفاع بالكتاب الكريم.



(٣٥)

الممتحنة

سورة الحُبّ والبغض في الله

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) يوليو (١٩٧٣م)

التعصب وصف رديء عندما يكون معناه جمود الفكر، وانحصارالأفق، والتشبث بالهوى، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره.

ونحن نرفض هذا الوصف ونأباه على أنفسنا وقومنا..

ولكن عندما يكون التعصب أثرًا لاحترام الحق، وإكبار أهله، ودعم جانبهم، وكره عدوهم، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد، ولا يتخلى عنه امرؤ ذو دين!

وفي العالم اليوم:

- حقائق أرخصها الضعف.
- وحقوق هضمها البغي.
- وقوى شرسة استمرأت العدوان.
- ومسلمون طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه، حتى كأن البغاث بأرضنا يستنسر!

أفلا يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف من نحن؟ وماذا نحمل من رسالات الله؟ وماذا نستطيع أن نسديه لأنفسنا وللعالم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناه الهادي؟

وعندما أقرأ سورة «الممتحنة» يحيا في نفسي معنى التعصب للحقيقة، والدفاع عنها، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال، وكآبة المنظر في الأهل والمال!

إنه ليس من الشرف أن أجامل من يهين الحق، وليس من صدق اليقين أن أمالئه وأترضاه.

وقد نزلت سورة «الممتحنة» لتلقن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حيا في نفوسهم إلى يوم الدين، فقال جلَّ شأنه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ..﴾.

عيب واضح أن أصادق عدو الله وعدوي، وأن أبسط يدي ولساني له بالسلام، وهو يزدري ما عندي- ولا يتوانى!- ومن هنا عللت السورة النهي عن المصافاة، فقالت بعد إثبات كفرهم:

﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ..﴾

لماذا؟ ﴿... أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾

ثم اطرد السياق القرآني يقول:

﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ...﴾

أي فلا تسلكوا هذا المسلك، وتطووا قلوبكم على حب من طردكم وأهانكم!

كيف تفعلون هذا؟.

﴿... تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾؟

والتعبير بـ «أنا» في هذا الوضع يفرض علينا أن نتوقف قليلا لنتدبره فقوله جلَّ شأنه:

﴿ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير.

وهذا المعنى صرحت به سورة أخرى في مثل هذه القضية قال تعالى:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾ **(آل عمران: ٢٨)**

والغريب أن هذا التحذير يتكرر في الموضع نفسه، مؤكدا علم الله بما نخفي وما نعلن، حتى لا نتورط في مسالمة عدو يبتغي إبادتنا، أو الوقوف منه موقفا بعيدا عن الصرامة والمفاصلة، فقال جل شأنه: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾ **(آل عمران: ٣٠)**

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هي ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١).

هكذا بدأت سورة «الممتحنة» تعلمنا ضرورة التعصب للحق، والتمسك بأهدابه، وكراهية المعتدين عليه، والنفور من مودتهم.

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها فإنه قد تمشى في آياتها على صورة متفاوتة، ثم كان لها الختام المبين فقال جلَّ شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾(١٣).

إن «الأحياء» من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى، أو إن «الموتى» من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكان عند الله في الدار الآخرة.. سواء كان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لا يليق أن يصادقوا قوما تلك حالتهم!

ولنلق على السورة من بدئها إلى ختمها نظرة جامعة نتعرَّف بها أسباب

النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون.



لقد استغرق نزول هذه السورة- على وجازتها- قريبا من عامين، وصدرها نزل في السنة الثامنة عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تجهز على الوثنية المتحكمة في مكة، وأن تعيد إلى دائرة التوحيد هذا المعقل الأشم.

ووسط السورة نزل في السنة السادسة بعد ما تم عهد الحديبية بين المسلمين، وأهل مكة، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات.

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير، وإقبال أهل مكة رجالا ونساء على مبايعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام.

ومع الاختلاف الزمني الملحوظ في نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرة من الاتساق والتماسك، بل هو نسق من الإعجاز الساري في أسلوب القرآن الكريم كله.

وأشعر بأن القرآن في علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذي نحفظه، وأن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث، ثم يأمر الرسول بوضعها في مكانها بتوقيت إلهي، فتعود إلى وضعها الأزلي على النحو الذي يقرأ الآن، والمحور الذي دارت عليه السورة كلها، هو الحب والبغض في الله، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها؛ ففي أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم ما وقع من حاطب بن أبي بلتعة الذي راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم، كي يأخذوا أهبتهم! وهو عمل شنيع، ولولا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديرا لسابقته في خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل.

وهنا نرى الوحي- بعد استنكار التصرف السابق- يقول للمؤمنين:

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٣). أي لا يجوز أن يخفف شيء ما من حدة الخصام للكفر وشيعته، ولو كان الحرص على القرابة والولد والمال؛ فإن جانب الله أولى بالرعاية.

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم ﴿ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ (٤).

وهذه مصارحة بالقطيعة في سبيل الله، ومعالجته بالحب لله والبغض لله، وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك.

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يوما وقال له ﴿ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ ﴾(٤).. فذلك اللين ليس مهادنة للضلال، ولا ضعفا في الإحساس بحق الله.. كلا ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ **(التوبة: ١١٤)**.

وهكذا تقطعت أغلى الصلات إيثارًا لحق الله.

إن حق الله على عبده لا يرجحه شيء في الأولين ولا في الآخرين، والاستهانة به ضلال مبين.

هل هذا التجهم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلظة طبع أو شراسة خلق! لا.. لا.

إننا في شوق إلى سيادة السلام، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب، والأمر بيننا وبين خصومنا واضح مستقيم، فمن حاسننا حاسنّاه، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة.

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا، ونَشَدَ إساءتنا وإهانتنا، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا؟ إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالةٌ، وخسةٌ لا يهبط إليها مؤمن، قال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٨، ٩).

والظلم هنا الهوان، وقبول الدنية، والاستكانة إلى الضيم، والرضا بحياة الفسوق والمروق، والعيش في كنف الفاسقين المارقين.

هذا صدر السورة الذي استغرق نصفها، ونزل في السنة الثامنة.

أما وسطها الذي نزل من قبل، فهو يعود بنا إلى نص في معاهدة الحديبية يقضي بأن يرد المسلمون عن المدينة من لحق بهم مؤمنًا من أهل مكة، وإن كان أهل مكة يقبلون من لحق بهم مرتدا!

ومع أن الأيام أثبتت جدوى هذا النص على المؤمنين إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداء من تطبيقه، وأمر المؤمنين أن يمتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن، فإذا علموا منهن صدق الاعتقاد وشرف الغاية قبلوهن في المجتمع الإسلامي فورا.

إن هؤلاء النسوة المهاجرات التاركات لأزواج كافرين يجب أن نرحب بهن وأن نقدم تحية إكبار للعاطفة التي خرجت بهن إلى دار الإيمان، لقد كرهن رجالهن وفارقنهم لله فلا ينبغي أن يُعَدْن لهم، قال تعالى:

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾ (١٠).

وإتمامًا لإقامة المجتمع على احترام الدين، وإعزاز مشاعر الحب والبغض لله صدر الأمر بتسريح الزوجات الكافرات: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ (١٠).

إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكامل وحكمته واضحة، وقد نفذت معاهدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين ما لبثوا أن نظموا حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول قبولهم في المدينة!

ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتائب الرحمن.

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله، وها هي ذي «هند» المرأة التي أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها في الإسلام، فماذا نصنع معها؟

لا شيء! ننسى الماضي، ونغفر الأخطاء ونعلمها وصاحباتها كيف يتأدبن بآداب الإسلام، ثم يصبحن- بَعْدُ- أخواتنا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (١٢).

نعم.. إن الله غفور رحيم، فلننس الماضي ولنتحاب في الله.. لقد كان القرآن في هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهن إلى الصواب وإقلاعهن عن إيلام المؤمنين، قال تعالى:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(٧).

والمودة المرتقبة إنما تقع مع أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم ورؤوسهم، ويجوز أن تتقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم.

فإن المرء قد يخطئ لملابسات معينة أحاطت به، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت في مكانها، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها.

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يدعى إلى الاستقامة،أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيئا مشرقا؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالمقت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل.

وإنك لترى الوحي الإلهي طافحا بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (**الأعراف: ١٤٦**).

ولنلفت النظر إلى أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبذولة، والنصح القريب!

وهذا هو التعصب الذي يأباه على نفسه كل عاقل أو منصف.

والقرآن في آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه، فإذا قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (**البقرة: ٦**).

فإن المقصود أناس طال نصحهم وطالت لجاجتهم، طال تعليمهم وطال صدودهم.. وليس المقصود وصف أقوام تعرض عليهم الدعوة لأول مرة.

وبديهي أن ينتهي هذا الصدود بما ينتهي به كل جحد وتبجح، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيح.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ **(النمل: ٤، ٥)**.



وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية، وتصوير كذوب لأقوالهم وأعمالهم، وإلحاق للمعايب والمقابح بسيرتهم وتاريخهم وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيرًا من هذا التعصب الجائر الآثم.

ولست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم فإن الذئب المفترس لا يستكثر عليه أن يعقر ويغتال.

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة، والطوايا الكنود، ومع ذلك فهم غارّون مسترسلون في «طيبتهم» وتهاونهم.. فإلى متى؟

إن أرضنا انتقصت من أطرافها شرقًا وغربًا وفق خطة رسمت بأناة وروية.. ثم بدأت الإغارة على قلب العالم الإسلامي استكمالا للإجهاز عليه طولًا وعرضًا، فهلا عرفنا ما يراد بنا؟

إن في العالم الآن طوفانًا نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته، وأمامي وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المراقة والأشلاء الممزعة للمسلمين المستضعفين في الفلبين، وما قصة الإسلام الذبيح في الفلبين إلا نموذج مكرر لأقطار أخرى من الأرض، أهين فيها الدين واستبيح حماه، وشرد أهلوه، وأكلت حقوقهم! بل إن المسلمين- حيث يكونون كثرة في بلاد أخرى- تجرأ عليهم كل ذي ملة وتطلع إلى ما لم يكن يحلم به في يوم من الأيام!

ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض في هذه الظروف العصيبة؟

لعلنا .. لعلنا ..

فإذا تحقق ما نصبو إليه فلله الحمد.

نحن ما نسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم.

لكن إذا فرض علينا القتال فإن الذرة من التهاون في كراهية المعتدين جريمة.

يجب أن ندخل المعركة بكل ما لدينا من غضب وقسوة وصرامة.



(٣٦)

تفسير سورة الكافرون

العدد (١١٦) شعبان (١٣٩٤ هـ) أغسطس (١٩٧٤م)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾.

من الأخطاء التي وقع فيها الكثيرون تعريفهم للعبادة بأنها «مطلق الخضوع» سواء كان خضوعًا أعمى، أو خضوعًا كارهًا.

ونحن- المسلمين- عندما نقول: إننا عبيد الله، لا نقصد شيئًا من ذلك، فنحن نخضع لربنا خضوع حب وبصر، أي إن شدة حبنا له، ومعرفتنا به، هي التي دفعتنا إلى الانقياد له والاتباع لأمره.

وليست علاقتنا بالله علاقة المغلوبين على أمرهم تحت وطأة حاكم ظالم، أو علاقة الهائمين على وجوههم وراء قوة مبهمة.. كلا .. كلا.. فإننا نَعْبُد الله الذي أنشأنا من عدم، ورزقنا من فضله وحده، ونرفض عبادة غيره، لأنه لا معنى لاستجداء صعلوك، أو تخوف عاجز، ولا معنى للارتباط بناس ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ **(الفرقان: ٣)**.

إن صلة المسلم بالله وبما عداه، تدور على هذا المحور الفذ، فهو على بينة من ربه، يدري جيدًا ما يستحقه من كمال، وما يبذله من عطاء، ويدري جيدًا أن غيره صفر، أو وهم، أو اسم لا مفهوم له، ومن ثم فهو يقول- كما أمره الله- لأعداء الله ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

وقد جاء في السنة الشريفة استحباب القراءة بهذه السورة، وسورة

الإخلاص في أول النهار وآخره، فعن عبدالله بن عمر: رمقت النبي ﷺ أربعًا وعشرين، أو خمسًا وعشرين مرة يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾.

وظاهر أن السورة الأولى تشرح التوحيد العملي، والثانية تشرح التوحيد القلبي، فيكون الجمع بينهما مطابقة بين السلوك والشعور النفسي، ويكون بدء اليوم بهما وختمه إشعارًا بأن كدح الإنسان في حياته كلها محصور داخل هذا الإطار الواضح المستقيم.

روى أحمد في مسنده عن الحارث بن جبلة قال: قلت يا رسول الله: علمني شيئًا أقوله عند منامي؟ قال: «إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ فإنها براءة من الشرك».

ومن هم الكافرون الذين نبتعد عن خطهم، ونبرأ من طريقهم؟

إنهم فرق شتى.. فهناك الماديون الذين يجحدون الألوهية، ويتعلقون بعالم الحس وحده، ويكرسون العمر لتحصيل الشهوات وعبادة الهوى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ...﴾ (**الجاثية: ٢٣**).

إن التقدم العلمي عند هؤلاء لا يغير من ضلالهم شيئًا، وما داموا ينكرون الله الواحد فهم كافرون حقًّا.

وهناك ناس يعبدون إلها من صنع الخيال، وقلما يوفرون له ما ينبغي توافره للإله الواحد من تنزيه وتحميد.

والغريب أن جماهير كثيفة في المشارق والمغارب تقع في هذا العوج ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(**يوسف: ١٠٦**).

وبدعة أن العالم تحكمه شركة من الآلهة، أو أعضاء في أسرة مقدسة شاعت قديمًا وحديثًا: وقد رفضها الإسلام جملة وتفصيلًا، وأقام العقيدة

على تجريد الألوهية من كل خرافة، ودعا دعوة حارة إلى التوحيد المطلق، وذلك سر التكرار الملحوظ في سياق هذه السورة ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾.

قال أبوالعباس بن تيمية: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل وقبوله له، أي نفي الوقوع وإمكانه شرعًا وعقلًا، وظاهرًا، وباطنًا.

وطبيعي أن يكون مع هذا التشبث بالحق، تعصبًا للباطل، وبقدر ما يغالي المؤمنون يغالي خصومهم بالجحود أو التعديد! وتلك سنة الحياة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ (**هود: ١١٨**).

وقد بين القرآن الكريم في مواضع أخرى أن المبطلين قد يستبد بهم الضلال فلا يكترثون لدليل، أو يلتفتون لحجة ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ ﴾(**البقرة:١٤٥**)﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ (**يونس: ٩٦، ٩٧**) فهم ماضون في طريقهم المعوج، لا يلوون على شيء، ولا يصيخون لناصح.

لكن ماذا يستتبعه هذا المسلك من نتائج؟ إن كل ما يستتبعه هو زيادة العبء على المؤمنين، فلا يضعفون ولا ينكصون، وعليهم أن يرسخوا أقدامهم في طريق الحق فلا تهزهم فتنة، ولا تردهم عاصفة ولا ينال منهم مر الزمان، وذلك ما توحي به هذه السورة التي تحدد المواقف، وتمنع الميوعة واللبس.

وكلمة «قل» خطاب لصاحب الرسالة- عليه الصلاة والسلام- بيد أن كل مسلم مكلف بهذا النداء الحاسم، وما تضمن من تحديات.

نعم، ينبغي أن نتأسى بالنبي الكريم فيما كلفته به هذه السورة، ففي حياته ﷺ مُثُلٌ عليا يفزع إليها كل صاحب رسالة فاضلة عادلة، ليرتوي منها

إذا صدي، ويسعد بها إذا شقي، وليقتبس منها دروسًا مجدية في طرائق الجهاد المضني عندما يتجرد الحق إلا من إشراقه، ويتشدد الباطل لكثرة عدته وعتاده.

بدأ هذا الرسول فوضع فواصل غليظة بين الحق الذي اهتدى إليه، وبين الباطل الذي توارث الناس العمل به، والاحتكام إليه.

إنه- من ناحية العدد- قليل بنفسه وإخوانه، وهؤلاء كثيرون بأنفسهم ونظمهم المألوفة، وأفكارهم القديمة، وأوضاعهم العتيدة، فلا بد إذن من قطع كل أمل في أن يتفق معهم، أو يخضع لهم.

لقد سلك نهجًا غير الذي ألفوا، ولن يجمعه بهم طريق ما داموا على معتقداتهم.

في هذه السورة تسمع صرخة الحق العنيد عندما يفترض أن الباطل سيلج في غوايته، وأن هذه اللجاجة لن تثني لأصحاب الحق عزمًا، أو تقيد لهم قدمًا، وآيات هذه السورة ترمي إلى مجاهرة الكافرين بهذه الحقيقة الرائعة، وهي أن كتيبة الله انطلقت لأداء رسالتها، وعرفت أنها متمردة على الأوضاع الباطلة، ثم هي مسرورة بهذا التمرد، آنسة به، وأنه يزداد سرورها عندما يعلم الكفار ذلك، وعندما يؤمنون بأن الكتيبة المؤمنة قد بنت حاضرها ومستقبلها على ذلك.. فلن ترجع إلى الكفر حتى يلج الجمل في سم الخياط.

والرسول العظيم- في هذه الخطة- يقتفي أثر جده إبراهيم -عليه السلام- لما نابذ قومه بالخصومة، وجعل من أهله المؤمنين حزبًا يمثل الحق، وينافح عنه.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ **(الزخرف: ٢٦، ٢٧، ٢٨)**.

(٣٧)

تفسير سورة المسد

العدد (١١٣) جمادى الأولى (١٣٩٤هـ) مايو (١٩٧٤م)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾

يخطئ من يظن أن المرأة في الجاهلية كانت صفرًا، لا رأي لها ولا وزن.

إن التأمل في النشاط النسائي- عند ظهور الإسلام- يفيد أن المرأة كانت صديقًا للدعوة، له آثاره النافعة، وأنها- كذلك- كانت خصمًا له خطره المحذور.

وقبل أن نذكر عداوة أم جميل- زوج أبي لهب- للدعوة الإسلامية، وتحاملها السيئ على الرسول ﷺ نريد أن نذكر نماذج لبعض النسوة اللائي وسعن رقعة الإسلام، وشرحن به صدورًا ضيقة، أو أنرن به عقولًا مظلمة.

أخرج أحمد عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه خطب أم سليم رضي الله عنها (يعني قبل أن يسلم) فقالت: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟ فقال بلى. قالت: أفلا تستحي تعبد شجرة؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقا غيره.

قال: حتى أنظر في أمري، فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وأخرج الواقدي، وابن عساكر عن عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما- قال: لما كان يوم الفتح أسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام- امرأة عكرمة بن أبي جهل ثم قالت أم حكيم: «يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى

اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنْه، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، فخرجت في طلبه ومعها غلام لها، فأدركته وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر فجعل نوتي السفينة يقول له: أخلص قال: أي شيء أقول؟ قال: قل «لا إله إلا الله» قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا من الأمر فجعلت تلح عليه وتقول: يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته. فقالت: إني قد استأمنت لك رسول الله ﷺ قال: أنت فعلت؟ فقالت نعم، أنا كلمته فأمنك، فرجع معها وقد شرح الله بالإسلام صدره، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت» فلما التقى برسول الله ﷺ قال له، بعدما أعلن إسلامه، ووثق بالحق صلته: أما والله يارسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالا كنت أقاتل في صد عن سبيل الله، إلا أبليت ضعفه في سبيل الله.. ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيدًا.

مَن السبب في هذا الخير؟ من صانع هذه البطولة؟ زوجة مؤمنة مخلصة متحركة أدت واجبها، ونصحت لله ورسوله، فكانت يمنًا على رجلها ودينها.

كانت زوج أبي لهب تستطيع أن تكون واحدة من أولئك السيدات الراشدات المرشدات، لكنها كانت امرأة شريرة، سيطر الحقد على فؤادها فراحت تبعثر الفتنة هنا وهناك.

أغرت أبا لهب بالكفر، فكفر وصد عن سبيل الله، وصبت غضبها على بنات النبي ﷺ فأغرت بتطليقهن، وهدمت بيوتًا كانت مستقرة، وأخذت تتنقل في أحياء قريش توغر الصدور على رسول الله، وتضع العوائق أمام دعوته.

وقد عبر القرآن عن هذه السيدة الشرسة بقوله- جل شأنه- ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى

لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

ولم تكن امرأة أبي لهب ممن يحملن الحطب للوقود في بيوتهن، فهي امرأة غنية عريضة الجاه، إنها بنت أبي سفيان، وامرأة رجل من عظماء بني هاشم ولديها من الخدم ما يكفيها هذا العمل، ولكن المقصود بهذه العبارة أنها تشعل الفتن، وتثير النفوس ضد محمد، وأنها تحكم الوسائل لبلوغ هدفها، ولا تتراجع عن كيد بدا لها.. وهذا سر التعبير بأن في عنقها حبلًا من مسد، والمسد هو الصوف، والتركيب كله يعني أنها تحارب الإسلام بعنف، وتوغر الصدور ضد نبيه، وتنشر الإشاعات المثبطة، والأنباء المحرضة على النيل منه.

وأرى أنها السبب في ضلال زوجها، فهو من هذا الصنف الذي يتبع امرأته ويطلب رضاها، ولو كان في ذلك حتفه، وقد كان أبولهب أول المكذبين لرسول الله ﷺ مع أنه عمه الشقيق، وهو لم يكذبه فقط بل انطلق وراءه ينفر منه، ويحول دون دخول الناس في دينه، روي عن طارق المحاربي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل خلفه يرميه بالحجارة، وقد أدمى عقبه ويقول: لا تطيعوا محمدا فإنه كذاب فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبولهب[1].

لم يكن هذا المسلك جديدًا من أبي لهب فإنه منذ سمع بنبوءة محمد ودعوة التوحيد عارض بعنف ذلك الدين الحنيف، وخاصم الرسول الكريم، ولم تحجزه قرابته عن عمل شائن يسيء به إلى ابن أخيه، واستعان بغناه ووجاهته على مقاومة الإسلام في كل مكان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾

(١) رواه أحمد برقم (١٦٠٣٢).

(الشعراء: ٢١٤) صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي- لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو؟ فجاء أبولهب وقريش، فقال النبي ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا..

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبولهب: تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزل قوله تعالى ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ...﴾.

وروى ابن الأثير: قال جعفر بن عبدالله بن أبي الحكم: لما أنزل الله على رسوله ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾، اشتد ذلك عليه، وضاق به ذرعًا فجلس في بيته كالمريض فأتته عماته يَعُدْنه؛ فقال ما اشتكيت شيئا، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي، فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم، فإنه غير مجيبك، فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بني عبدالمطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلًا، فبادره أبولهب وقال «هؤلاء هم عمومتك، وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت ما أنت عليه، فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به» فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانية وقال «الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له. ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن، وإنها للجنة أبدًا، أو النار أبدًا».

فقال أبوطالب: ما أحب إلينا من معونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني

أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب.

فقال أبولهب: هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم، فقال أبوطالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

وبلغت الخسة بأبي لهب وامرأته مداها عندما أمرا ابنيهما بتطليق بنات الرسول ﷺ.

إن الحقد على الدين الجديد تأدى بهما إلى هذا التصرف النابي، فعاقبا أولاد محمد بهذه القطيعة الشاذة، فكان عاقبتهما أن حقت فيهما كلمة الله، فقد هلك أبولهب ومات مفجوعًا بانتصار المسلمين في بدر، ثم انتقل إلى آخرته ليصلى نارا ذات لهب.

وجمع العذاب بينه وبين قرينته هناك مصداق قوله تعالى ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (**الصافات: ٢٢، ٢٣**).





(٣٨)

النهوض الحقيقي لأمتنا

العدد (١٠٨) ذو الحجة (١٣٩٣هـ) ديسمبر (١٩٧٣م)

النهوض الحقيقي لأمتنا هو قدرتها على الاستغناء بعلمها وإنتاجها، والاستهداء بإيمانها وفضائلها، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر، وتتصرف عنه متى تشاء!

ويؤسفني التصريح بأن الشعوب الإسلامية، حتى يومنا هذا، لم تبدأ نهضة صحيحة، وأن مظاهر التقدم التي نراها أو نسمع عنها هي امتداد لنشاط القوى الكبرى في العالم أكثر مما هي تطلع المتأخرين للتقدم.

فالغرب الصليبي يصطنع شعوبًا شتى لخدمة مآربه ويمدها بكثير من عونه المادي وقليل من تقدمه الحضاري.

والشرق الشيوعي ينافسه في ذلك الميدان، ويحاول الاستفادة من أخطائه، أو يحاول ميراثه إذا انتهى في مكان ما..

وجمهرة المتعلمين أوزاع، بعضهم يؤثر النمط الغربي في الفكر والسلوك، وآخرون قد أعجبتهم الماركسية فاصطبغوا ظاهرًا وباطنًا بنزعتها.

أما الذين يتشبثون بالعقائد والفضائل الإسلامية ويريدون بناء المجتمع الكبير على دعائم الوعي المحمدي فقلة غامضة في الناس، ولا أقول منكورة الوجهة منكورة الحظ.

هب أن ثورة قامت في بقعة من الأرض الإسلامية تجعل الحياة الصينية أو الروسية مثلها الأعلى، أتكون هذه الثورة نهضة إسلامية؟ أم تكون نجاحًا للفكر الشيوعي العالمي؟

من أجل ذلك قلت: إن الشعوب الإسلامية لم تبدأ بعد نهضة صحيحة، تكون

امتدادا لتاريخها، وإبرازا لشخصيتها أو نماء لأصلها وتثبيتًا لملامحها..

ومن الغلط تصور أني أحرم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم! كيف وهؤلاء الآخرون ما تقدموا إلا بما نقلوه عن أسلافنا من فكر وخلق ووعي وتجربة؟

إن دولة الخلافة الراشدة اقتبست في بناء النظام الإسلامي من مواريث الروم والفرس دون غضاضة..

وعندما آكل أطعمة أجنبية أنا بحاجة إليها، فالجسم الذي نما هو جسمي، والقوى التي انسابت في أوصاله هي قواي!

المهم عندي أن أبقى أنا بمشخصاتي ومقوماتي!

المهم أن أبقى وتبقى في كياني جميع المبادئ التي أمثلها والتي ترتبط بي وأرتبط بها، لأنها رسالتي في الحياة، ووظيفتي في الأرض.

هذا هو مقياس النهضة، وآية صدقها أو زيفها، فهل في العالم الإسلامي نهضات جادة تجعل الإسلام الحنيف وجهتها والرسول الكريم أسوتها؟

إننا هنا شديدو الحرص على جعل البناء الجديد ينهض على هاتيك الدعائم..

وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعي، وننتفع من خبرات غيرنا من آفاق الحياة العامة، فليكن ذلك في إطار صلب من شرائعنا وشعائرنا.

فإنه لا قيمة لأحدث الآلات إذا تولى إدارتها قلب خرب، ولا قيمة لأفتك الأسلحة إذا حاول الضرب بها فؤاد مستوحش مقطوع عن الله مولع بالشهوات..

إن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش، وهذا البناء لا

يتم إلا وفق تعاليم الإسلام.. تنشئة تصوغ الأجيال الجديدة، وتقاليد تحكم العلاقات السائدة، ورعاية ظاهرة وباطنة للعبادات المفروضة، ومعالنة جازمة بما في الدين من أهداف، ومقاطعة حاسمة لما يعترضه من مسالك.

وكل بناء معنوي للأمة يتنكر للإسلام، أو يخافت بذكره، أو يغض من شأنه، فهو مرفوض جملة وتفصيلًا!

ولقد جربنا جعل مظاهر المدنيه فوق باطن فارغ مظلم فماذا صنعنا؟

صنعنا ناسًا: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ...﴾ **(المنافقون: ٤)**.

وهذا اللون من الناس فاشل في سلمه، مخذول في حربه، ما تسانده إلى غاية أرض ولا سماء.

البناء الحقيقي للنفوس يستهدف أمرين جليلين..

أولهما إسلامي بحيث يحرك المسلم من يقظة الفجر إلى هدأة الليل بحماس العقيدة، وطهر الصلاة، وشرف الإخلاص، وحب الله ورسوله.

وكلتا الجبهتين الشرقية والغربية تكره ذلك الأمر، وتأبى أن يأخذ الإسلام طريقه في الحياة بهذا الوضوح.

والأمر الآخر حيوي بحت، أساسه التفوق العلمي والعملي في كل أفق امتدت إليه الحضارة الحديثة من استصلاح التربة إلى غزو الفضاء!

ولنكن صرحاء! إن هذا التفوق لا يولد من تلقاء نفسه، إن التبريز في هذا المجال يتطلب رغبة في المعرفة، وشوقًا إلى المجهول، وعزما على اقتحام كل عقبة، وهذه لا تلدها إلا عقيدة مكينة!

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون فإن العقيدة المسيطرة أقوى من الحاجة في الاندفاع والتحمل واستشفاف الغيوب!

إن الجندي المؤمن يرمق الظلام في جنح الليل بطرف يكاد يخترق سدوله، ويبحث عن ألف حيلة لمقاومة العدو ودحره..

والعامل المؤمن يجفف العرق، وينفي عن نفسه التعب، لأنه ببواعث الحب لا القهر يريد خدمة أمته وإعلاء رسالته.

والمحزن في شؤون المسلمين أنهم من عشرات السنين لا يمكنون من الحياة وفق إيمانهم الأثير، وأنهم- أيضًا- يلفظون كل ما يعرض عليهم من إيمان بديل!

ونتج عن ذلك أن أعمالهم الخاصة ونهضاتهم العامة تولد ميتة، وأنهم إن تحركوا ففي مكانهم!

وقد تحركت اليابان منذ قرن في موكب نهضة صناعية عارمة، ونجت حركتها من هذا التدافع اللعين بين ما يفرض على الشعب من خارج، وما يهفو إليه من داخل؛ فماذا كانت النتيجة؟

أضحت أمة من أنجح أمم الدنيا، ولا تزال برغم هزيمتها في الحرب الأخيرة أمة مرهوبة العزم، إن لم يكن في صناعات الحرب، ففي صناعات السلام..

أما العالم الإسلامي خلال هذا القرن فقد رزق بمن يريدون محو دينهم أو تشويه صلته بهذا الدين، فكانوا شؤمًا على يومه وغده..

إن النهضة الحقيقية هي التي تفلح في استثارة قوى النفس، وفي جعل الأمة على اختلاف طوائفها كخلية النحل نشاطًا ونظامًا.

ولنزد الموضوع جلاء..

لقد نشأ عن الانفكاك بين العقيدة والعمل عجز رهيب في أداء الأعمال العادية حتى ليخيل إلي أن عوام المسلمين أصبحوا دون غيرهم من الخلق في نواحي الإنتاج المادي والأدبي.

وكثيرًا ما كنت أذكر قول أبي الطيب المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به

من أكثر الناس إحسان وإجمال

فأحس مقدار هبوطنا عن المستوى الإنساني الرفيع في الإتقان والإجادة!

إن النجاة من السقوط قد تكون شيئًا مقبولًا، ولكن ليس كل نجاح يحسب تفوقا.. قد يبدأ إنسان من العرج ويستطيع السير، ولكنه لا يمنح جائزة بتاتًا في العدو لمجرد القدرة على المشي.

والمتنبي يحتقر أهل زمانه لأنهم فقدوا ملكة الإجادة ولا يحسنون فعل العظائم!

فكيف لو رأى المعاصرين لنا من موظفين وعمال في كل شأن دق أو جل.

إن هؤلاء- لانعدام بواعث الإيمان والتقوى- تعوج في أيديهم الأعمال المستقيمة فلا يصلون بها إلى المستوى المقبول بله مستوى النبوغ والعبقرية!

راقبت يومًا بعض الناس الذين تكثر دعاواهم ولا تُؤْمَن بلاياهم، ثم عدت من نظرتي إليه وأنا أضع يدي على سبب مبين من أسباب تأخرنا.

نظرت إليه فوجدت العمل يخرج من بين يديه ناقصًا غير تام، شائها غير جميل، ووجدته لا يأسى على ذلك، ولا تحركه أشواق إلى إدراك ما فاته، وبلوغ مرتبة أفضل.

فعلمت أنه إنسان تنقصه موهبة الإتقان، وأن أمامه أشواطًا واسعة من التدريب والعلاج حتى تكسب يده المهارة المطلوبة وتستحب نفسه الإجادة والتفوق..

وأعدت النظرة مرة أخرى في سلوكه فرأيته يطلب على عمله الناقص ثمنًا كبيرًا ويرتقب من غيره التقدير المضاعف.

أو هو يفرض على الآخرين مطالبه مهما فدحت دون تقديم مقابل معقول!

فأحسست أن له طبعًا جشعًا كثير التطلع إلى طيبات الحياة، وليته يتوسل إلى مطامعه بجهد مبذول مقدور.

كلا، إنه من الناحية النظرية ضعيف الكفاية، ومن الناحية النفسية ضعيف الأمانة، فأي بلاء هذا؟

أمثال هذه العلل هبوط حقيقي بالمستوى الإنساني، ونزول مؤكد عن مرتبة الإحسان التي يفرضها الدين، ويبني تربيته على تحصيلها.

إن الحصاد الغالي للجهد البشري بعد طول الكدح في هذه الحياة أن يخرج الإنسان من هذه الدنيا بثمرة واحدة هي «العمل الحسن».

وذلك ما أكده القرآن الكريم عندما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (**الملك: ٢**).

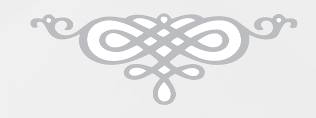
وقال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (**الكهف: ٧**). فأي عمل حسن لامرئ منطلق الرغبات كالطفل المدلل يطلب فقط، وعلى الدنيا أن تلبي!

إن النجاح الكبير في هذه الحياة وعند الله أن تنمى عقولنا وقلوبنا تنمية توفي على الغاية، والله جل شأنه يقول ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ﴾ (**الأنعام: ٤٨**).

الإيمان والإصلاح قرينان لا ينفكان، وليس من الإصلاح المنشود المفروض أن يكون الإنسان غير مأمون على إجادة واجب، أو غير مأمون- إذا

أجـاده - على المغالاة فيه، وطلب مكانة لا يستحقها عليه!

ومرة أخرى نقول: إن إعادة الحياة إلى العقيدة الإسلامية لتحتل مكانها في الضمير ثم إلى الشريعة لترسم خط السير في المجتمع الكبير، هي وحدها طريق النهوض الصحيح.





(٣٩)

التبشير والاستعمار

وآلام أخرى

العدد (١١٥) رجب (١٣٩٤هـ) يوليو (١٩٧٤م)

يكاد المراقبون والنقاد يجمعون على أن الأوروبيين والأمريكيين ليسوا مولعين بالتدين، ولا ميالين إلى التقوى، وأن صلتهم بالله لا تتجاوز الشكل إلى الموضوع، وأن احتفاءهم بالمناسبات الدينية يقوم على تحويل أيام الآحاد ومختلف الأعياد إلى فرص للاستجمام وشباك للهو والمرح بريئًا أو غير بريء.

والأوروبيون والأمريكيون- إجمالًا- يجنون ثمرات تقدم علمي رائع رفَّه معايشهم، ونعم حضارتهم، وربما استطاع هذا التقدم أن يلطف مسالكهم ويهذب غرائزهم إلا أن بيئات كبيرة في كلتا القارتين لم يرفع العلم الإنساني مستواها إلا في الكلمات والملابس!

أما ما وراء ذلك فهناك القتل، والخطف، والاغتصاب، والفوضى الجنسية، والكبرياء العنصرية، وعبادة الحياة الدنيا، والتجهم أو الإنكار لما وراءها..

ومع هذا السلوك الهابط فإن الأوروبيين والأمريكيين يهتمون بالتبشير ويرصدون لرجاله وأغراضه أموالًا طائلة، ويتابعون نشاطه ونتاجه بيقظة!

ومع أن الحكومات في كلتا القارتين لا تبالي أن يؤمن أبناؤها أو يلحدوا.. إلا أنها تولي الدين في إفريقية وآسيا قدرًا ملحوظًا من رعايتها، وتتوسل به إلى تذليل الصعاب، وحطم الخصوم.

ولننظر إلى فلسطين في ظل الانتداب البريطاني لنرى آثار هذا الاتجاه في تحقيق الأغراض الاستعمارية بين سكان هذا القطر المحروب..

كان تسعة أعشار الفلسطينيين مسلمين عربًا فكيف يمكن تذويب عروبتهم وإسلامهم معًا؟ وكيف يمكن خلق الظروف التي تتمخض عن قيام «إسرائيل» كما وعدت بذلك بريطانيا؟

لن أتعرض هنا للأساليب الاقتصادية والعسكرية على شناعتها ووحشيتها، وإنما أتعرض للنواحي الدينية وحسب.

كان بفلسطين معهد لتخريج الدعاة المسلمين يسمى «الكلية الصلاحية» أمر الانتداب البريطاني بالإجهاز عليه عشية باشر الحكم في البلاد.

وقد نشرت إحدى الصحف تاريخًا موجزًا لهذه الكلية جاء به:

«كلية صلاح الدين الأيوبي».

كانت تقوم في الناحية الشمالية الشرقية على بعد عشرات الأمتار من الحرم الشريف في المكان المعروف بدير القديسة حنا، ويقال إن هذا المكان جعل مدرسة إسلامية قبل صلاح الدين الأيوبي.

ولكن اسمها قد التصق بصلاح الدين حينما جعل منها مدرسة للفقه الشافعي بطلب من فقهاء الشافعية، ومرَّ عليها زمن تقلبت فيه بين يد النصارى والمسلمين.

«حتى كانت سنة ١٩١٤م -١٣٣٣هـ، وقام على بلاد الشام القائد التركي جمال باشا، حيث أعادها مدرسة دينية إسلامية لإعداد مبشرين للعالم الإسلامي وبالأخص للهند والصين وسماها «كلية صلاح الدين الأيوبي» وعرفت بين الناس بالكلية الصلاحية كما درس بها علماء من مختلف البلاد في ذلك الوقت؛ من أمثال: محمد إسعاف النشاشيبي، وجودت الهاشمي، وعبدالقادر المغربي السوري الذي كان فيما بعد نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم عبدالعزيز جاويش، ورستم حيدر، وجميل النيال، وعبدالرحمن سلام... الخ، وكان شيخ الإسلام في الأستانة يحول

مرتبات هذه المدرسة من تركيا بوساطة متصرف القدس، وبدخول الجيش الإنجليزي القدس في ١٩١٧/١٢/٨م أعيدت هذه المدرسة إلى يد الآباء البيض الفرنسيين وهي اليوم مدرسة أكليريكية دينية للروم الكاثوليك».

والواقع أن هذا التاريخ مدخول، فالمدرسة كانت تقوم بتعليم الفقه الإسلامي ثم حولها الترك إلى كلية للدعاة تخدم الإسلام في الداخل والخارج.. فلما ملك الإنجليز الأمر حولوها إلى كلية لتخريج المبشرين المسيحيين، وسلموها إلى جماعة الآباء البيض الفرنسية وهي جماعة لها دور هائل في محاولة تنصير المغرب العربي أيام الاحتلال الفرنسي.

والتعبير بأنها «أعيدت» للفرنسيين يتمشى مع الفكر التبشيري الذي يرى أن آسيا الوسطى ومصر والشمال الإفريقي كله كانت مستعمرات رومانية، ويجب أن تعود كما كانت وقد بذل الاحتلال البريطاني لمصر جهودًا شاقة لإبعاد الأمة عن دينها، وعن المناسبات التاريخية التي تربطها به.

نشرت جريدة الأخبار تحت عنوان «احتج الإنجليز على الاحتفال بعيد الهجرة في إذاعة القاهرة منذ ٤٠ عامًا» قالت: احتفل العالم الإسلامي أمس بعيد الهجرة، وهو بداية العام الجديد منذ أمر عمر بن الخطاب بجعل الهجرة أساس التقويم الإسلامي. وقد احتفلت به الإذاعة المصرية لأول مرة سنة ١٩٣٤ ميلادي بقرار من مدحت عاصم أول مدير للإذاعة المصرية بعد أن أصبحت حكومية، وكانت من قبل تشرف عليها مؤسسات أهلية، وأمر المدير المصري أن يبدأ الاحتفال بصلاة الفجر.

وعد ذلك حدثا غريبا، وواجه المدير المصري معارضة شديدة من الانجليز المشرفين على الإذاعة!

وكانت الحجة المعلنة أن الإداريين والفنيين سوف يسهرون إلى الثانية صباحًا، ورد عليهم السيد مدحت عاصم بأن هؤلاء يسهرون في رأس السنة الميلادية حتى مطلع الفجر، وبعده إلى الصباح، وإذن فلا بد- بالقياس- من

الاحتفال بالسنة الهجرية وسكت المعترضون كارهين، فإن الاحتفال بالسنة الميلادية لذيذ أما الاحتفال بذكرى الهجرة فشيء ممجوج، أو لعله شيء رجعي!

المهم أن الإنجليز بعد أن ألغوا الكلية الصلاحية، واطمأنوا إلى أنه لن يكون للإسلام دعاة مرشدون في فلسطين رأوا أن يستجلبوا إلى الأرض المستباحة مللا أخرى تثير الفوضى الدينية فيها، وتبلبل الأفكار، وتكثر الظروف المهيئة لقيام إسرائيل.. وهم من قبل شجعوا البهائية، واحتضنوا طاغيتها الداهية عباس عبدالبهاء، ورفعوا منزلته ماديا وأدبيا، فجعلوا عكا كعبة البهائيين المبثوثين في بقاع شتى، وربطوهم بفلسطين روحيا، ووثقوا الصلات بين المحافل البهائية ودعاة الصهيونية، حتى تخدم إحداهما الأخرى ويتظاهران جميعا على الإسلام.

بيد أن ذلك لا يكفي فلا بد من استقدام القاديانية إلى فلسطين هي الأخرى كي تشارك في صنع الشتات الإسلامي وتمهد للوجود اليهودي.

وغلام أحمد منذ نشأ في الهند كان صوت سادته ومنفذ إرادتهم، وأذكر أني لما زرت أوغنده منذ عامين وجدت مسجدًا للقاديانية في أعظم ميادين العاصمة..

وشاء الله أن ينقرض هؤلاء السماسرة من أوغنده بعد أن انقطع الاستعمار الانجليزي منها.

لكنهم في فلسطين بقوا بعد أن تركت لليهود يبنون بها دولتهم التي رفع الإنجليز قواعدها.. والمجلة التي نقلنا عنها خبر الكلية الصلاحية البائسة تذكر النشاط القادياني داخل إسرائيل وكأنه ولد ونما بطريقة طبيعية، فهي تسوق القصة على هذا النحو:

«لقد كان الأستاذ المولوي جلال الدين شمس أول مبشر أوفد من قبل الخليفة الثاني للجماعة الأحمدية إلى بلدان الشرق الأوسط، وذلك في أواخر العشرينات من هذا القرن، وكان قد مهد لهذه الحملة حضرة المولوي

زين العابدين أستاذ تاريخ الأديان في كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس، وقد بدأ عمله في دمشق الشام إلى أن اضطر إلى الانتقال لمدينة حيفا بفلسطين بسبب المعارضة الشديدة التي لقيها من علماء المسلمين هناك وبناء على طلب من الحكومة الفرنسية آنذاك.

وفي حيفا أسس جماعة وبشر بدعوة المهدي زمنا ما حتى تسنى له الاتصال بأهل قرية الكبابير الواقعة على جبل الكرمل والمجاورة لحيفا فقبل معظم سكانها الأحمدية وأقام بها مركزا تبشيريا سنة ١٩٢٩م وفي السنة التالية بنى المسجد الموجود حاليا ثم أضيفت إليه دار التبليغ، وأنشئت سنة ١٩٣٤م المطبعة الأحمدية وبدأ المركز يصدر مجلة «البشرى» وهي المجلة الأحمدية الوحيدة في بلاد الشرق الأوسط التي ما زالت تصدر بإسرائيل كما بوشر في الحال بفتح مدرسة ابتدائية لتعليم البنين والبنات وكذلك مدرسة ليلية لتعليم الكبار.

وقد تطورت المدرسة مع الزمن إلى أن أصبحت اليوم تضم ثمانية صفوف ابتدائية وروضة أطفال ولها بناية أنيقة وقاعة جميلة.

والمدرسة الأحمدية في الكبابير هي أيضًا المدرسة الإسلامية الوحيدة في البلاد التي تدار بصورة مستقلة عن جهاز التعليم الحكومي.

لقد كان المركز في الكبابير حتى قيام دولة إسرائيل يشرف على الأعمال التبشيرية الأحمدية في جميع بلدان الشرق الأوسط. وكانت الكبابير نقطة انتقال للمبشرين القاصدين من الشرق إلى الغرب أو العائدين من الغرب إلى الشرق.

لكن نشاطه انحصر بعد سنة ١٩٤٨م في إسرائيل وحدها..

وبعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧م امتد نشاط الجماعة إلى الضفة الغربية وإلى قطاع غزة. وللأحمدية اليوم عدد غير قليل من الأتباع في هذه المناطق.

ولا بد من التنويه إلى أن الجماعة الأحمدية في إسرائيل تمارس نشاطها

بحرية ولها مكانة محترمة لدى الأوساط الرسمية والشعبية في هذا البلد.

ويشرف على المركز اليوم الأستاذ بشير الدين عبيدالله تساعده هيئة إدارية ينتخبها أفراد الجماعة المحلية، وكذلك جمعية خدام الأحمدية للشباب ولجنة إماء الله للنساء يقومون كل يوم بواجباتهم نحو الجماعة تحت رعاية المبشر.

وفي الكبابير اليوم نحو ثمانمائة أحمدي يكونون الغالبية الساحقة من سكان القرية.. والمعروف أن كلتا النحلتين المبتدعتين، البهائية والقديانية تخدم الاستعمار العالمي وتشد أزره في ضرب الإسلام والعدوان على أمته، وهي لون آخر من التبشير يتفق في الغاية ويختلف في المنهج.

وليس كل مدد يصل إلى المبشرين من الشعوب الأوروبية والامريكية يتسم بالعدوان، ويتعمد مقدمه النيل منا والعدوان علينا.. ففي الدهماء عدد كبير من السذج والقاصرين يحسب أنه يرضي الله بما يبذل من مال..

وربما عذر حكومته وهي تباشر أحط وسائل الفتنة والسرقة للعقائد والمقدسات..

على أن الحكومات الاستعمارية عقدت صلحا دائما بين ضميرها وهواها، وأقنعت به نفسها ورعاياها، واستمرأت بمقتضاه تسخير الدين في تحقيق ما تسعى وراءه من أطماع..

والتبشير يتطلب أمرين متكاملين:

أولهما: العنوان الذي يستر خبيئته ويجعل له- في الظاهر- وظيفة أخرى ثقافية أو اجتماعية أو طبية.. إلخ، يمضي تحت شعارها إلى هدفه.

والثاني وهو في نظرنا شديد الخطورة: تكوين الظروف التي تشغل الشعوب بحوار مفتعل، أو قضايا وهمية، أو مسالك محيرة تتبدد فيها الطاقة، وتتشعب الآراء والأهواء.

إن هذه الظروف المصنوعة تشبه سحب الدخان التي تتحرك خلفها الجيوش الزاحفة، فلا يوضع أمامها عائق ولا يوقفها استعداد أو حذر.

وما أشك في أن التبشير العالمي، جند أقلاما كثيرة في الأمة العربية والإسلامية:

- تشن حربًا من الصمت مثلًا على كتب جيدة نافعة لتقدم أخرى ضارة تافهة..
- أو تطفئ شعلة من الحق في مكانها قبلما تتحول إلى سراج وهاج لو تركت للنمو الطبيعي.
- أو تخلق سرابًا من المناهج تحدو إليه ألوف الشباب ليلهثوا في طلبه ثم يعودوا بخفي حنين.
- أو تسوي بين اليقينيات والأوهام لتهدم مكانة الأولى وما ينبغي لها من قداسة أو تتدخل في الجبهة المناوئة لها كي تساعد على جعل قيادتها معتلة هزيلة.

المهم إحداث شتات وبعثرة في الوقت الذي يجدّ فيه رجال التبشير للقيام بدورهم كاملًا والميدان خال من الحراس، أو الحراس مشغولون فيه بغيرهم.

وقد وصل الذين يعملون في خدمة الأغراض التبشيرية إلى أعداد رهيبة، وننقل هنا ما ذكرته مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة الأوقاف المغربية في عددها الأخير قالت: نشرت دائرة معارف الكنيسة (انسكلوبيديا(الأرقام التالية عن النشاط الكنسي:

(١) لدى الكنيسة الكاثوليكية ٢٥٠,٠٠٠ متفرغ في العالم (مبشرين) بينما يبلغ مجموع العاملين لخدمة الكنيسة الكاثوليكية ١,٦٠٠,٠٠٠ (مليون وستمائة ألف نسمة).

(٢) خلال ربع قرن من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٥٢ حول المبشرون ١٣,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثة عشر مليون) شخص إلى الكاثوليكية بمعدل نصف مليون سنويا.

(٣) لدى الكنيسة البروتستانتية ٤٣,٠٠٠ (ثلاثة وأربعون ألف) متفرغ (مبشرين) يديرون (١٦٠٠) ألفا وستمائة مركز ومستشفى في العالم لأغراض التبشير.

وقد زاد عدد البروتستانت في ربع القرن من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٥٢ حوالي ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثين مليونًا) والجدير بالغرابة أن هذا النشاط الباهر يتم في صمت، وأن صحفنا البارعة الذكية متواصية على كتمانه، زاهدة في الإشارة إليه.

وتلتحق بحرب التبشير حرية الإسكان والتهجير، وقد تمت- بتآمر عالمي- جريمة محو الوجود العربي في فلسطين، وتسليم الأرض إلى المستوطنين اليهود المجلوبين من أطراف الدنيا..

وقد ذكرنا في بعض كتبنا كيف أخذت إنجلترا جزيرة قبرص من تركيا، وكانت إسلامية خالصة طول ثلاثة عشر قرنا فاستقدمت إليها المستوطنين اليونانيين حتى كادت تذهب بصيغتها الأولى.. وتقوم الآن حركة لضمها إلى اليونان، التي لم تعرف هذه الجزيرة من بدء التاريخ!

وفي ظلام الغفلة والصمت تحاول عناصر معينة شراء أراض ذات قيمة تاريخية أو عسكرية ثم تحشد أتباعها فيها ليظهروا بغتة بمطالب شاذة يحميها القانون! ولا أدري إلى متى يبقى العرب والمسلمون ذاهلين عن مصيرهم مع تلك المؤامرات المدروسة التي تفاجئهم بين حين وحين..

ولا أحس غضاضة من التنبيه إلى قضية تحديد النسل.. إن أعداء الإسلام يعرفون النتائج المادية والمعنوية التي تترتب على الكثرة العددية للأمة الإسلامية، ومن ثم يجتهدون في إقناع المسلمين- وحدهم- بجدوى قلة النسل، وأقول مؤكدًا- وحدهم- لأن رؤساء الأديان الأخرى أجمعوا أمرهم على تكثير نسلهم..

ومن المفيد أن أذكر أن المسلمين في الأقطار الشيوعية بعد ذبول معروف الأسباب أخذوا يكثرون.

لعل هذه الكثرة مصداق المثل السائر «بقية السيف أنمى»!

وقد قرأت دراسة علمية دقيقة نشرتها مجلة «دعوة الحق» في هذا الموضوع ختمته بهذه الحقائق «بعد انحسار دام نصف قرن على الأقل أخذ

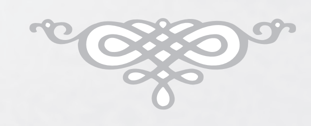
المسلمون يتزايدون تزايدًا طبيعيا كبيرًا في كل المناطق التي درسناها، وبهذا زادت نسبتهم في السنين الأخيرة في البلاد الشيوعية الأربع (الاتحاد السوفيتي، يوغسلافيا، ألبانيا، بلغاريا)، التي سبقت دراستها..

- فمن بين كل ألف سوفيتي كان ١١٣ مسلمًا سنة ١٩٣٩ فصار ١٣٦ مسلمًا سنة ١٩٧١.
- ومن بين كل ألف يوغسلافي كان ١١٢ مسلمًا سنة ١٩٣١ فصار ١٥١ مسلمًا سنة ١٩٧١.
- ومن بين كل ألف ألباني كان ٦٨٦ مسلمًا سنة ١٩٣٠ فصار ٧٠٧ مسلمين سنة ١٩٦٩.
- ومن بين كل ألف بلغاري كان ١٣٣ مسلمًا سنة ١٩٤٩ فصار ١٧٠ مسلمًا سنة ١٩٧١.

وهذا هو نفس الوضع في معظم بلاد العالم حيث يتزايد المسلمون أكثر من غيرهم وهذا يكشف هدف الدعايات الخبيثة لتحديد النسل بين المسلمين.

فواجب كل مسلم من جهة، الوقوف ضد هذه الدعايات ومن جهة أخرى العمل على تحسين وضع المسلمين المادي والمعنوي.

ونحن نضع بين أيدي قرائنا هذه المعلومات ليدركوا الكثير مما يُغَيّب عمدا عن العيون.





(٤٠)

اللّٰه

(١)

العدد (١١٠) صفر (١٣٩٤هـ) فبراير (١٩٧٤م)

هذا الاسم الكريم علم على الذات المقدسة التي نؤمن بها، ونعمل لها ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا.

والله تبارك وتعالى أهل الحمد والمجد وأهل التقوى والمغفرة، لا نحصي ثناء عليه، ولا نبلغ حقه توقيرا وإجلالا.

ولو أن البشر منذ كتب لهم تاريخ وإلى أن تهمد لهم على ظهر الأرض حركة؛ نسوا الله؛ ما خدش ذلك شيئا من جلاله، ولا نقص ذرة من سلطانه، ولا كسف شعاعا من ضيائه، فهو سبحانه أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته وأوسع في ملكوته وجبروته من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل.

ولئن كنا في عصر عكف على هواه، وذهل عن أخراه، وتنكر لربه، إن ضير ذلك يقع على أم رأسه ولن يضر الله شيئًا.

ووجوده تعالى من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته، ويهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حقائق التفكير العويصة، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المسافة جدًّا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **(ابراهيم: ١٠)**.

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا في الإشراك به والفهم عنه.

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة فهي تمسخها وتشرد بها وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج، وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان وقبولهم الكفر أو الإلحاد مع منافاة ذلك لمنطق العقل وأصل الخلقة.

وقد اقترنت حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم بنزوع حاد إلى المماراة في وجود الله والنظر إلى الأديان جملة نظرة تنقص، أو قبولها كمسكنات اجتماعية.

ولا شك أن المحنة التي يعانيها العالم اليوم أزمة روحية منشؤها كفره بالمثل العليا التي جاء بها الدين، فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل يهتدي إليها بفطرته كما يهتدي الجنين سبيله في ولادته، ومتى هدي العالم إلى الفطرة هدي إلى الإسلام فإن الإسلام هو دين الفطرة.

إن الإنسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التي يعيش عليها، ولا السماء التي يستظل بها، والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك، فمن المقطوع به أن وظيفة الخلق والإبداع من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد، ومن المقطوع به كذلك أن شيئًا من ذلك لا يحدث من تلقاء نفسه؛ فلم يبق إلا الله.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (**الطور: ٣٥، ٣٦**).

ولو دخل المرء دارا فوجد فيها غرفة مهيأة للطعام وأخرى للمنام وأخرى للضيافة وأخرى للنظافة لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن حكمة وتقدير وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل.

والناظر في الكون وآفاقه والمادة وخصائصها يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار الكون حاسم في إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ **(الفرقان: ٦١، ٦٢)**.

وهذه الكواكب السيارة التي تخترق أعماء الجو التي تلتزم مدارا واحدا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل، ثم نرتقبها في موعدها المحسوب فلا تخالف عنها أبدا..

هذه الكرات الغليظة الحجم، الحي منها والميت، المضيء منها والمعتم معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، كل في دائرته لا يعدوها، وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا وهم أهل بصر وعقل.. أما هذه الكواكب التي تزحم الفضاء فإنها لا تزيغ ولا تصطدم.

من الذي هيمن على نظامها وأشرف على مدارها؟ بل من الذي أمسك بأجرامها الهائلة ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة.. إنها لا ترتكز في علوها إلا على دعائم القدرة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ **(فاطر: ٤١)**.

أما كلمة الجاذبية فدلالتها العلمية كدلالة حرف «س» على المجهول.. إنها رمز لقوانين تصرخ باسم الله، ولكن الصم لا يسمعون.

إن وجود كل منا له بداية معروفة، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئا

يذكر ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ (**الإنسان: ١**).

وعناصر الكون الذي نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة، وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعمارًا محدودة، مهما طالت فقد كانت قبلها صفرا.. وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى، اعتمد عليه فريق من الناس في القول بقدم العالم وما يتبع هذا القدم الموهوم من أباطيل.. على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة فإن المفتاح الذي يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضروري أن يضعه الله في أيدي العلماء، وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر مادة الكون لا يعني أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء.

إننا جازمون بأن وجودنا محدث لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورًا ذاتيا.

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها قيل إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد إنه ليس لها فاعل، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وبين ربه؟ إننا لم نكن شيئًا فكنا.. فمن كوننا؟ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (**الأنعام: ٩١**).

نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافًا، فوضع الأرض أمام الشمس مثلا، ثم على مسافة معينة لو نقصت بحيث ازداد قربها من الشمس لاحترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان، ولو بعدت المسافة لعم الجليد والصقيع وجه الأرض وهلك كذلك الزرع والضرع.. أفتظن إقامتها في مكانها ذاك جاء خبط عشواء؟

وحركة المد والجزر التي ترتبط بالقمر، أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه الأرض أكثر فيسحب أمواج المحيطات سحبًا يغطي به وجه اليابسة كلها ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شيء؟

من الذي أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك؟

إننا على سطح الأرض نستنشق الأوكسجين لنحيا به ونطرد الكربون الناشئ من احتراق الطعام في جسومنا، وكان ينبغي أن يستنفد الأحياء وما أكثرهم هذا العنصر الثمين في الهواء فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدا.. لكن الذي يقع أن النبات الأخضر يأخذ الكربون ويعطي بدله أوكسجين، وبهذه المعاوضة الغريبة يبقى التوازن في طبيعة الغلاف الهوائي الذي يحيا في جوه اللطيف الحيوان والنبات جميعا .. أفتحسب هذا التوافق حدث من تلقاء نفسه؟

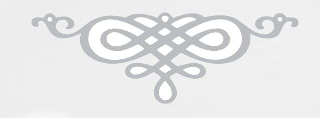
إنني أحيانا أسرح الطرف في زهرة مخططة بعشرات الألوان ألتقطها من بين مئات الأزهار الطالعة في إحدى الحدائق، ثم أسأل نفسي: بأي ريشة نسقت هذه الألوان؟ إنها ليست ألوان الطيف وحدها.. إنها مزيج رائق ساحر من الألوان التي تبدو هنا مخففة وهنا مظللة وهنا مخططة وهنا منقطة.

وأنظر إلى أسفل .. إلى التراب الأعفر إنه بيقين ليس راسم هذه الألوان ولا موزع أصباغها.. هل الصدفة هي التي أشرفت على ذلك؟ إن المرء يكون غبيا جدا عندما يتصور الأمور على هذا النحو.

إن إنشاء الحياة في أصغر خلية يتطلب نظامًا بالغ الإحكام، ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق «جزيء» في جسم دودة حقيرة فضلًا عن خلق جهازها الهضمي والعصبي، فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان

الهائل الكيان، ثم ما بالك بخلق ذلك العالم الرحب؟

إن العلم بريء من مزاعم الإلحاد ومضاد لما يرسل من أحكام بلهاء.. الحق أن الإلحاد الذي يشيع بين طوائف المتحذلقين والمتنطعين لا يستند البتة إلى ذرة من المعرفة أو التفكير السليم.



(٤١)

مَنْ؟ إلا الله ...!

(٢)

العدد (١٣٥) ربيع الأول (١٣٩٦هـ) مارس (١٩٧٦م)

ذكر الطيار الروسي «تيتوف» مشاهده وهو في الفضاء يدور بسفينته العجيبة حول الأرض، لقد رأى مظاهر كونية شتى كلها ساحر رائع، ثم قال:

«ولكن أروع من هذا كله منظر الأرض وهي معلقة في الفضاء، إنه منظر لا يستطيع الإنسان أن ينساه ولا أن يضيعه من خياله، كرة تشبه الصور المرسومة لها في الخرائط، معلقة في الفضاء ليس هناك من يحملها، كل ما حولها فراغ.. فراغ.. فراغ..

وقد أصبت بالذهول مدة لحظات وساءلت نفسي في دهشة: ترى ما الذي يبقيها معلقة هكذا هناك..؟»

والجواب: من إلا الله؟ إن هذا السؤال الذي توحي به الفطرة البريئة لا نرى أيسر ولا أصرح ولا أخصر من إجابة القرآن الكريم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ (فاطر: ٤١)، إنه هو الذي أبقاها معلقة هكذا في مكانها، كما أبقى القمر، والشمس اللذين نراهما ليلاً ونهاراً، لا ركيزة لأحد هذه الكواكب إلا أعمدة القدرة العليا قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ (لقمان: ١٠). إن سفينة الفضاء التي قبع في داخلها تيتوف، لم تنطلق من تلقاء نفسها، ولم تتجمع آلاتها وأجهزتها خبط عشواء، ولم تقم برحلتها السماوية دون نظام محكم رسمه لها أذكى العلماء، فهل

يا ترى انطلقت الأرض في فضائها من تلقاء نفسها، ودون مشرف على حركاتها، ودون تقدير دقيق لصلتها بغيرها من شتى الكواكب ودون رعاية لحاجات الألوف المؤلفة من الأحياء المحتشدة فوق سطحها.. إن هذا ما ينفيه العلم نفسه، وما تشهد بغيره سفينة الفضاء التي ركبها الرائد الروسي المتسائل المدهوش.. إننا نسأل مع هذا الطيار وغيره: من الذي يستبقي الأرض، وجميع الكواكب القريبة والبعيدة في مداراتها الرحبة، تسبح دون إعياء، ودون اضطراب في فضاء الكون العظيم؟ ومن ينسق لها حركاتها فلا تصطدم ولا تنحرف؟

إننا لا نسأل نحن، بل القرآن نفسه يسأل ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (**المؤمنون: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩**).

إن الإيمان ليس حالة تنشأ من ركود النشاط الفكري، وتأثر العقل بالأوهام والخرافات، وإيمان من هذا القبيل لا وزن له..

ولعلماء المسلمين كلام في قيمة إيمان المقلد، لقد رفضه فريق منهم، ورأى أنه لا يفيد صاحبه! لماذا؟ لأن الله يقول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (**النجم: ٣٩**) وإيمان المقلد ليس من سعيه، وإنما هو من سعي غيره له.

أجل إنه من سعي الأذكياء الذين فكروا وواصلوا، أما هو فلم تعتمل في نفسه فكرة، ولم تتحرك في كيانه همة، بل تتبع الآخرين دون وعي، وهذا لا يعد جهدًا محترما حقيقا بالمثوبة. ومن ثم فنحن نحب أن يسأل «تيتوف»

وأن يسأل غيره من الناس عن مظاهر الكون كلها، وأن يبحثوا بحماسة عن الخالق الكبير وأن يتحروا الحقيقة في تقرير الإجابة وألا يكتفوا بالتساؤل المبتور، أو ينطقوا بالسؤال ثم تقلبهم تيارات مجنونة دون انتظار الجواب..

إنا سمعنا من فم الوحي- قبل أن نسمع من الطيار الروسي المبهور- هذا السؤال عن الأرض ومن فيها قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسمعنا الجواب الحتم عقب هذا السؤال الواجب ﴿قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (**الأنعام: ١٢**).

إن الإسلام دين فجر الطاقة العقلية في البشر وجعل اليقين في الله نتيجة لا بد منها لتجوال الفكر الإنساني المستيقظ النابه في آفاق السموات والأرض، ولذلك لا يوجل الإسلام من البحوث العلمية ولا الكشوف الكونية، بل على العكس يدفع إليها دفعا ويحض عليها حضا. وكل خطوة يخطوها العلم الكوني تؤكد أن الله من وراء كل حركة وسكنة، وأن المادة يستحيل أن تتخلق من غير شيء، وأن هذا الاطراد والاتساق في القوانين التي تربط بين أجزاء المادة يستحيل أن يتولد من الهباء ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (**النمل: ٩٣**).

والعقل الإنساني كفر بما ينبغي الكفر به على الإجمال!

تقول: كيف هذا والجواب أن الناس مع إطباقهم على ضرورة الألوهية ونفرتهم من التعطيل، وإنكار رب العالمين، مع هذا فقد أبوا إلا تصور الألوهية على أنحاء منكرة وارتسمت لها في أذهانهم صور أغلبها باطل، والعقل الذي يرفض عبادة حيوان أو جماد معذور في كفره بهذه الآلهة، والعقل الذي يأبى التسليم بآلهة شركاء، وأب وأبناء، معذور في إبائه هذا، ولأمر ما كانت كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مكونة من شقين، أولهما نفي والآخر إثبات.

لا إله.. هذا الشق الأول من الكلمة يعني نفي ما صنعه الخيال البشري من آلهة أرضية وهي آلهة شاع الإيمان بها- ولا يزال- في أقطار كثيرة، وبين جماهير غفيرة.

ونحن المسلمين نكفر بهذه الآلهة المختلفة، ونقول ما قاله القرآن الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (**يوسف: ٤٠**).

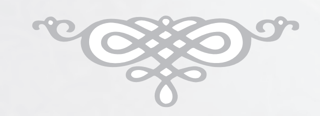
والماديون اكتفوا بهذا الشق، ولو عقلوا لأدركوا أنه بعد الكفر بالآلهة التي صنعها الناس لا بد من الإيمان بالله الذي صنع كل شيء، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

لا بد بعد كلمة لا إله التي تنفي كل ألوهية باطلة أن يجيء بعدها الإثبات العظيم الحق وهو.. إلا الله.

الله الذي أحس الطيار بعض آثاره عندما رأى الأرض معلقة في الفضاء يكتنفها الفراغ من كل ناحية، فهتف دهشا: من يحملها؟ ونحن نجيب: من إلا الله؟

ثم نقول من أعماق قلوبنا:

لا إله إلا الله محمد رسول الله.



(٤٢)

الحقائق وحدها من أجل الإنسان

العدد (١٣٢) ذو الحجة (١٣٩٥هـ) ديسمبر (١٩٧٥م)

يجب إحكام الرقابة على الطرائق التي نؤثر بها فكرة على فكرة، واتجاهًا على اتجاه، فإن الغش في المقاييس العظيمة أكبر شيوعًا من الغش في موازين التجار الخونة!

والغريب أن الإنسان قد يضيق إذا بخس حقه في سلعة دفع ثمنها كاملًا، ويشعر بسوأة الختل وسوء المعاملة، بيد أن هذا الإنسان نفسه لا يشعر بكثير حرج عندما يصدر حكمًا خاطئًا على أمر من الأمور، أو عندما يقتنع بصدق أسطورة مبتوتة الصلة بالواقع.. وقد حرك القرآن الكريم جمهور المشركين كي يستبينوا طبيعة ما لديهم من عقائد ومذاهب وأهاب بهم أن يعيدوا النظر في تقويمها! وأن يكشفوا الغش الذي زين لهم قبولها! وساءلهم أين الدليل على ما ذهبوا إليه؟

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ **(الأنبياء: ٢٤)**.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ **(النمل: ٦٤)**.

والمطالبة بالبرهان في كلتا الآيتين ليست أكثر من عرض لإعادة النظر في المواريث الفكرية السائدة حتى ينبذ منها ما لا دليل عليه، وحتى يتخلص الإنسان من قيود الوهم التي تشل قدرته وتضلل غايته.

ولسنا هنا في مقام التنديد بقوم ألغوا عقولهم، وتبعوا ما انتقل إليهم عن آبائهم، فإذا بدا لهم خطلهم أصروا عليه، لبلادة غلفت عقولهم بالتعصب،

وجعلتهم يردون هاديهم إلى الحق بهذا الجمود ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ **(الزخرف: ٢٤)**. فإن هذا الصنف من الدهماء مهدر الكرامة، بيّن الرذيلة.

إنما حديثنا هنا عن كثير من أولي العقل الذكي، والفكر النير، من يحترمون المنطق وينحنون للدليل، ولكنهم لأمر ما سمحوا لأفكار شتى أن تتسرب إلى نفوسهم، وأن تؤثر في سلوكهم دون وعي كامل ونقد حصيف، والزلل الفكري لهؤلاء الكبار بعيد المدى.

وأشيع ما يكون هذا الزلل بين المبرزين في فن ما عندما يتكلمون في فن آخر.

إن الرجل قد يتبوأ القمة في علم الطب، فإذا تحدث في التشريع أو اللغة وقع فيما لا تقع فيه الناشئة، وبعض المخترعين تحدث في الدين بكلمات تثير الضحك، وأبدى آراءً لا وزن لها.

وإذا تركنا ميادين التخصص العلمي المختلفة وجدنا أنفسنا أمام عوائق أخرى دون الحقيقة المجردة.

إن العلماء في ميدان واحد قد يبدأون البحث من أساس هو موضع ثقتهم التامة، مع أن هذا الأساس نفسه مدخول خادع.

وما أكثر الوراثات والإشاعات والأفهام التي لا تثبت على التمحيص وهي عند أصحابها عقائد مكينة، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى المنطق العلمي الصارم في تقويم كل شيء، وترتيبه حسب منزلته من اليقين. يقول الكسيس كاريل: في جميع الأزمان كانت الإنسانية تتأمل نفسها من خلال منظار ملون بالمبادئ والمعتقدات والأوهام، فيجب أن تهمل هذه الأفكار الزائفة غير الصحيحة. ومنذ أمد بعيد أشار كلود برنار في كتاباته الداعية إلى التحرر الفكري إلى ضرورة التخلص من النظم الفلسفية والعلمية السائدة كما يفعل الإنسان حينما

يحطم سلاسل العبودية العقلية، ولكن بلوغ مثل هذه الحرية لم يتحقق بعد لأن البيولوجيين والمعلمين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع كانوا إذا ما واجهتهم مشكلات شديدة التعقيد غالبًا ما يستجيبون للإغراء الذي استحوذ عليهم لكي يبنوا نظريات ثم يقلبوها بعد ذلك إلى معتقدات، ومن ثم تبلورت علومهم على شكل تراكيب شأنهم في ذلك شأن المتعصبين للديانات، إننا نلاقي كثيرًا من دواعي التعب بسبب هذه الأخطاء في جميع نواحي المعرفة.

ونحن نود لو عولجت الآراء والمقترحات والمذاهب بأقصى ما لدى البشر من ذكاء وتجرد وحرية، فإن الأوهام بين الناس أكثر من الحقائق، ولو كانت الظنون العلمية والاجتماعية والدينية تتساقط من أذهان أصحابها كما يتساقط ورق الشجر في فصل الخريف، لعريت عقول كثيرة مما يتماسك بها، وما يطلبه مؤلف «الإنسان ذلك المجهول» هو ما سلكه كبار العلماء عندنا.

إن نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين في مزدحم الآراء التي تلقاهم ولا شك أن القرآن الكريم من وراء هذا السعي الحميد.

وتأمل في هذه الآيات التي تجمع الرذائل الفكرية والنفسية لأي رأي وتحذر من مقارفتها ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ (**الذاريات: ١٠، ١١، ١٢**).

التخرص، والانغماس في الغفلة، والسهو عن الواقع.. هذه آفات لا تنتج حقيقة أبدًا، ومثلها غفلة الحواس وذهولها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (**ق: ٣٧**) فكم من حاضر الجسم غائب اللب أترى ذلك يعي ما أمامه؟

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (**المؤمنون: ٥٤، ٥٥، ٥٦**).

المرء المغمور بصور مادية ومعنوية معينة قلما يخرج من محبسه ليدرك

مشاهد أخرى للحياة أو جوانب من الحق لا يحسها.. إلا أن تدركه أقدار حسنة فتتيح له أن يعرف ما كان يجهل.

والحضارة الإسلامية في أعصار ازدهارها، وقربها من منابعها كانت تلمع فيها هذه الصبغة الباهرة، صبغة التجرد للحق، والبحث عن اليقين.

ولنتناول طرفا من حياة الغزالي الكبير، كنموذج إسلامي في مجتمع شبيه بعصرنا هذا، كانت الأفكار فيه والمذاهب تتصارع في كل قرية ومدينة، إذ إن الثقافات الأجنبية العالمية تمت ترجمتها تقربًا إلى العربية في الوقت الذي بلغت فيه علوم الدين واللغة مرتبة الاستقرار، وشاع الجدل العلمي في كل ناحية وانتشرت مجالسه ومناظراته.

فكان طالب الحق يجد نفسه أمام ألوان شتى من التفكير، وبين دعوات تجتذبه من هنا ومن هناك. وإنك لتلمح مدى الحرية العقلية التي تمتع الغزالي بها وهو يصف نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال» إذ يقول: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة وأتقحم كل ورقة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار كل طائفة لأميز بين محقق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي،

حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا؛ إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال: «كل مولود يولد على الفطر فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (صحيح رواه الطبراني في الكبير) فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصيلة وحقيقة المعارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل.

فقلت في نفسي: أولًا إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم».

والمنهج العلمي البحث الصارم في ضبط المقدمات ووزن النتائج بموازين الذهب، لا يلقى أشرف من هذه السيرة ولو وُضِعَتْ هذه السطور المضيئة أمام المؤلف الفرنسي الكبير لامتلأ قلبه إجلالًا لصاحبها، ونحن- حين نخط هذه السطور- نشفق من متاجرين بالحرية العقلية، لا يؤيدونها إلا بمقدار ما تعطي الشبهات حق الحياة، والخطأ حق الانطلاق، والفوضى حق التدمير.

فإذا أتاحت لهم الحرية ما يبتغون سدوا على خصومهم أفواه الطرق ودفعوا بالمجتمع كله صوب ما يعتنقون.

وهذه ثمار مرة لا يرى عاقل أن يمهد لها، والأمر يحتاج إلى تفصيل ومحاذرة.

ففي ميدان العلم، وفي مجامعه الكبرى، وصفوفه العليا يمكن أن ندرس النقائض، وتسمع شتى الآراء، وتناقش جهرة دون حرج ومع تأمين مطلق لذويها.

أما أن يتمكن بعض المنحرفين من آذان العامة ويصبوا فيها ألوان الإغراء،

ومنازع الشر، فهذا هدم لا بناء، وخطره على المجتمع شديد، إذ هو سيزلزل القيم التي يتحرك بها، ويوهي الأواصر التي تشد بعضه إلى بعض.

ولقد رأيت بعد إنعام النظر واستقراء الأحداث أن الباطل لا يسير في الأرض بقواه الذاتية، وإنما تسيره عوامل الرغبة والرهبة، وتسنده الرشا والسيوف، وعندما تتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه.

أما الحق فإن تجاوبه مع فطرة الله في النفوس يجعله مقبولًا مستحبًا ويقدره على تخطي العقبات واجتياز السدود، أي أن الحق لا يخشى الحرية أبدًا.

ومن ثم فنحن مع توفير الحرية التامة في أرجاء المجتمع، نعتقد أن هذه الحرية بما فيها من حرارة ستنضج السنابل النافعة وتقتل الحشرات الضارة.. سيأخذ الحق منها جواز مروره إلى الأعقاب على اختلاف الليل والنهار، وسينكمش الباطل في جوها، فإما صعق لفوره، وإما تحرك قليلًا ريثما يلقى حتفه، وكم من عوج في الدنيا ما يمسك بقاءه إلا استخفاء هذه الحرية العزيزة ولو هبت رياحها يومًا لخلعت جذوره.

وبديهي أن الحرية التي نعشق هي تلك التي تحد من جهاتها الأربع بما لا يضر الآخرين.. إنها الجو الذي يعيش على تمحيص الحقيقة ويساعد على قبولها دون قسر أو ختل.

والعلم بالإنسان ورسالته، وضمان حاضره ومستقبله، والتسامي به مبنى ومعنى جهد رحيب الدائرة، بل إن العلم بالإنسان لا يصح إلا مع خبرة محترمة بعلوم الكون والحياة وإحاطة حسنة بجملة الحقائق المادية والتاريخية والاجتماعية.

ولا غرو فالإنسان أثمن درة في هذا الوجود، والقصور لا يجدي في فهم قضاياه، ولذلك يقول الكسيس كاريل: «إن علم الإنسان يستخدم جميع العلوم الأخرى، وهذا سبب من أسباب بطئه وصعوبته» ويقول: «من الواضح

طبعًا أنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتحكم ويتفوق في جميع الفنون التي لا غنى عنها لدراسة مشكلة واحدة من مشكلات الإنسان».

وليس هذا مثبطًا للهمم أو معجزًا للباحثين، ولنبدأ السير من الآن، سيكون علم الإنسان مهمة المستقبل فيجب أن تقنع الآن بالبداية سواء من الناحية التحليلية أو من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الإنسانية.. وهنا نشرف على أنفس ما وصل إليه العالم الغربي الألمعي!

ما الإنسان الذي نحيطه بتلك الهالة النيرة؟

لقد كرم الله الإنسان من قديم، وفضله على صنوف البر والبحر.

وفي عصرنا هذا نجد الإنسان بدل أن يصعد السلم بقدمين يحمله المصعد إلى أعلى، وبدل أن يقطع المسافات الشاسعة في سفره تحمله الطائرات إلى أعلى ما يبغي.

إن عناصر وفيرة في الأرض والسماء مسخرة لإراحة البشر وترفيههم، وكلما ارتفعت الحضارة زادت أعداد العناصر المسخرة للإنسان، وزادت مقدرة الإنسان على تطويعها لرغباته.

فهل كرامة الإنسان وعظمته تعودان إلى هذه المهارة؟ كلا، إن الإنسان الذي يصعد السلم على قدميه وهو يلهث أشرف من ممتطي المصعد، إذا كان الأول يحمل بين حناياه قلبا زكيًا، ونفسًا تقية، وكان الآخر لا يعرف إلا ملء معدته وإطفاء شهوته.

ليس شرف الإنسان بمدى سطوته في الأرض، بل بمدى تنمية مواهبه العليا وملكاته النبيلة.

وفي هذه الأيام نستقبل أنباء غزاة الفضاء وهم يحاولون -ببأس شديد- أن يتعرفوا الكواكب الأخرى ويضعوا أقدامهم على سطحها.

إن هذا تقدم علمي رائع بيد أن قيمته الإنسانية هابطة ما بقي البشر

على ظهر الأرض يأكل أبيضهم أسودهم، ويستذل قويهم ضعيفهم، ويصبحون ويمسون وهم لا يحسنون إلا خدمة الإهاب الطيني الذي احتوى خصائصهم ووظائفهم المادية والمعنوية «فإن كل إنسان منصرف الآن- هكذا يقول كاريل- إلى الاهتمام بالأشياء التي تزيد من ثروته وراحته في حين لا يوجد من يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والعقلية لكل فرد يجب أن تتناولها يد التحسين، فإن صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الأدبي والتطور الروحي تتساوى في أهميتها مع صحة الأبدان ومنع الأمراض المعدية، ويستطرد كاريل فيقول:

إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية وقد يكون من الأجدى ألا نضفي مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء، ومن ثم فإن من الأفضل كثيرًا أن نوجه اهتمامًا أكثر إلى أنفسنا عن أن نبني بواخر أكثر سرعة وسيارات تتوافر فيها أسباب الراحة وأجهزة راديو أقل ثمنًا أو تلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق، ما هو مدى التقدم الحقيقي الذي نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين في ساعات قلائل؟ هل من الضروري أن نزيد الإنتاج من غير توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر باطراد من أشياء لا جدوى منها؟ ليس هناك أي ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الخلقي والتوازن العصبي والأمن والسلام.

يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه في اتجاه آخر..

يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية لتتبع الأبحاث العقلية والروحية».

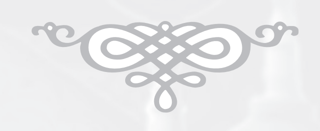
وقائل هذا الكلام رجل يستمد معرفته من المعمل والأرقام، والوقائع وهو

يبغي بمنطق العلم التجريبي المنزه عن الوهم والمجازفة أن يعرف الإنسان نفسه ومصلحته العاجلة أو الآجلة.

ولو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصيب كريم في هذا الميدان.. أعني أن يلتفتوا إلى هذا العلم الجديد (علم الإنسان) ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحي، فإن كل علم للإنسان يجب إرساء قواعده على الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى اعتداد مرحلة العمر فترة اختبار لها ما بعدها.

وعبيد الدنيا ينكرون هذا الكلام أشد الإنكار، ويتوهمون أن مستقبلهم هنا وحسب.

ما أشبههم برجل قرر أن يزرع صحاري القطبين، واستصحب في رحلته إليها قناطير البذور.. إنه لن يجني من جليدها إلا متاع الغرور.





(٤٣)

عباقرة

العدد (١٣٧) جمادى الأولى (١٣٩٦هـ) مايو (١٩٧٦م)

التواضع لله من دلائل الرشد وأمارات الإيمان، بل هو من علامات الصحة العقلية والنفسية، فإن المعجب بنفسه المتكبر على غيره إنسان لم يعرف حقيقته، ولم يتصرف في نطاق هذه الحقيقة فهو مصدر تعب وقلق حيث كان!

ومبلغ علمي أن أصحاب المواهب النفيسة متواضعون، وأن الذي رزقهم النبوغ لم يشنهم بهذا اللون من الجهالة، فهم يضعون تفوقهم الشخصي في خدمة الآخرين.

وبقدر ما في معادنهم من صلابة يبذلون أنفسهم لأمتهم ومبادئهم، دون قلق على مكانة موهوبة أو منزلة مزعومة، أما الذين يستخفون وراء أسوار من المراسم والشارات فأغلبهم هش المعدن، قريب العطب.

وأغلب من عرفت من المتكبرين أقوام صغار المواهب يسترون علاتهم بافتعال مظاهر لا أصل لها!

ولو أن امرءا ما استكبر بعلم حقيقي أو بطولة رائعة، أو مال ممدود، أو قيادة حكيمة، أو غير ذلك من أسباب الرفعة لكان مخطئًا أفدح الخطأ.

لماذا؟ لأن واهب النعمة والخير والبروز هو الله جل شأنه.

والإنسان جسر يعبر عليه هذا الفضل الأعلى، ومجلى لهذه العارية الطارئة عليه من غيره لا من ذاته، فلم الكبرياء على الله؟

ما أحسن قول الرجل المؤمن لأخيه المغتر بثرائه ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ **(الكهف: ٣٩)**. إن المدل بجماله لم يصنع

شيئًا من ملاحمه الوسيمة، وذوو المواهب العليا رزقهم التفوق من خلقهم، ومهد لهم واختبرهم بما آتى، فلماذا الغرور بالنفس؟

ولنترك هذا الضرب من الكبر الذي يعتمد على سناد، أي سناد في تفكير أصحابه! ولننظر إلى قوم آخرين يستكبرون بالهباء، أو بما لا يزن شيئًا طائلًا.

وقد كثر هذا النوع في بلادنا وتوزع على مناصب شتى هنا وهناك ومسخت دعاواهم كل شيء..

ترى الواحد منهم فقيرًا في معرفته ضئيلًا في إنتاجه، ومع ذلك يرمق الحياة والأحياء بالنظر الشزر ويعامل الناس معاملة العملاق للأقزام، والفيلسوف للعوام.

في غير ميدان قابلت هؤلاء وهم يتكلمون أو يعملون، أو يحكمون، فرأيتهم حراصًا على الظهور في شارات الناس الكبار، على حين تضعهم أقدارهم وثمارهم في المستوى الهابط والمكانة النازلة!

قلت في نفسي: الناس يستكبرون بالعلم وهؤلاء يستكبرون بالجهل، الناس قد تأخذهم عزة بالطاعة وهؤلاء تأخذهم العزة بالإثم، ما أشقى بلادنا بهؤلاء!

لو أدرك هؤلاء ما في كفاياتهم من نقص لاستكملوه! لكن الحجاب المسدل على بصائرهم خيل إليهم أنهم عباقرة فعاشوا ينكبون الناس بقصورهم وغرورهم.

وربما اغتر الأعور بنصف بصره بين لفيف من العميان..

أما أن يغتر بعاهته بين أصحاب البصر الحديد فهذه النكبة الجائحة!

والعالم الآن مشحون بأصحاب المواهب المعجبة، والخبرات الجيدة والتجارب المصقولة، والثروات الأدبية والمادية الهائلة، فإذا سرنا نحن في

الموكب العالمي بهذه الحفنة من الأدعياء الفارغين فماذا يكون تقديرنا؟ وماذا يكون مصيرنا؟ والشخص التافه يفلسف الأوضاع حوله بما يشبع كبره، ويصدق وهمه، أي أنه بدلًا من أن يستيقظ على الحقائق اللاذعة ينظر إليها من جانب يرضيه ويطغيه.

وقد روت كتب الأدب القديم قصة هي، على ما فيها من هزل، صورة صادقة لكثير من ذوي المناصب المرموقة في الأمة العربية الآن.

كان أبوحية النميري جبانًا بخيلًا كذابًا! قال ابن قتيبة: «وكان له سيف يسميه «لعاب المنية» ليس بينه وبين الخشبة فرق!

وكان أجبن الناس، دخل ليلة إلى بيته فسمع صوتًا لا عهد له به فانتضى سيفه، ووقف في وسط الدار، وأخذ يقول: أيها المغتر بنا المجترئ علينا، بئس- والله- ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل (لعاب المنية) الذي سمعت به. مشهورة ضربته لا تخاف نبوته! اخرج بالعفو عنك، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك! إني والله إن أدع قيسًا إليك لا تقم لها.. وما قيس؟ تملأ- والله- الفضاء خيلًا ورجلًا سبحان الله ما أكثرها!

وبينا هو كذلك إذ خرج كلب من باب الدار فقال:

«الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا»!

لست أبعد إذا قلت: إنني رأيت صورًا لهذا الجبان المستأسد في بعض الساسة الذين كتبوا تاريخ الشرق العربي في العصر الحديث.

العجز الحريص على الصدارة، والدعوى الفارضة نفسها على الواقع، والهوى الذي يطوي الأشخاص والأشياء والأحداث في تياره ويضفي عليها صبغته الجادة أو الهازلة.

وعلى هذا السنن البائس تجري أمور العرب.

ذكرت الجنرال أيزنهاور قائد الحرب العالمية الثانية التي انتصرت فيها

أمريكا وحلفاؤها، إن أمريكا لم تعط رجلها لقب «ماريشال» مع أنه خاض حربًا تم له فيها النصر بعد أن دمرت مئات المدن والقرى وقتل وجرح سبعون ألف شخص.

وعرفت مديرًا أجنبيًا لمصنع كبير قيل لي في وصف إدارته: تراه جوالًا بين الآلات والمكاتب مغبر الجبين بتراب العمل وعرقه، ملوث الثياب بالزيوت والشحوم التي قد تسقط عليه وهو تحت آلة يعالجها، أو في طريق وعرة إلى مهمة ثقيلة!

فتذكرت شكوى أحد المربين وهو يصف لي بعض الشباب في بلادنا العربية: إنهم يبغون مكتبًا أنيقًا يجلسون إليه و«تليفونا» يثرثرون فيه، ونمطا من العيش لا يضني ولا يقلق!

قلت: والله هذه أخلاق الهزيمة والضياع، وأصحابها هم عللنا المقعدة، أما الرجال المعنيون بالعمل الحق، الحمالون لأعبائه الثقال، فهم أهل النصر والتقدم!

إنني أغوص في بحر من الحيرة والأسف حين أرى عظماء العالم على جانب رائع من دماثة الخلق، ولطف المعاشرة، وسهولة الطبع، وقلة التكلف، على حين نرى المتسولين من موائدهم متعجرفين متعاظمين كأنهم أتوا بالذئب من ذيله كما يقول العوام في أمثالهم.

إن بناة التاريخ من سلفنا الصالح كانوا يتميزون بخلقين: عظم الكفاءة، ونكران الذات! ذلك ما استفادوه من إيمانهم الوثيق بالإسلام، قدرة ملحوظة في مجالات النشاط الإنساني، وإخلاص لله يدفع أحدهم إلى الجود بما عنده: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ **(الليل: ١٩، ٢٠)**.

والغريب أن الخلف الطالح جاء على الضد، فهو مكشوف العجز في جنبات الدنيا ماديًا وأدبيًا، وهو طالب شهرة يجري وراءها كالطفل الغرير،

ويريد أن يرمقه الناس بالتجلة على غير شيء!

إن خصومنا لم يخرقوا العادات فيما يفعلون ويتركون، لقد رأيتهم منطقيين في شتى أحوالهم.. أما نحن فقد هبطنا عن المستوى العادي ولم نكن منطقيين في تصرفاتنا..

ومن وراء هذا الخلل الجسيم البعثيون والقوميون الذين نفثوا سمومهم في كل شيء.

فقد جرأوا العرب على قطع نسبهم إلى الإسلام، جرأوهم على اطراح عقائده وفضائله، ثم وثبوا على الحكم عقب انقلابات مصطنعة لا تتصل بالشعوب العربية من قريب أو بعيد، ثم أخذوا يتعسفون السير نحو أغراضهم على حطام الأخلاق والأبطال.. ثم واجه العرب اليهود، والعرب حطام من الداخل وإن كان الظاهر مزوقًا فكانت النكبة..

فهل تعلم العرب من هزائمهم المترادفة أن يثوبوا إلى رشدهم؟

وتصور معيدًا في كلية يصبح عميدها، أو كاتبًا في محكمة يصبح رئيسها، لكن هكذا تجري الأمور في غيبة الدين والدنيا معًا.

لقد أبى المتنبي الذهاب إلى الأندلس، لأنه أدرك تفاهة حكامها من ضخامة الألقاب التي يحملونها، وكأن الرجل يصف أحوال العرب في عصرنا هذا لا في عصره هو، عندما يقول:

في كل أرض وطئتها أمم

يقودها عبد كأنهم غنم!

إن العرب الآن يخوضون معركة بقاء أو فناء.

وفي غيبة الإيمان وتقاليده وشمائله عن مجتمعاتهم نمت أخلاق أخرى لا تصلح بها حياة ولا تضمن بها آخرة.. ومن الخير أن يتحسسوا هذا البلاء في صفوفهم فيحسموه.

إن الحقائق تفرض نفسها طوعًا أو كرهًا مهما تجاهلناها، وعندما يكون الشعب شكلًا لا موضوع له فهو صفر.. وعندما يكون الرؤساء أوراقًا مالية ليس لها غطاء نقدي محترم فهم عملة زائفة قد تروج بين المغفلين، ولكن إلى حين.

على العرب أن يعيدوا تشكيل نفوسهم وصفوفهم ومتقدميهم ومتأخريهم وفق القانون الإلهي العتيد: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ **(النساء: ١٢٣، ١٢٤)**.

ما يفعل الله للعرب إذا كان رؤساؤهم يستهينون بكلام نبيهم؟ ما يفعل الله للعرب إذا كان خصومهم في كل ميدان يقودهم أقدرهم وأشجعهم، أما قادة العرب فأخلاط من الناس فرضتهم في أماكنهم حظوظ سيئة؟

ما يفعل الله للعرب إذا كانوا يهزلون وخصمهم جاد؟

لا بد من إعادة النظر في شأننا كله، وإلا حقت علينا كلمة ربك.



(٤٤)

نقد الأحاديث فن لا مسلاة

العدد (١٤٢) شوال (١٣٩٦هـ) أكتوبر (١٩٧٦م)

لم يفزع علماء المسلمين من اعتراض يقيمه أحد الباحثين في وجه حديث من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ إذا كان هذا الاعتراض قائمًا على أساس علمي محترم.

وقد وجدنا أئمة الفقه الإسلامي الذين بنوا مذاهبهم على الكتاب والسنة يتوقفون في قبول بعض الأحاديث لا لشيء إلا لأنهم ينقدون سندها أو متنها نقدًا مؤسسًا على التعمق لا التعنت، والدراية لا الدعوى.

ونقد السند يعتمد في لبابه على معرفة الرجال وأحوالهم وهو ما تكفل به علم الجرح والتعديل.

وقد كان لهذا العمل أساطينه في عصور خلت، أما اليوم فإن خبراءه انعدموا، أو بقي منهم نفر لا يبلغون أصابع اليد عدا.

وتراث الأوائل في هذا المجال حقيق بالدراسة الواعية، وهو مرآة لجهود جليلة في غربلة الأخبار وفحص نقلتها.

أما نقد المتن فقوامه مقارنة الحديث المنقول بما صح من نقول أخرى، والنظر إليه على ضوء ما تقرر إجمالًا وتفصيلًا في كتاب الله وسنة رسوله.

وقد استباح بعض القاصرين لأنفسهم أن يردوا بعض السنن الصحاح لأنهم أساءوا فهمها فسارعوا إلى تكذيبها دون تبصر.

أذكر أن رجلًا جاءني يوما يتهم أحد الخطباء بالكذب على رسول الله ﷺ فقلت له: ماذا نسب إلى صاحب الرسالة؟

فقال: زعم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في بيته، فجاء أحد الناس يريد الدخول، فقال عنه قبل أن يدخل: بئس أخو العشيرة هو، فلما دخل تطلق في وجهه وألان له الكلام حتى انصرف، فراجعته السيدة عائشة في ذلك، كيف وصفه أولًا بما قال؟ ثم كيف لاطفه حتى صرفه؟ قال لها يا عائشة متى عهدتني فاحشا؟ إن من شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه.

قلت للرجل: وما وجه الكذب على رسول الله ﷺ في هذا الحديث؟ فقال: إنه يتهم الرسول بالنفاق.

فقلت له: أخطأت الفهم، إن النفاق شيء ومداراة السفهاء شيء آخر.

النفاق رذيلة أساسها ضعف الشخصية والتلون مع الناس وعدم الارتباط بالقيم الثابتة، أما مداراة السفهاء ففضيلة أساسها الضن بالكرامة والوقت أن يضيعا مع أحمق لا يحسن الخطاب ولا السماع، وكم في الناس من أدعياء لا تنقصهم الجراءة والسلاطة لو تنزل المرء إلى مستواهم لأزرى بعقله وخلقه فما بد من سد أفواههم حتى لا ينسكب منها ما يؤذي، والحلم ندام السفيه كما يقولون.

الحديث صحيح يا أخا العرب ولا تسارع إلى تكذيب ما لم تحط به خبرًا.

وكتب السنة المعتبرة في ثقافتنا التقليدية مليئة بالأحاديث الصحيحة والحسنة، وفيها كذلك الضعيف الذي كشف العلماء علله.

وعندي أن المشكلة الأولى ليست في ميز الصحيح من الحسن والحسن من الضعيف، بل في فهم الحديث على وجهه وترتيبه مع غيره من السنن الواردة..

وهذا هو عمل الفقهاء وجهدهم الكبير.

على أن من حقنا أن نغضب لتطاول البعض دون بصيرة علمية على أصول الإسلام، ومصادر ثقافته، والجري وراء الاستعمار الثقافي في التطويح بالسنن والتهوين من رجالها.

والسنة هي الاستحكامات الخارجية حول أسوار القرآن، فإذا تم تدميرها فدور القرآن آت بعدها، وذاك أمل المستشرقين المبشرين وسائر أعداء الدين.

ومن خصائص الإسلام أن أصوله العلمية ظفرت بصيانة فريدة أبقتها إلى آخر الدهر مستعصية على التبديد والتحريف.

فالقرآن منذ نزل من عند الله حتى هذه الساعة محفوظ من أول حرف فيه إلى آخر حرف منه.. تتوارثه القرون بطريق التواتر، وهو طريق فوق الشك والريبة، إذ هو مجيء الخبر عن طريق جموع يحكم العقل باستحالة تواطئها على الكذب.

ونستطيع القول بأن القرآن هو الكتاب الفذ الذي حبته العناية العليا هذه الخاصة، وليس بين أيدي الناس كتاب من الأرض أو من السماء حصنته كل هذه الضمانات.

ثم هناك السنة وهي المصدر الثاني لتعاليم الإسلام.. وقد لقيت هي الأخرى من عناية الأمة الإسلامية ما يجعلها مستيقنة في الجملة.

ولما كان بعض الناس ضعيف الدراية بطبيعة هذا المصدر فنحن نشرحه بكلمات وجيزة.. ونسارع إلى القول بأن التاريخ لم يحك عن أمة من الأمم أنها احتفت بآثار نبيها، واستقصتها وغربلتها، ووضعت أدق القوانين العلمية لقبولها، مثلما فعل المسلمون بتراث محمد من قول وفعل وقضاء وتقرير.

وليس في دين من الأديان، ولا مذهب من المذاهب هذا الوزن العجيب للأسانيد والمرويات وهذه المحاكمة المنصفة لما ينقل عن صاحب رسالة.

من السنة ما هو متواتر لا يقل في ثبوته عن القرآن الكريم نفسه كهيئات الصلاة مثلًا.

ومنها ما هو متواترالمعنى.. أي أن النقول تجيء بوقائع شتى وألفاظ متفاوتة، ولكن ينتظمها جميعًا قدر مشترك من المعاني.

ومنها ما جاء بأسانيد آحاد.

والإسناد- وإن شاع الجهل به الآن- إلا أنه شيء خطير في حقيقته وأثره، ولذلك قال العلماء: الإسناد من الدين ولولاه لقال من شاء ما شاء!

وذلك أن المسلمين متفقون على أن ما أمر به الرسول أو نهى عنه يجب أن نطيعه فيه، فذلك حقه، بل حق الأنبياء كلهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ **(النساء: ٦٤)**.

والاجتهاد بين الناس إنما يحدث في معرفة هل قال الرسول ﷺ ذلك أو لم يقله.

ولا شك أن العقائد كلها وجمهرة الأحكام التي هي عماد الدين بلغت الناس بطرق مشهورة لا محل للجهل بها.

بيد أن هناك أحكامًا جاءت عن طريق سنن الآحاد التي أشرنا إليها آنفًا، ونحن هنا نريد أن ننظر بإنصاف وفي حياد تام إلى أسلوب المسلمين في تلقي هذه السنن.

هل هو أسلوب يتسم بالمجازفة والتراخي، أو هو أسلوب يتسم باليقظة والدقة؟ ولنضرب مثلًا بالأخبار التي تذاع عن الرؤساء الكبار في عصرنا!

هب أن مستشارًا لرئيس دولة كبرى أدلى بتصريح عن رأي رئيسها في قضية ما، فنقل هذا التصريح رجل من الحاشية، ثم تلقفه أحد الصحافيين فنشره، ما تكون قيمة هذا الخبر؟ نجيب بأنه خبر يحتمل الصدق والكذب ولا يترجح إلى إحدى الناحيتين إلا إذا عرفنا قيمة المصدر الذي أتى منه هذا النبأ، فإذا عرفنا أن الخبر نقلته الصحيفة بالفعل عن رجل الحاشية، عن مستشار الرئيس مباشرة، وكان كل واحد من هؤلاء مشهورا بأمرين.. الضبط التام لما يسمع، والصدق التام فيما ينقل.. فما يكون رأينا في هذا الخبر؟ أنصدقه أو نكذبه؟ الجواب أننا نتجه إلى تصديقه.. وذلك هو ما يطلب علماء المسلمين توافره في الخبر ليكون صحيحًا، وتقبل نسبته لرسول الله ﷺ.

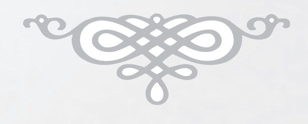
بل هم يزيدون إلى هذا أمرين آخرين.. لقد اطمأنوا إلى الخبر من ناحية مصدره، أعني الرواة الذين نقلوه، لكن الخبر نفسه ما هو؟ إنه قد يكون مخالفًا لما استقر بطريق أوثق، فإذا كان مخالفًا، عد شاذا، ووقع التوقف فيه، ثم قد تكون هناك علل أخرى خفية تتسرب إلى الحديث المروي فترفع الثقة به ولا يعد الحديث صحيحًا إلا إذا برئ من سائر هذه العلل القوادح.

ثم ماذا بعد هذه الاشتراطات كلها؟

إن الحديث بعد أن نطمئن إلى سلسلة الرواة الذين نقلوه، وأنهم أمناء واعون، وأن كل واحد منهم تلقى عن الآخر تلقيا مباشرًا، وأن ما نقلوه متفق مع ما علم من الدين بالطرق الأخرى وليست هناك علة فيه.. هذا الحديث يفيد العلم الظني، أي أنه ليس مصدرًا للعقائد الدينية وإنما مجال الأخذ به في الأعمال الشرعية الأخرى.

هل في الدنيا تدقيق وتحقيق وراء هذا المسلك؟ هل عرف دين من الأديان هذا المنهج في نقد ما ينسب إلى رئيسه؟

ومع ذلك كله تجد شخصًا يضع قدمًا على أخرى ويتكئ على كرسيه ثم يقول في استهانة صبيانية: الأحاديث غير صحيحة ويرمي نصف الإسلام في البحر.. يا قوم.. بعض الإنصاف.





(٤٥)

عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق

العدد (١٥٠) جمادى الآخرة (١٣٩٧هـ) يونيو (١٩٧٧م)

كان الوحي الإلهي قديما يتخير بقاعا من الأرض لينزل بها، كما ينزل الغيث في مكان دون مكان.

لكن بعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت نقلة جديدة بالعالم كله، وتحولا في حركة الوحي الإلهي على ظهر الأرض.. إذْ جاءت الرسالة الأخيرة لكل بشر يعقل ما يسمع.. ثم هي قد صحبت الزمان في مسيرته، فإذا انتهى جيل من الناس، فإن الجيل الذي يليه، مخاطب بها، مكلف أن يمشي في سناها.

والإجماع معقود بين المسلمين على عموم الرسالة وخلودها، ونريد أن نلقي نظرة على الآيات التي دلت على عالمية الرسالة لنستخلص منها حكما محددا.

قال تعالى في سورة التكوير ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ **(التكوير: ٢٦، ٢٧، ٢٨)** وقال في سورة القلم ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ **(القلم: ٥١، ٥٢)**

وقال في سورة سبأ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **(سبأ: ٢٨)** وقال في سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ **(الفرقان: ١)**

وقال في سورة الأنبياء ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ **(الأنبياء: ١٠٧)**

وقال في سورة يوسف ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(**يوسف: ١٠٣، ١٠٤**)

وقال في سورة الأنعام﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (**الأنعام:١٩**).

وقال أيضا في السورة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾(**الأنعام:٩٠**).

وهذه الآيات كلها مكية، أي أن عالمية الرسالة تقررت منذ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تعاني الأمرَّين، كان القرآن يقرر أنه رسالة للعالم كله، في الوقت الذي كان فيه أهل مكة يستكثرون أن يكون محمد ﷺ رسولا لهم وحدهم!

ولم تنزل بالمدينة آية تتحدث عن هذه العالمية، اكتفاء بما تمهد في صدر الدعوة، إلا آية واحدة من سورة الأحزاب هي قوله جل شأنه ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾(**الأحزاب: ٤٠**) وختم النبوة تقرير لهذه العالمية، فإن القارات الخمس إلى قيام الساعة لن يطرقها من السماء طارق، ولن يجيئها من عند الله رسول، وسيبقى كتاب محمد ﷺ وحده، صوت السماء بين الناس، إلى أن يحشروا للحساب فيقال لهم ﴿ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (**الروم: ٥٦**) وآية ختم النبوة صدقتها الأيام المتتابعة فها قد مضت أربعة عشر قرنا، وما نزل من السماء وحي، وقد حاول الاستعمار الأوروبي أن يضع يده على مخبول في الهند، وآخر في إيران، ليصنع منهما أنبياء يكابر بهما نبوة محمد ﷺ، وهيهات هيهات! فإن الأوروبيين أنفسهم احتقروا الرجل الذي صنعوه، فما تبع أحدهم نبي الهند، ولا نبي العجم، وبدأت اللعبة تتكشف ويفر عنها المستغفلون!

إن الصباح العريض الذي بزغ مع رسالة محمد ﷺ سوف يظل وحده النور الذي يغمر العالم ويملأ الأفق إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة والأحياء.

وإنما لفتنا النظر إلى أن الآيات الناطقة بعالمية الرسالة مكية، كي ندحض فرية لبعض المستشرقين الذين زعموا أن محمدا ﷺ بدأ عربي الرسالة، معنيا بقومه وحدهم، فلما نجح في إخضاعهم أغراه النجاح بتوسيع دائرة الدعوة، فزعم أنه للخلق كلهم! وهذا تفكير متهافت بيّن السخف، فقد رأيت بالاستقراء أن عالمية الرسالة تم التصريح بها في أوائل ما نزل من الوحي!

ثم نسأل: متى خضع العرب لمحمد ﷺ حتى يغريه النجاح بمزيد من التوسع؟ إن مكة التي طاردته لم تفتح له إلا قبل الممات بسنتين اثنتين، فأين استقرار النصر، والتطلع إلى إخضاع الدنيا، وهو لما ينته من الجزيرة العربية نفسها؟

إن هذا الفكر الاستشراقي لم يلق حفاوة من عاقل، ولذلك نخلص منه لنقرر حقائق أخرى نابعة من هذه الحقيقة المؤكدة، أن محمدا رسول العالمين، وأول ما نقرره أن هذه الصفة انفرد بها محمد عليه الصلاة والسلام، فكل الأنبياء من قبله محليون، رسالتهم محدودة الزمان والمكان، ابتداء من آدم إلى عيسى.

والنصارى يرون أن رسالة عيسى عالمية، وينطلقون بها في كل مكان، ليبلغوها وينشروها، ونحن نحب نبي الله عيسى، ونعتقد أنه رسول حق إلى بني إسرائيل خاصة ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ...﴾ **(الصف: ٦)**.

على أن النصرانية التي تشيع بين الناس اليوم، وتساندها قوى كثيرة تخالف رسالات السماء كلها، إذ هي فلسفة تجعل من عيسى إلها، أو شبه

إله، يرسل الرسل، وينزل الكتب، يغفر الذنوب، ويحاسب الخلائق.

والنصرانية بهذا المفهوم المستغرب لا يعنينا أن تكون عالمية أو محلية، لأنها شيء آخر غير ما ينزل به الوحي على سائر الرسل، قال تعالى لنبيه محمد ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (**الأنبياء: ٢٥**) إن هذه النصرانية الجديدة لا تتصل بعيسى الذي مهد لمحمد ﷺ، كما لا تتصل بعيسى الذي بلغ تعاليم إبراهيم وبنيه، ومن ثم فهي في نظرنا منهج بشري، مستقل بأفكاره عما قبله وعما بعده.. ورسل الله، يصدق بعضهم بعضا، ويمهد السابق للاحق ما استطاع.

ورسالة محمد ﷺ، أقامت مفهوم العالمية فيها، على أن الدين واحد من الأزل إلى الأبد، وأن الأنبياء إخوة في التعريف بالله والدلالة عليه، واقتياد البشرية إليه.. وأن القرآن الكريم جمع في سياقه الباقي كل ما تناثر على ألسنة النبيين من عقائد وفضائل، ولذلك فإن الإيمان بهم جميعا مطلوب، والكفر بأحدهم انسلاخ من رسالة محمد ﷺ نفسه، ومن الطبيعي أن تبدأ الرسالة عملها في بقعة ما من أرض الله، وقد شرع النبي العربي محمد ﷺ يعلم الأميين من عبدة الأوثان، ويرشد الحائرين والجاحدين من أهل الكتاب، وبعد تسعة عشر عاما من الدعوة الدائبة، استطاع أن يظفر من الوثنية الحاكمة بحقه في الحياة، وحق من يتبعونه في العيش بدينهم والتجمع عليه.

عندما نال هذا الحق في معاهدة الحديبية، وأصبح له موضع قدم يستقر فيه، ويدعو منه، أخذ يرسل إلى أهل الأرض يبلغهم الحق، ويفتح عيونهم على سناه.

ومن أهل الأرض يومئذ؟ الروم غربي الجزيرة وشمالها، والفرس في الناحية المقابلة، وحكام آخرون يعيشون في جوارهم، أو يدورون في فلكهم.

هل كان وراء الرومان من يفهمون الخطاب شمالي أوروبا أو وسطها؟ أو

وسط إفريقيا وجنوبها؟ كانت هناك قبائل السكسون، والجرمان، والغالة، والوندال، وقبائل أخرى مشابهة لها في أفريقيا، وكانت هناك وراء الفرس شعوب جاء وصفها في قصة ذي القرنين في القرآن الكريم بأنهم لا يكادون يفقهون قولا.

على أية حال فإن النبي المبعوث للعالم أرسل إلى إمبراطور الروم وملك الفرس، وحاكم مصر ونجاشي الحبشة، وإلى الأمراء المنتشرين حول الجزيرة العربية يدعوهم إلى توحيد الله، واعتناق الإسلام، لعله بدأ بالجيران الذين يلونه، فبلغ أمر ربه، حتى إذا أتم هدايتهم تجاوزهم إلى من يلونهم من أجناس البشر.

أو لعل الفكر البشري في هذه الآونة لم يبلغ درجة الوعي، وأهلية الخطاب إلا في هذه البقاع المتحضرة والتي ظهرت فيها جمهرة الرسالات السماوية من قديم.

على أية حال فإن اليقظة الإنسانية التي بدأت في جزيرة العرب ما كانت نهضة جنس متفوق، ولا طماح زعيم متطلع، بل كانت حركة قبيل من الناس، اختارتهم العناية العليا، ليربطوا جماهير البشر بالله الواحد، وليسيروا في هذه الدنيا وفق هداه لا وفق هواهم ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾**(إبراهيم: ١، ٢)**.

وأكذب الناس على الله وعلى عباده من يزعم الإسلام طور من أطوار البعث العربي، إن هذا الكلام لا يساويه في الرخص والغثاثة إلا ما تضمنه من إفك وتضليل، فإن محمدا عليه الصلاة والسلام رفض رفضا باتا أن يكون للعرق أو اللون أو القوة أو الثروة أي رجحان في موازين الكرامة

الإنسانية، والمحور الذي دار عليه الإسلام هو التوحيد في العبادة والتشريع وإخلاص الوجه الله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (**الأنعام: ١١٥**) وقد قلنا، ولا نزال نقول: إن الله تعالى ربى محمدا عليه الصلاة والسلام ليربي به العرب وربى العرب بمحمد عليه الصلاة والسلام ليربي بهم الناس، فرسالة العرب أن يكونوا جسورا لهدايات السماء، وأن يعلموا الخلق ما تعلموه من الخالق.

وإذا كانوا تلامذة لخاتم الرسل، فهم بما درسوا أساتذة للشعوب الأخرى تتلقى عنهم وتستضيء بهم.

وهذه المكانة للأمة العربية مكانة عالية حقا، بيد أنها لا تقوم على الدعوى، بل على البلاغ، ولا تقوم على البطالة، بل على التضحية، وذلك معنى قول الله تبارك اسمه: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ (**الحج: ٧٨**)

وقد قامت دولة الاسلام بدورها العالمي هذا على عهد النبوة وأيام الخلافة الراشدة، وتدافع التيار إلى مداه أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين، وإن كان هذا التيار قد شابه من الكدر والدخن ما أزرى به وحط قدره حتى توقف آخر الأمر!

والمسلمون في هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية، بل إن حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة!

وأذكر أن حوارا دار بيني وبين الأستاذ علي أمين بعدما كتب يستنكر أذان الفجر ويزعم أنه يزعج النيام المستريحين (!) قلت له: إن إيقاظ الناس للصلاة مقصود قصدا، وفي أذان الفجر كلمة تقول: الصلاة خير من النوم! قال: من أراد الصلاة فليشتر «منبها» يوقظه ليصلي، قلت له: إن جمهور

المسلمين وهم كثرة هذا البلد يريدون الصلاة علانية ويريدون أن يصبغوا الحياة الاجتماعية بها، وأن ينظموا نومهم وانتباههم على أوقاتها، فإذا شاء الكسالى غير ذلك فليتواروا بإثمهم، لا أن يفرضوه على المجتمع ويطلبوا من المؤمنين التواري بدينهم.

وأشهد أن الرجل لان وتأثر واستكان، وأرجو أن يكون قد تاب ومات مغفورا له، وإنما ذكرت هذا الحوار، ليعرف من جهل مبلغ ما انحدرت إليه أمتنا!

إن الشيوعية تريد أن تكون نظاما عالميا، وكذلك المادية والإباحية، وكذلك الصهيونية والصليبية، أما الإسلام فإن طبيعته العالمية يراد إنكارها، وإذا تم ذلك فإن وجوده المحلي ينبغي الخلاص منه والإجهاز عليه.

وأريد أن نعرف من نحن؟ وما ديننا؟ وما هدفنا؟ وما طبيعة جهادنا؟ إننا ورثة الإسلام وحملته وأصحاب الحضارة الوحيدة التي تعترف بالدنيا والآخرة، والروح والجسد والعقل والعاطفة.

وفي قرآننا وسنة نبينا صلاحنا وصلاح العالم من حولنا، وقد هنا على أنفسنا، فكان طبيعيا أن نهون على غيرنا، وزهدنا في ديننا، فكان طبيعيا أن يزهد العالم فيه.

وقد بدت في الأفق تباشير عودة ناجحة إلى هذا الدين العظيم، فلنصور بدقة طبيعة النور الذي خصنا الله به، طبيعة الرسالة التي شاء الله أن تحق الحق وتبطل الباطل، وتهدي الحيارى في المشارق والمغارب ويفرض علينا هذا المعنى أمورا ذات بال.

أولها ما دام محمد عليه الصلاة والسلام للعالم كله وليس للعرب خاصة، فيجب على العرب وهم الذين تحدث محمد ﷺ بلغتهم، وكلفوا بنقل رسالته إلى غيرهم، يجب عليهم أن يوصلوا هذا القول إلى كل قبيل من الناس، وبكل لغة يتم التفاهم بها.،

أي إنه يجب عليهم أن يتقنوا كل اللغات العالمية، وما استطاعوا من اللغات المحلية، وأن يودعوها خلاصة كافية هادية من تعاليم الإسلام في مجال العقيدة والخلق والعبادة وشتى أنواع المعاملات، وأن يذكروا بدقة ولطف الفروق الكبيرة بين أصول الإيمان عندنا وعند أهل الأديان الأخرى، سماوية كانت أو أرضية.

إن هذا الواجب لم يكن منه بد، حتى لو كان الميدان خاليا لنا وحدنا، فكيف وهناك أجهزة عالمية ضخمة تخصصت في تحقير الإسلام؟ فكيف وقد تآمرت على الإسلام شتى القوى، وتألب ضده خصوم خبثاء يصطادون الشبه ويتلمسون للأبرياء العيوب؟

إن الاستعمار سخر أجهزة إلحادية وصليبية سبقتنا إلى أجيال كثيفة من الزنوج والجنس الأصفر، وتركت في نفسه سموما ضد محمد عليه الصلاة والسلام ودينه، وانتهزت الصمت الذي خيم على أجهزة الدعاية الإسلامية والسلبية المشينة التي لذنا بها، وراحت تكذب وتكذب حتى نجحت في تلويث سمعتنا، وقدرت على غرس تدين مختل الأصول، مضطرب السلوك، وأمكنها بسهولة أن تصد عن سبيل الله وتردم معالم الصراط المستقيم! إن ذلك يوجب علينا الإحساس المضاعف بخطئنا وتخلفنا وتحملنا عبء المسارعة إلى تعليم الجاهل، ومراجعة المخدوع وتعريف الناس بربهم الواحد الأحد، الفرد الصمد، وربطهم بالدين الذي حمل رايته جميع الأنبياء، ثم نقاه وشد دعائمه وثبت أهدافه النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ.

والأمر الثاني المتصل بعالمية الرسالة، يرجع إلى اللغة العربية، فلغة الرسالة الخالدة يجب أن تتبوأ مكانة رفيعة لدى أصحابها، ولدى الناس أجمعين، فإن الله باختياره هذه اللغة وعاء لوحيه الباقي على الزمان قد أعلى قدرها وميَّزها على سواها والواقع أن اللغة العربية مهاد القرآن وسياجه، فإذا تضعضعت وأقصيت عن أن تكون لغة التخاطب والأداء ولغة العلم والحضاره، أوشك القرآن نفسه أن يوضع في المتاحف، ولهذه الغاية

الخاسرة تعمل فئات غفيرة من المستعمرين وأذنابهم، وما أكثر أولئك الأذناب في الجامعات والمجامع ودور الإذاعات والصحف وغيرها!

إن آباءنا عليهم الرضوان نشروا اللغة العربية بكل الوسائل المتاحة لهم، وما تأسست مدرسة لخدمة الدين إلا انقسمت علومها بين مناهج الشريعة ومناهج اللغة والأدب.. ويلاحظ الآن انكماش مفزع في هذا الميدان ورواج سمج للهجات العامية والمصطلحات الأجنبية، والترجمات الركيكة، والكلمات الدخيلة.

واللغة العربية لا تخدم بالحماس السلبي، بل لا بد من إعادة النظر في شؤون شتى تتصل بكيانها وتعاليمها.

ولنفرق من الآن بين طرق تعليمها للتلامذة الأجانب وتلامذتنا، ولنبتكر أساليب ميسورة لتدريس المصادر، وتصريف الأفعال وجموع التكسير وأنواع المترادفات وغير ذلك مما يعانيه طلاب العربية.

إن هناك لغات لم يشرفها الله بوحي، ولم تصحب حضارة إنسانية مشرقة يخدمها أبناؤها بذكاء نادر، فما دهى العرب حتى تركوا لغتهم توشك أن تكون من اللغات الميتة أو الثانوية في هذه الدنيا؟

إننا عجزنا عن جعل اللغة العربية لغة أولى بين «الألف مليون مسلم» الذين يعتنقون الإسلام، وهذا وحده فشل ذريع نؤاخذ به يوم الحساب، ويرجع هذا الفشل إلى أن العرب أنفسهم لا يجلون لغتهم، بل لقد استطاع الاستعمار الثقافي أن يكرهها لهم أو يحقرها لديهم، فأي بلاء هذا؟ والمطلوب الآن للفور إقصاء اللهجات العامية والرطانات الأعجمية عن جميع منابر الصحافة والإعلام وإعادة الحياة إلى اللغة الفصحى في كل محفل.

وأكرر مطلبا آخر ذكرته في أحد المؤتمرات وهو إنشاء مدارس وإرسال بعثات لنشر اللغة العربية وحدها أي دون ربط اللغة بالدين، فإن هذا التعليم المجرد سيوسع القاعدة الثقافية للغة القرآن، وسيكون يوما ما رافدا من روافد الحق والإيمان.

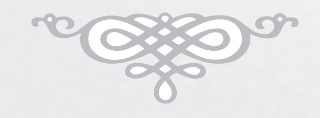
والأمر الثالث والأخير في عملية الدعوة يتصل بالوضع الأدبي والمادي داخل الأمة الإسلامية نفسها، إن الخلق الزاكي لغة إنسانية عالمية تعجب وتقنع، وبهذه اللغة تفاهم الصحابة والتابعون مع الشعوب التي عرفوها وعرفتهم فدخل الناس في دين الله أفواجا.

أي أن القدوة الحسنة، فردية كانت أو جماعية، تفرض احترام العقيدة والحفاوة بها، وهذه القدوة ليست دورا تمثيليا يؤدى بالخداع واجتذاب المشاهدين، كلا كلا! فحبل الكذب قصير، إن هذه القدوة هي الحلاوة في الثمرة الناضجة أو الرائحة في الزهرة العاطرة، أي هي نضج الكمال الذاتي وقد شاء الله أن يؤتي السلف الصالح أنصبة جزلة من هذا الحسن الذاتي، ففتحت لهم المدن العظام أبوابها وألقت إليهم الجماهير بقيادها.

وإنني أشعر اليوم بغضاضة شديدة حين أرى السائحين والسائحات يجوبون بلادنا ويدرسون أحوالنا، ثم يتجاوزوننا بقلة اكتراث أو باستهانة بالغة!

إنهم لا يرون- فيما يشهدون- أثر الإسلام الحق في نظافته وسموه، بل يرون شعوبا أقل منهم كثيرا في المستوى الحضاري ولا أقول في المستوى الخلقي المعتاد.

وتلك أحوال تصد عن الإسلام ولا تغري باعتناقه، وعالمية الإسلام تفرض على أتباعه أن يقدموا من سلوكهم الخاص والعام نماذج جديرة بالإكبار، أو على القليل جديرة بالسؤال عن حقيقة الإسلام لمن لم يعرفوا هذه الحقيقة، وما أكثرهم في أرض الله.



(٤٦)

الإنسان في القرآن الكريم

العدد (١٨٢) صفر (١٤٠٠هـ) ديسمبر (١٩٧٩م)

كانت الملائكة متشائمة من مستقبل الإنسان على ظهر الأرض، لعلها أحست أن أصله الترابي سيجعله هشا أمام الاختبارات الصلبة، وأنه سيفقد تماسكه أمام الأهواء والمغريات، لعلها رأت أنه يشبه أجناسًا أخرى لم تصدع بأمر الله، ولم تحسن تنفيذ وصاياه، أو لعل شعاعًا من عالم الغيب طلع عليها فرأت معه صورًا من الحروب الدامية والمسالك المعوجة التي سوف يخوضها البشر ويظلمون بها أنفسهم.

على أية حال لقد تساءلت الملائكة مستغربة وقالت لله جل شأنه ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (**البقرة: ٣٠**) وكان الجواب الأعلى ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وخلق الله آدم ووهب له عقلًا محيطًا بالأشياء كلها، ووضع في هذا العقل خاصة باهرة ليتمكن بها من معرفة الأسرار والظواهر، ويهيمن بها على شتيت من القوى والعناصر، إن هذا الإنسان المحدود في أعضائه ومشاعره، يملك طاقات ضخمة تجعله سيدًا لما حوله، بل تجعله ملكًا واسع السلطان ممدود النفوذ، ولعل الملائكة اليوم ترقبه دهشة وهو يخترق الفضاء ويغزو الكواكب.. لكن عظمة الإنسان لا تكمن في هذه القدرات الطيعة، إنها تكمن في أمر آخر أهم منها وأجل، هو معرفته لمن خلقه فسواه، لمن أعلى قدره ورفع مستواه، لله الذي خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له..

إن هذا الفريق من الناس الذي عرف ربه وأسلم له وجهه، وافتتح مغاليق الحياة باسمه، هو الذي يبرز الحكمة من وجود الإنسان في العالم، وأحسب أن هذا الفريق الصالح المصلح، هو الذي استشفت الملائكة خبره ثم قالت

لله ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ **(البقرة: ٣٢)**، وقصة الحياة الإنسانية كما ساقها القرآن الكريم تستوقف النظر من نواح عدة نحب أن نبينها، أولها هذا التنعيم الذي أحاط بها منذ بدايتها، فبين يدي عرض القصة في سورة البقرة نقرأ قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ **(البقرة: ٢٩)**، وقبل ذلك بقليل نقرأ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ **(البقرة: ٢٢)**.

وبين يدي عرضها في سور الأعراف نقرأ قوله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ **(الأعراف: ١٠، ١١)**.

وبين يدي عرضها في سورة الحجر سرد للنعم التي تحف الحياة البشرية نقرأ منه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ **(الحجر: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠)**.

والواقع أن الرغيف الذي يطعمه إنسان، تشترك في إنباته وإنضاجه فجاج الأرض وآفاق السماء فتربة الأرض، والسحب الهامية، والأشعة العمودية أو المائلة التي تتعرض لها الحقول خلال دوران الأرض حول الشمس، وأثر الضوء في تكوين الخضرة، وأشياء أخرى كثيرة تتعاون جميعًا على تكوين الغذاء والكساء والدواء، الذي يحتاج إليه البشر، إن شبكة من المواد الدقيقة جدًا، والجسيمة جدًا، انتظمت في خدمة الإنسان وتأمين معايشه وتخطيط حاضره ومستقبله، كل يؤدي دوره بوفاء وقدرة.. الكواكب السابحة في الفضاء، والجرائم التي لا تراها العين.

وذاك سر الأقسام الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم مشيرة إلى فخامة هذا العالم ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾(**الانشقاق: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩**)، ﴿ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴾(**المدثر: ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥**) وتدبر القسم بالرياح المثيرة والسحب الحافلة وما يتبع ذلك من زرع وحصاد وتجارة واحتراف وخبرات تعم البشر﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ (**الذاريات: ١،٢،٣،٤،٥**) إن رب العالمين أبدع ما صنع، وحدثنا عن هذا الإبداع لنعجب به ونتذوق جماله. وإني لأستغرب أحوال ناس ينتسبون إلى الإسلام ويديرون ظهرهم للكون، فلا يدرسون له قانونًا، ولا يكشفون له سرًا.

أي إيمان هذا؟ وأي جهل بقصة الحياة ووظيفة آدم وبنيه في ربوعها؟

إن الإنسان في القرآن الكريم كائن مكرم مفضل محترم مخدوم، ومن حق الله تبارك اسمه أن يعاتب البشر على سوء تقديرهم لآلائه ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ (**لقمان: ٢٠**).

هذه ناحية تتصل بالتكريم المادي للإنسان، وثم ناحية ثانية تتصل بكيانه المعنوي فالإنسان نفخة من روح الله الأعلى.. هكذا بدأ خلق آدم، وهكذا تتخلق الأجنة في بطون الأمهات، إن الحياة في شتى الأجسام المتحركة شيء، وخصائص الحياة الرفيعة في أبناء آدم شيء آخر، وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم إلي الوجود، بيد أن آدم وحده هو الذي وصفه بقوله ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(**ص: ٧٢**) واطرد هذا التكريم في ذريته إلى قيام الساعة ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ

ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ﴾(**السجدة: ٧، ٨، ٩**).

والإنسان بهذه النفخة كائن جديد يعلو فوق ما يشبهه من ضروب الحيوان ولذلك قال جل شأنه ﴿... فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (**المؤمنون: ١٤**) وبعد أن تم خلق آدم على هذه الصورة أمر الله الملائكة أن تسجد له سجود تعظيم وتوقير لا سجود عبادة! والملائكة هي التي أبدت دهشتها لإيجاد هذا الإنسان واستنكرت ما سوف يقع منه من فساد وفوضى.

إنها طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه! وعوقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله وسواء كان إبليس من الملائكة، أم صادف وجوده بينهم وهو من الجن، فإن النتيجة لا تختلف، إذ إن الاستهانة بالإنسان هي عند الله عصيان وخيم العاقبة! وهذا التكريم البين ينضم إليه أمر آخر عظيم الدلالة على مكانة الإنسان وحفاوة الله به، هذا الأمر هو الفرح الإلهي بعودة الإنسان التائب واستقبال الله له بإعزاز بالغ، وتجاوزه عما فرط منه من خطأ، وقوله في عفو شامل ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (**طه: ٨٢**).

كلتا الناحيتين من تكريم وتنعيم استتبعت ناحية ثالثة، كان لها الأثر الأكبر في مستقبل الإنسان ومستقبل الكوكب الذي أعد لسكناه، بل في مستقبل المجموعة الشمسية كلها التي سينتثر عقدها وينطفئ نورها مع انتهاء الرسالة الإنسانية على ظهر الأرض.. هذه الناحية هي التكليف، فإن الله الذي زود الإنسان بهذا السمو في مواهبه لم يتركه سدى، بل أمره ونهاه وطلب منه أن يفعل، وأن يترك! وربما كلفه أن يفعل ما يثقله، وأن يترك ما يشتهيه!! وهنا نقف وقفة يسيرة أمام سر التكليف ومعناه لنتناول جملة أمور.

إن أبانا آدم، وهو الإنسان الأول، كلف ألا يأكل من شجرة معينة وكان جديرًا به أن يعرف حق الآمر جل شأنه وأن يدع الأكل من هذه الشجرة أبدا ولكنه بعد مرحلة من الذهول والضعف، عرضت له ساعة انهيار في إرادته وامتداد في رغبته، فأكل من الشجرة المحرمة، وشاركته زوجته في عصيانه فطردا جميعًا من الجنة، وكانا قد أحسا بالخطأ الذي تورطا فيه، فدعوا الله نادمين ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (**الأعراف: ٢٣، ٢٤، ٢٥**)، ونزل أبوانا إلى الأرض، وشرع كثير من الأبناء يمثلون القصة نفسها، ويرتكبون الخطأ ذاته، ولكنه ليس أكلا من شجرة، بل اتباعا للشهوات التي تقود إلى العصيان والحرمان!

العنوان متغير والحقيقة واحدة.. إن هذا السلوك من الإنسان الأول يجعلنا نتساءل عن علته، والعلة واضحة، فإن الإنسان بدأ حياته بطبيعة مزدوجة، قبس من نور الله داخل غلاف من طين الأرض!

إن الله تبارك وتعالى بعدما صور الإنسان من التراب وسواه، نفخ فيه من روحه، فإذا كائن عجيب يجمع النقائض في تركيبه، يقدر على التسامي وعلى الإسفاف، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف! وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخليط في التكوين البشري فقال جل شأنه ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾(**الإنسان: ٢**) كما نبه إلى أن إلمامه بالخطايا ليس مستغربًا، إنه ينزع إلى عرق فيه! ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ ﴾(**النجم: ٣٢**).

وكلتا النزعتين الأرضية والسماوية تجد في الحياة أو في البيئة ما

يضعفها أو يقويها وقبل ذلك كله، تجد في الإنسان نفسه ما يرجح كفة على أخرى، وما يسلم زمامه للخير أو للشر، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد في اتجاهه هنا أو هنا.

إن إيثار الوقوف عند الإشارة الحمراء أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف إنساني محض.

وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ (**الأعراف: ١٧٥، ١٧٦**) أي لو تسامى وترفع ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فتركه الله حيث شاء لنفسه.

ولا بد من توكيد هذه الحقيقة، حقيقة الإرادة الحرة في الصعود والهبوط، في التقوى والفجور، في إغضاب الله أو إرضائه، فإن الرحمن الرحيم يستحيل أن يظلم إنسانا سعى في مرضاته كما أنه لا يرضى عن إنسان سعى في إغضابه.

وبعض الناس يماري في هذه الحقيقة عن مكابرة، أو تمحل أعذار، وهيهات، فقصة الوجود الإنساني تقوم على اختيار حقيقي لاكتشاف المحسن والمسيء ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (**الملك: ٢**) والمحسن إنسان أتقن العمل واحترم الصواب، والمسيء إنسان فرط ولزم العوج، والعراك داخل النفس الإنسانية لاختيار أحد النهجين عراك حقيقي لا صوري، وتلمح صدق هذا العراك وقبول نتائجه في قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ (**النازعات: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١**). إن السالم في هذا العراك إنسان يشعر بقيام الله عليه وعلى سائر الكائنات، ومع نماء هذا الشعور يخفت صوت

الهوى، ويغلبه صوت الضمير اليقظان أو القلب الحي.. فأين التمثيل أو المحاباة أو الخداع في هذه الحالات؟

الله جل شأنه ينادي الإنسان ويذكره ويهديه، وعلى الإنسان أن يلبي ويتذكر ويهتدي، فإذا أبى إلا الشرود فهو وحده الملوم، ومن ثم تقررت هذه الأحكام العادلة التي تدركها من قوله تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ﴾ (**الأنعام: ١٠٤**) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (**الشمس: ٧، ٨، ٩، ١٠**)، والتزكية والتدسية جهد بشري محض، أو كذلك يكون أول الطريق، ثم يلحقه من مشيئة الله ما يصل به إلى النهاية ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(**النساء: ١١٥**).

ونتساءل مرة ثانية: ما قيمة الصوت المضلل الذي يستمع إليه الإنسان فيزيغ ويشقى؟ الحق أن صداه الضخم أضعاف أضعاف حقيقته التافهة، إنه كنقيق الضفدعة يملأ أكناف الليل ومصدره لا قيمة له!

ما الشجرة التي أكل منها آدم؟ هل أحس طويلا لذة ثمرها ومتعة ازدرادها؟ لقد كانت وهما هذه النشوة المأمولة، ولو فرضناها لذة ساعة فما قيمتها إذا ووزنت بما أعقبته من حسرات سنين عددا؟ بل دهرا طويلا!

إن الإنسان في هذه الدنيا تهيجه رغبة حمقاء إلى شيء محرم، ما إن يواقعه حتى يحس الفراغ والضياع، وحقيق بالإنسان أن يتماسك أمام عوامل الاستفزاز ومزالق القدم.

ونتساءل مرة أخرى: ما مصدر هذا الصوت النابي الجهول الذي يزل الإنسان؟ والجواب أن له مصدرين اثنين أولهما نفس الإنسان، أو الإهاب

الترابي الذي غلفت به، والمصدر الثاني من كائن آخر خاصم الإنسان من النشأة الأولى وهو الشيطان الذي آلى على نفسه استدامة هذا الخصام إلى يوم النشور.

في المصدر الداخلي للمعصية يقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾(**طه: ١١٥**).

فالنسيان وضعف العزيمة رذائل وقع فيها الإنسان الأول، ومع تولدها في نفسه تتهيأ الإمكانات للشيطان كي يوسوس ويخادع، ويقول لآدم وامرأته ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ (**الأعراف: ٢٠، ٢١، ٢٢**). وما تمت هذه التدلية ولا نجح الشيطان في خدعته إلا لأن آدم كان قد ضعفت ذاكرته وضعفت إرادته.

الضعف النفسي أولا! ثم وساوس الشيطان ثانيًا! ولا عبرة بما يتعلل به المخطئون من أن الشيطان هو السبب الأول والأخير في انحدارهم!

إن للشيطان محطة إرسال يذيع منها فنون الإغراء والإغواء، والإنسان هو الذي يهيئ أقطار نفسه لاستقبال هذه الإذاعات والتجاوب معها.

وأنت الذي تتخير ما تسمع من محطات «الراديو» المختلفة، ولو شئت أغلقت للفور ما تعاف سماعه، وابتعدت عنه، حتى لا يصل صداه إلى سمعك، أو قاومته بمشاعر النفور والمقت حتى لا يستولي عليك وقد منح الشيطان من أول يوم القدرة على إغراء الإنسان وخداعه.

ودفعته خصومته إلى ابتكار وسائل كثيرة ونصب أحابيل مختلفة لإيقاع الأغرار والغافلين وقيل له:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

(**الإسراء: ٦٤**) ولكن الشيطان لا يملك أكثر من الكلام، يكذب فيه ويغر، وقد نبه الله آدم وبنيه إلى هذا الكاذب.. وحذرهم من الشراك المنصوبة والأقاويل المزورة.

إن الشيطان يعد كاذبا، ويقسم حانثا، وينصح غاشا، ويلين ليلدغ، وينحني ليثب ويصرع، وهو في هذا كله لا يملك إلا شيئًا واحدًا، الكلام، الكلام وحده! فلا يجوز أن نصدقه ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾(**طه: ١١٧**) ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (**الكهف: ٥٠**) ومع ذلك فقد قدر الشيطان بالكلام المضلل أن يزيغ الكثيرين.. وسيقول يوم القيامة لمن استجابوا له ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾(**إبراهيم: ٢٢**).

إن سلاح الشيطان مفلول والنجاة منه ميسورة ميسورة! وعندما يقع البعض في قبضته فلا حماية له، لأن القانون لا يحمي المغفلين! ومن ثم فالجهد الحقيقي في النصح والتربية يتجه إلى الإنسان أولا وآخرا ليوقظ فيه أسباب الحذر، وليسد الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها الشيطان بوساوسه الماكرة، لقد أشرنا إلى الأمشاج التي يتكون منها الإنسان، والحق أن في الإنسان- مع أصله السماوي - طباعًا لا يجوز تركها حرة تتصرف كما تشاء، لا بد من مراقبتها بدقة وإخضاع حركتها وسكناتها لحكم الله، وإلا جرته من القمة إلى الحضيض ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾(**التين: ٤، ٥**).

وليس معنى هذا الرد أنه تحول إلى مسخ ذميم بعدما كان في ذروة الحسن! كلا.. المعنى أن إمكانات الهبوط جاورت معاني الرفعة في نفسه، وأنه يستطيع التحليق والإسفاف معًا وذاك سر الاستثناء بعد ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾**(التين: ٦)**، أي سوف يبقى قوامهم حسنًا ماديًا ومعنويًا!

وجاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تقرر الطبائع الرديئة التي ينبغي الخلاص منها، فالإنسان أناني يحب نفسه وحسب، وقد تكون محبة النفس أصلًا في استبقاء الحياة، ولكن هذه المحبة تتحول إلى مرض خطير، يورث الشره، والطمع، والبغي، واجتياح الحقوق بنزق، وقد ذكر القرآن أن هذه الأثرة لا يطفئها الغنى مهما اتسع ﴿ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ **(الإسراء: ١٠٠)**، والإنسان نسّاء أو غافل، وقد يكون هذا أو ذاك أصلا في استبقاء الحياة، فلو استصحب المرء حزنه إلى الأبد على ما فقد ما صلحت الدنيا.

ولكن هذا الذهول قد يكون جرثومة الكنود ونكران الجميل ونسيان الرب وما أولى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾**(الإسراء: ٦٧)**، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ **(العاديات: ٦، ٧)** والإنسان الذي يحلو له أحيانا أن يفخر، ويتطاول، وينظر إلى السماء بقلة اكتراث تذله علة في أي مكان من جسمه أو تزله غلطة في أي وقت من تفكيره مهما كان عبقريا ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ **(النساء: ٢٨)**، والإنسان محتال كبير في الدفاع عن نفسه والتماس الأعذار لأخطائه وعد ما يقع منه وجهة نظر مقبولة أو مغفورة ﴿ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾**(الكهف: ٥٤)**.

وهذه الطبائع جميعًا مزالق لمن يسترسل معها، وقد نبه القرآن الكريم إلى أمراض شتى تعتري النفس، فالإنسان قد يبطر مع الغنى، ويطغى مع السلطة، ويقنط مع الفشل، وقد يستحلي من شهوات النساء، والرياء، والاستعلاء

ما يحيله إلى عبد لنفسه وهواه، ولكن الفكاك من هذه الآثام كلها ميسور، فإن القرآن الكريم لما خوف عواقب هذه الانحرافات الإنسانية ذكر أسباب النجاة منها، ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (**العصر: ١، ٢، ٣**)، وما أجملته سورة العصر من وصف للداء والدواء، فصلته سور أخرى، نختار منها سورة المعارج التي أسندت للإنسان هذه الخلال ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾(**المعارج: ١٩، ٢٠، ٢١**)، لكن الإنسان يبرأ من هذه العلل إذا قام بجملة العبادات المفروضة.

ونتساءل: هل هذه العبادات «مصل» واق، أم شفاء من أمراض توجد وتتجدد؟ قد يكون هذا أو ذاك! ولنتدبر أولًا الاستثناء الذي تضمنته السورة الكريمة ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ (**المعارج: من ٢٢ إلى ٣٥**).

لا شك أن هذه العبادات مجتمعة تنشئ إنسانًا كاملا، شريطة أن تؤدى أداء حقيقيا لا أداء تمثيليا! وأحب أن أقف عند واحدة من هذه العبادات لأتأملها وأتعرف على آثارها النفسية، وهي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم

بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴾. إن الإنسان المسلم يجب أن يكون مستعدا دائمًا لأداء الشهادة على وجهها، ليحق الحق، ويبطل الباطل، ويدعم العدالة. والقيام بالشهادة يتطلب صراحة لا تخاف في الله لومة لائم، ذلك أن الحق يختنق في هذه الدنيا وسط دخان الشهوات المتصاعد من هنا ومن هناك. والمرء ينكل عن الإدلاء بالرأي الصحيح والقول الصحيح، لأنه يخشى على مستقبله مثلا، أو يريد محاباة قريب، أو يطمع في مال، أو يتطلع إلى منصب، إنه لا يستبين وجه الله من غلظ الحجب على بصيرته! والمجتمع الإسلامي يسقط مع اختفاء الذين هم بشهاداتهم قائمون. وكم رأينا من أناس قدموا وحقهم التأخير، أو أخروا وحقهم التقديم، لأن المؤمنين ليسوا بشهاداتهم قائمين، ربما سكتوا أو قالوا فلم يعدلوا!

ولقد عرفت لماذا سبقت بعض المجتمعات سبقا بعيدًا، عندما قرأت أن زوج الملكة في هولندا عزل وجرد من أوسمته، لما كشفت صلته بقضية رشوة، وأن رئيس وزراء اليابان عزل ورمي به في السجن للتهمة نفسها!

إن القيام بالشهادة يعني ألا نترك صاحب حق مستوحشا في هذه الدنيا لا صديق له ولا ظهير، والشهادة بداهة ليست ما يقال أمام المحاكم فقط، بل ما يقال في كل خلاف أو مشورة أو اختيار أو انتخاب أو أي شأن ذي بال. والقائم بالشهادة رجل أسلم لله وجهه وقرر أن يحيا للحق وحده! وقد تتشابك في نفس الإنسان عدة طباع مثل تشهي الحياة، وتعجل النتائج، وغلبة الأثرة، فيصدر أحكاما خاطئة على ما يصيبه من خير أو شر، وتستبد به المبالغة فتجمح به مشاعره نحو نفسه ونحو الناس، وفي هذا يقول جل شأنه ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١ ﴾ **(هود: ٩، ١٠، ١١)**، في هذه الآيات صورة الإنسان الذي

تستبد به الساعة الحاضرة وحدها، فهو عند فقد ما يسر منهزم كسير من شدة القنوط، وعند وجدانه ينتشى ويغتر من شدة الفرح، وكان يجب أن يتمالك نفسه في الحالتين وينظر إلى أصابع القدر وراء ما يمسه فيستكين لله ويؤدي ما عليه بتعقل.. ثم ينضم إلى هذا الإحساس المعتدل شعور آخر أساسه أن ما يناله من خير ليس تمتيعا له وحده، فإن للمحرومين سهمًا فيما جاءه، وقد يكون سهما كبيرا ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر: ١٥-٢٠)، وأن الفقر ابتلاء، ومن الخطأ تصور الإغناء تكريما والإفقار إهانة.. العبرة بالنتائج، فإن الذي يستعف في فقره أسبق عند الله وأرجح في الميزان من الذي يطغى بغناه.

والذي يمنح الثراء فيفتح أبوابه لليتيم والمسكين ويسارع بالبذل في مواطن النفقة هو الإنسان الناجح في الامتحان، السابق في الميدان.. لكن البشر- للأسف- يحسبون العطاء تدليلًا لأشخاصهم، والحرمان إهانة وإذلالا.. وذلك خطأ بالغ في فهم الدين والدنيا.. وعندما خال الناس أن الغنى تكريم ذاتي لبعض الأفراد والأسر، وأن الفقر هوان ذاتي قصده الله لبعض الأفراد والأسر، عندما شاع ذلك انفجرت براكين الأحقاد ضد أصحاب الثروات، وانفجرت معها عواصف الإلحاد والكفر، وتعرض مستقبل الإنسانية كلها للبوار، وهل انتشرت الشيوعية إلا في هذا الجو؟

إن العبادة هي السلم الفذ الذي تصعد فيه النفس الإنسانية إلى الكمال المنشود. يجب على الإنسان أن يعرف ربه، وأن يقف في ساحته عبدا نقيا من الآفات والعاهات، إن آدم لما نسي وضعف، أضحى دون مستوى الجنة فأخرج منها. ولن يعود أبناؤه إلى الجنة وهم يحملون أوزار النسيان والضعف،

لا بد من إيمان واضح، وعمل صالح وفي طول القرآن وعرضه توكيد لهذه الحقيقة التي حاول كثيرون الزوغان منها..

ونعود إلى الخاصة الأولى في تكوين آدم وبنيه، خاصة العقل العالم بالأشياء الخبير بالحقائق والأسماء، إن الإنسان المكلف بعبادة الله لا يعبده بشبحه المحدود، وجسمه المادي القاصر! إنما يعبده بتطويع طاقاته كلها لله. إنه يضع بصماته المؤمنة على الأرض حتى إذا سجد، سجد معه زرعها وضرعها وحديدها وذهبها وكل ما ملك وارتفق!

وأرى أن ذا القرنين عندما ساوى بين الصدفين، وذوب الحديد والنحاس داخل سلسلة من القلاع التي تحمي الضعاف وتذود الطغاة- أرى أنه أحق الحق، وأبطل الباطل، لا بالكلام وحده، ولكن بجعل الأرض ومعالمها ومعادنها تؤدي وظيفته، وتحمل طابعه، وكأنها امتداد لنبض قلبه وبطش يده، وهل ملك الله الأرض للإنسان إلا لهذا؟

عندما تعطي خادمك أسباب الزينة والوجاهة، فيجيئك أشعث أغبر، فأنت تضيق به، والعباد الجهلة بالحياة، الغرباء في الكون، سوأة زرية، وجهل أو تمرد على الخلافة الإنسانية في العالم، ونحن المسلمين سنحاسب حسابًا عسيرًا على تخلفنا الفاضح في العلوم الطبيعية، ربما احتاج الإنسان كي يصلي إلى مساحة من الأرض لا تعدو ذراعًا في ذراع، ولكنه كي يدفع العدوان عن هذا المسجد الضئيل، يحتاج إلى معرفة تمتد من الأرض إلى المريخ، بل إلى الشمس، معرفة في هذا العصر تهيمن على ما في الأرض وما فوق الثرى، وتخترق طباق الجو متحسسة آفاقًا بعد آفاق من أغوار الكون البعيد.

كتب الدكتور فاروق الباز الخبير في غزو الفضاء عن حاجة العرب إلى «متنقل فضائي» يستعينون به على اكتشاف أرضهم، وما أودع فيها من خيرات، وأهاب بالحكومات العربية أن تمول هذا المشروع، قال: «ليس من المستبعد في نظري أن تخطو دولة عربية هذه الخطوة فتحقق ما فيه الخير

للعالم العربي كله، نحن نعلم أن الصحراء تكون ٩٦٪ من جملة الأراضي العربية ولا بد من الانتفاع بجزء كبير من هذه الصحراء، إلى جانب دراستها دراسة علمية صحيحة، فنحن لا نعلم عن الصحراء إلا قليلًا، وربما كان سبب هذا أن علماء الغرب لم يهتموا لقلة الصحاري في بلادهم، ولصعوبة التنقل في صحرائنا الشاسعة!

ويلزم العلماء العرب أن يدرسوا الصحراء وتضاريسها وتراكيبها، دراسة تفصيلية لأن البادية منبع كل ما هو عربي.. والصحراء تحيط بالعرب من كل ناحية، يتضح هذا لرواد الفضاء في المدار الأرضي وضوحًا تاما حتى إن رواد القمر كانوا يتعجبون لظهور الصحراء العربية في صورهم الملتقطة كتلة واحدة على بعد أربعة ملايين كيلومتر».

قال: «وتعتبر الصحراء خزانا عظيم الشأن للنفط وللمياه الجوفية، ويصلح بعض أجزائها للزراعة المثمرة، وأهم من ذلك كله أن الصحراء خزان عظيم لطاقة لا نهاية لها هي الطاقة الشمسية، ولذلك يجب أن تشمل دراسة الصحراء العربية تحديد أصلح الأماكن لأبحاث الطاقة الشمسية، وطرق الإفادة منها ومن الناحية الاجتماعية يجب أن تشمل الدراسة التعرف على الأماكن المختارة لمعيشة الإنسان، وإنشاء المدن الكبيرة والصغيرة وطرق المواصلات ومنتجعات السياحة والترفيه، وتحديد بنية الخضرة في الصحراء لاستغلالها، ومعرفة المؤثرات المختلفة على حياة البدو، إلى غير ذلك مما يجعل الصحراء بقاعًا لائقة للعيش الكريم».

قال: «وينجح هذا العمل إذا تم على مستوى عربي جماعي! فالصحراء العربية برغم ترامي أطرافها، إقليم واحد، له ميزات ومعالم جغرافية واحدة، ولا صلة لهذه الوحدة بالحدود السياسية الوهمية بين الدولة وخطوط الشتات التي مزقت الكيان الواحد».

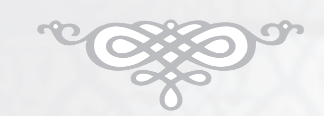
قال: «وأما المطلوب لدراسة الصحراء على المدار الأرضي، فهو في اعتقادي قمر صناعي يرحل إلى الفضاء (المتنقل الفضائي) الذي سبق

للدكتور الباز اقتراحه- ويرجع صوره الملتقطة إلى الأرض رواد الفضاء المختارون، وذلك بين آونة وأخرى! ويكون هذا القمر عربيا في أغلب نواحيه، يختار مكوناته علماء يقومون بتشغيله، وتدرس المعلومات المرسلة في عدة معاهد عربية أو في مركز عربي موحد تشترك فيه الدول العربية كلها».

قال: وكنموذج للمكونات التي يجب أن يشتمل عليها القمر الصناعي العربي ينبغي وجود عدة كاميرات أهمها كاميرا للتصوير الطبوغرافي، وكاميرا للتصوير الدقيق أي بانورامية وكاميرا لأخذ الصور المتعددة الأطياف، على نمط أجهزة لاندسات، بل أكثر دقة وأقل تعقيدًا. الكاميرات الطبوغرافية تلزم لأخذ الصور المطلوبة لخرائط على مقياس ١:١٥٠٠٠٠ من ارتفاع ١٨٠ كيلومتر وطول عدسة هذه الكاميرا هو ٣٠٥ ملليمترات ومساحة الصورة الواحدة ٢٣×٤٦ سنتيمترا... الخ. إنني تعمدت هذا النقل ليعلم من يجهل أن دراسة الكون شيء مثير وخطير، ولا بد منه لدنيانا وديننا معًا، وأن هذه الدراسة برع فيها غيرنا ونبت لديه جيل من الرواد والباحثين العباقرة على حين تراجعنا نحن وراء وراء.

إن هذا التخلف إذا بقي فسوف تتلاشى عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر، وينهزم التوحيد هزيمة نكراء.. وإنني لأصيح دون مواربة بأن هذا التخلف جريمة دينية لا تقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التي ألفنا الترهيب منها. بل لعلها أشنع وأوخم عقبى.

إن الجو الذي يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر، والسماء والأرض، ويطلق الفكر سابحًا في ملكوت لا نهاية له. ويؤكد للإنسان أنه ملك يخدمه كل شيء فما الذي جعل الفكر الديني يعيش في قوقعة؟ إنني أحس فزعًا كبيرًا عندما أرى بعض المتصدرين في العلوم الدينية- هكذا يوصفون- يماري في دوران الأرض، أو ينكر وصول الإنسان إلى القمر! لماذا؟ لأنه يعيش في مغارة سحيقة، صنعها أشخاص قاصرون، لا يتصلون بحقيقة القرآن إلا كما يتصل القروي بعلوم الذرة.



(٤٧)

الكتاب والسنة معاً

العدد (١٨٥) جمادي الأولى (١٤٠٠هـ) مارس (١٩٨٠م)

لا يعرف التاريخ إلا قرآنا واحدًا منشور النسخ بين جماهير المسلمين من ليلة القدر الأولى إلى يوم الناس هذا، ولم يحدث خلاف على هذه الحقيقة خلال أربعة عشر قرنًا مضت، فكتاب المسلمين واحد وقد حاول بعض المستشرقين الصغار أن يختلق ريبة حول ذلك فزعم أن عند الشيعة مصحفًا آخر، وهو زعم ساقط كان أقل من أن نثبته هنا، ولكنا ترخصنا في ذكره ليعلم من يجهل أن القرآن الذي يحفظه جميع المسلمين ويحتفظون بنسخه في بيوتهم واحد! واحد!.

ولم يؤثر عن شيعي أو سني أو خارجي أو صوفي أن لديه قرآنًا آخر غير هذا الكتاب الفذ، إن المصحف يطبع في القاهرة فيقتنيه مسلمو إيران والهند من الشيعة دون أي تردد عالمين بأن هذا هو الوحي الذي نزل على نبيهم.

وظاهر أن الأقدار ضاعفت أسباب الصيانة لهذا الكتاب حتى انفرد بهذه المكانة التي لم يظفر بها كتاب سماوي آخر.

ومع كثافة الأسانيد المتواترة التي دفعت بهذا الكتاب إلينا، فإن هناك نظرًا آخر جديراً بالاحترام كله، إن حديث القرآن عن الله ولقائه ومطالبه من عباده يعلو كثيرًا جدًّا عن نظيره في الكتب الأخرى.

فتالي القرآن يشعر بأن الله واحد، واسع، عظيم، أعلى، جدير بالحمد كله، والمجد كله، يستحيل أن ينسب إليه نقص أو يكون فوق كماله كمال.

وتالي العهد الجديد يشعر بأن الله تجسد وقتل في سياق غامض حافل بالمتناقضات، وفي التوراة كما سجلها العهد القديم لا توجد كلمة عن لقاء

الله، ولا يوجد ذكر ليوم القيامة، الحديث كله عن الشعب المختار، وحقوقه في هذه الدنيا وواجباته تجاه رب إسرائيل! فأي تدين هذا؟

والحديث عن يوم القيامة في العهد الجديد إما أن يؤخذ عن طريق الرؤى في المنام، أو الإشارات الروحية ليوم الدينونة.

والبون بعيد بين هذا الأسلوب الخافت وبين الهدير الذي يسمع دويه في الوعد والوعيد، ومشاهد القيامة وصور الحساب والثواب والعقاب كما تكاثرت في سور القرآن.

والجانب الإنساني الحر ظاهر في القرآن الكريم، فأنت وحدك صانع مستقبلك، ومصور ملامحك، إن أحسنت لم يستطع أحد أن يعترض طريقك إلى الجنة.. وإن أسأت لم يستطع أحد أن ينقذك من النار ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ **(فصلت: ٤٦)** فلا وسطاء ولا شفعاء ولا قرابين على نحو ما تصور الوثنية أو على نحو ما تصور الأديان السماوية التي انحرفت.

والقرآن- بهذا الواقع المشرق- جدير أن يكون الصوت الفذ المنبعث من السماء، فلو لم تدعمه أسانيد التواتر الغنية السخية لقال العقل: ما يصح عن الله إلا هذا.

ومن هنا فنحن نوقن بأن القارات الخمس لا تحوي سجلًا للوحي الأعلى إلا في هذا الكتاب العزيز.

ومن هنا أيضًا جاء خلود الرسالة التي بقي مصدرها الأول خالدًا ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **(فصلت: ٤٢)**.

وقد اتفق المسلمون على أن القرآن هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام، والمعجزة الباقية أبد الدهر لنبيه عليه الصلاة والسلام، كما اتفقوا على أن

السنة المطهرة هي مصدره الثاني، ونقف وقفة قصيرة أمام هذا المصدر.

تواجه السنة النبوية هجومًا شديدًا في هذه الأيام وهو هجوم خال من العلم ومن الإنصاف، وقد تألفت بعض جماعات شاذة تدعي الاكتفاء بالقرآن وحده.

ولو تم لهذه الجماعات ما تريد لأضاعت القرآن والسنة جميعًا، فإن القضاء على السنة ذريعة للقضاء على الدين كله.

إن محاربة السنة لو قامت على أسس علمية لوجب ألا يدرس التاريخ في بلد ما، لماذا يقبل التاريخ- على أنه علم- وتهتم كل أمة به، مع أن طرق الإثبات فيه مساوية أو أقل من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟

وأمر آخر نحب أن نثيره، لماذا تدرس سير العظماء وكلماتهم وتعرض للتأسي والإعجاب ويحرم من ذلك الحق رسل الله، وفي صدارتهم سيد أولئك الرسل مروءة وشرفًا، وبيانًا، وأدبًا، وجهادًا، وإخلاصًا؟

إن بعض البله يتصور الأنبياء أبواقًا لأمين الوحي، يرددون ما يلقيه إليهم، فإذا انصرف عنهم هبطوا إلى مستوى الدهماء، وخبا نورهم.

أي غفلة صغيرة في هذا التصور؟

إن الأنبياء رجال أكابر أكارم، مصطفون من بين الألوف المؤلفة لصفاء فطرتهم، وزكاة أفئدتهم، ونفاسة معادنهم.

والوحي الذي يمر بنفوسهم يتألق في جوانبهم ويتأنق في سيرهم ويضوع شذاه في إيمانهم وصلاحهم، فإذا لم يكن هؤلاء قدوة فمن القدوة؟

الأدباء القوالون وحسب؟ الساسة الماكرون وحسب؟ القادة السفاحون وحسب؟ ما أغرب أحكام البشر!

إن الله في كتابه أحصى أسماء ثمانية عشر نبيًا من الهداة الأوائل ثم قال

للهادي الخاتم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ **(الأنعام: ٩٠)**.

فإذا برز للإنسانية إنسان كامل، التقت في سيرته شمائل النبوات كلها، وتفجرت الحكمة على لسانه كلمات جوامع، واستطاع- وهو الفرد المستوحش- أن يحشد من القوة ما يقمع كبرياء الجبابرة، ويكسر قيود الشعوب، ويوطئ الأكناف للحق المطارد.. إذا يسر الله للإنسانية هذا الإنسان العابد المجاهد الناصح المربي جاء غر يقول: لا نأخذ منه ولا نسمع له، ثم يستطرد مخفيًا غشه: حسبنا كتاب الله! وهل السنة الا امتداد لسناه، وتفسير لمعناه وتحقيق لأهدافه ووصاياه؟ على أننا نعتب على جماعات كثيرة تنتسب للسنة وتظهر التمسك بها، فإن مسلكها قد يكون من وراء انصراف بعض الناس عن السنن وشكهم في جدواها، ونأخذ على هذه الجماعات أمرين، أولهما أنها تخلط الصحيح بالسقيم، ولا تدري بدقة ما يقبل ويرد من المرويات.

وقد لاحظت عند تحديد الوضع الاجتماعي للمرأة أنه ما يجيء حديثان في قضية تتصل بها إلا أخر الصحيح وقدم الضعيف! فزيارة المرأة للقبور ترويها أحاديث صحيحة، ولكن بعض أهل العلم يقدمون عليها حديثًا ضعيفًا يلعن زائرات القبور.

ورؤية المرأة للرجال- مع غض البصر- ترويها أحاديث صحيحة ولكن بعض أهل العلم يطوون ما صح وينشرون آثارًا واهية أن المرأة لا ترى رجلا ولا يراها رجل! وقد وضعت تفاسير وذكرت مرويات لتقرير أن وجه المرأة عورة، وأن الإسفار عنه جريمة، وليس وراء هذا الزعم سنة صحيحة، ولا فقه قائم.

ولعل هذا القصور العلمي وراء الانهيار الاجتماعي أمام زحف المدنية الحديثة، خذ مثلا هذه القضية الاجتماعية الحساسة، قضية المهور، فإن الأحاديث الصحيحة وردت برفض المغالاة فيها.. روى مسلم عن أبي هريرة

قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي على كم تزوجتها؟ فقال: على أربع أواق من فضة، فقال له النبي ﷺ على أربع أواق! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل!»

وظاهر من تعليق الرسول أنه استكثر المهر.

والأصل في المهور التيسير، وسنته ﷺ في نسائه وفي بناته التيسير، والأحاديث في ذلك كثيرة.

ولكن هذه الأحاديث الكثيرة طويت طيًّا وانهزمت أمام رواية جاءت أن امرأة جادلت عمر بن الخطاب في زيادة المهور وهزمته مستشهدة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا﴾(**النساء: ٢٠**).

وهذه الرواية لم تأت بسند صحيح، بل في رجالها انقطاع وضعف، ولو تجاوزنا ذلك- وما يجوز تجاوزه- فإن موضوع الآية ومعناها ليس محل الاستشهاد، إذ الآية في شخص يريد تبديل زوجة بأخرى ويريد أن يسترد من الزوجة المتروكة ما أعطاه إياها مهرًا فرفض القرآن هذا المسلك الصغير، وبيّن أنه ما يجوز أخذ شيء من المرأة المهجورة ولو أمهرها قنطارًا.

والعبارة تفيد المبالغة، ولو لم تفدها فالأمر يتصل بقضية أخرى غير إنشاء البيوت، وإعفاف الرجال والنساء، وإغلاق أبواب الحرام وتفتيح أبواب الحلال، وحماية الأمة من التسول الجنسي ومقاذر الانحراف.

وقد لاحظت أن هناك أحاديث ضعيفة تحكم المجتمعات الإسلامية وتهزم الأحاديث الصحيحة بل المتواترة، خذ مثلًا رفض صلاة النساء في المساجد، فقد فهم من أحاديث لم يروها رجال الصحيح ومع ذلك فقد أقر الرفض عمليًّا، وطويت الأحاديث المتواترة والصحيحة في هذه القضية المتصلة بأهم عبادات الإسلام، والتصرف في السنة بهذا الأسلوب لا يمكن أن يكون دينًا قويمًا ولا صراطًا مستقيمًا، أما الأمر الثاني الذي يؤخذ على المشتغلين بالسنن عمومًا فهو قصورهم الفقهي وليست لهم قدم راسخة في فقه الكتاب الكريم! مع أنه الأصل، كما أنهم يأخذون الأحاديث مقطوعة عن

ملابساتها، ولا يضمون إليها ما ورد في موضوعها من مرويات أخرى قد تؤيدها وقد تردها.

خذ هذين المثلين مما عرض لي في القاهرة وأنا مهموم بقضايا الدعوة.

أولًا: وقف خطيب يدعي السلفية يروي للناس أن والد الرسول ﷺ في النار، وكان ذلك لمناسبة احتفال المسلمين بالمولد النبوي! وقلت للناس: هذا الحديث يخالف قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(**الإسراء: ١٥**) وقد ثبت أن جيل الرسول الكريم وصحابته كلهم لم يبعث أحد إلى آبائهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(**يس: ٦**) ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(**السجدة: ٣**) ومعنى هذا أن عبدالله وأمثاله لا يعذبون، ولا يدخلون النار، ويكفي هذا الخلاف لنقض الحديث فهو علة تقدح في صحته.

وعلماء المصطلح يردون المتن إذا خالف ما هو أصح وأوثق.

وليس بعد حكم القرآن الكريم حكم، ولعل الراوي فهم أن تعذيب المشركين جميعًا هو الأساس، وأن استثناء أهل الفترة رحمة فوق العدل، فساق الحديث لتوكيد المعنى الأول.

وعلى أية حال فإن رواية هذا الحديث في خطبة جامعة وفي مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي جلافة وجهالة غليظتان.

ثانيا: وقال خطيب آخر يدعي التصوف: إن الله ليلة المعراج نزل لمحمد وأوحى إليه. وقلت للناس: ما روي في ذلك كان رؤيا منام، ومع ذلك فقد رفضه الحفاظ وردوه ردًّا شديدًا وعدوه من العثرات القليلة التي أخذت على راويه. وقد لاحظت أن المطابع وضعت في أيدي الجماهير نسخًا كثيرة من الموطأ ومن الصحيحين، وكثيرًا ما يقرأ العامة أحاديث فوق مستواهم،

والحديث إن لم يقدمه عالم فقيه، أو إذا لم يصحب بشرح يلقي ضوءًا كاشفًا على معناه، ربما كان مثار فتنة ولغط.. وكم من أنصاف متعلمين أساءوا إلى السنة بضعف الفقه وقصور البصر.. والخلاصة أن طاعة رسول الله ﷺ من طاعة الله تبارك وتعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(**آل عمران: ١٣٢**) ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(**النساء: ٨٠**) وأن من زعم أن الرسول يجوز عصيانه فيما أمر به ونهى عنه فهو كافر باتفاق المسلمين.. وقد بذلت جهود لم يبذل مثلها في الوقوف على تراث بشر كي يعرف ماذا قال الرسول حقًا.. وانتهت هذه الجهود بجملة حقائق محترمة:

١ - إن في السنة ما هو متواتر لفظًا أو معنى، وهذا النوع من السنن يشبه القرآن الكريم فيما أتى به من أحكام، ولا يمكن رده، وهو كثير في التراث النبوي وعليه تقوم الكثرة الكاثرة من الأحكام المقررة، وليس بصحيح أن المتواتر في السنة ضيق النطاق، ربما كان ذلك فيما تواتر لفظه، أما ما تواتر معناه فهو أساس مقررات فقهية كثيرة والواقع أن أخبار الآحاد من الناحية العملية لا تشكل مساحة كبيرة من السلوك الإسلامي المهم، فإن ما لا بد منه تكفلت به نصوص ثابتة بيقين.

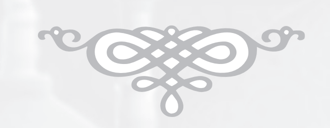
٢ - وجمهور الأمة يقبل سنن الآحاد ويعدها دليلًا على الحكم الشرعي الذي نتعبد الله بإقامته، ومن الناس من عد هذه السنن مفيدة لليقين الذي يفيده التواتر- ما دامت صحيحة- ولكن جمهور العلماء يقبل سنن الآحاد في الأحكام العملية والفروع الفقهية ولا ينقلها إلى ميدان العقيدة الذي يقوم الأمر فيه على القطع، ومعنى ذلك أن سنن الآحاد تفيد الظن العلمي وحسب.

٣ - مع اتفاق الفقهاء على أن سنن الآحاد قرينة مقبولة في إفادة الحكم الشرعي فإن عددًا من الأئمة يتجاوز هذه السنن إذا كانت هناك قرينة أقوى منها في إفادة حكم الله، «فمالك» مثلًا يرى عمل أهل المدينة أدل

على السنة النبوية من حديث الآحاد مهما كانت صحته، و«الأحناف» يرون أن حديث الآحاد لا ينهض على إثبات الفرضية وحده، ولا ينهض كذلك على إثبات الحرمة ولكنه يثبت أحكامًا أقل رتبة.. وغالى بعضهم فجعل القياس القطعي أرجح من سنن الآحاد.

ودراسة السنة علم له رجاله الخبراء، ولا يقبل في هذا الميدان ما يرسله السفهاء من أحكام طائشة تجعل التطويح بالسنة الشريفة أمرًا جائزًا أو تجعل تكذيب حديث ما هوى مطاعًا.

إنه لا فقه بغير سنة ولا سنة بغير فقه، وقوام الإسلام بركنيه كليهما من كتاب وسنة وفي ذلك يقول الأستاذ الإمام حسن البنا: «القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقًا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولاتعسف ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات».



(٤٨)

حوار جاد حول التقليد والاجتهاد

العدد (١٨٧) رجب (١٤٠٠هـ) مايو (١٩٨٠م)

أحب للمتحدثين في الإسلام- وأنا منهم- أن يرزقوا سعة العلم وعمق الفقه، إن فقر العلم كفقر الدم لا يعين على نشاط ولا يجود معه إنتاج، وغزارة العلم مع ضحالة الفقه تضليل للسعي وضياع للثمرة.

وكثيرًا ما أستشعر الضيق في مواجهة صنفين من الناس، صنف حار العاطفة قليل الدراية، وصنف ظاهر الجحود لأنه لا يدري شيئًا، أو يدري الأمور على نحو بعيد عن الحقيقة.

وعصرنا هذا عصر حضارة ذكية الفكر عارمة الهوى.. وليس يجدي في تقويمها إلا أصحاب بصائر نيرة، وقلوب عامرة، لهم من رحابة الاطلاع والأفق ما يسدد حكمهم ويقنع خصمهم.

وقد آلت إلينا في هذا العصر مواريث عقلية ونقلية ضخمة، تمثل جهد آبائنا في خدمة الإسلام وعلومه، كما أن غيرنا لديه أشياء كثيرة يستريح إليها ولا يتنازل عنها بسهولة.. ترى هل أحسنا الإفادة مما ورثنا؟

ثم هل عرضناه- بعد- العرض الذي يهيئ له القبول؟ رأيي لا، وبيننا وبين الخدمة الناجحة للإسلام أمد بعيد.

وسأسوق بعض المجادلات التي دارت بيني وبين قوم يشتغلون بالقضايا الفقهية لعل في سوقها ما يكشف الغاية التي أريد..

حدث في مدينة الإسكندرية أن قتل رجل ولديه، ويظهر أنه فعل ذلك إسقاطًا لنفقتهما، بعدما طلق أمهما! وحكم القضاء الوضعي بإعدام الرجل، وأحال أوراقه إلى المفتي للتصديق.. ورفض المفتي التصديق على الحكم،

لأن الشريعة تأبى ذلك، ولكن القضاء الوضعي مضى في طريقه وقتل الأب القاتل..

وثار لغط كثير حول القانون والشريعة في هذه القضية الشاذة.. وقال لي أحد الناس: لماذا تصمت في هذا الموضوع؟ قلت: إن هواي مع الإمام مالك في القصاص من هذا الأب المجرم! قال: إن المفتي ذكر في اعتراضه الحديث الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لايقتل الوالد بالولد» قلت: هذه هي القاعدة، والآباء يشقون ليسعد أبناؤهم، بل قد يموتون في سبيلهم، فإذا حدث أن غلبت على الوالد نزوة غضب أو ساعة طيش فقتل ابنه، عوقب بغير القتل، لأن ما وقع منه لا يتصور- غالبًا- أن يكون تعمد إهلاك، أو قصدا واعيا لإزهاق روح أعز الناس عليه.. فإذا تبين من التحقيق أن الأب شاذ، وأنه تعمد ذبح ابنه عن إصرار وروية، وجب القصاص.

وقاتل ابنيه في قضية الإسكندرية الآنفة استدرجهما ثم حملهما إلى أعماق البحر المتوسط، بعيدًا عن الشاطئ، ورمي بهما بين الأمواج، وعاد ليفر من أداء النفقة الواجبة لمطلقته ولهما معها!

إن الإمام مالكًا يحكم بالقصاص منه، ويحمل الحديث على صور القتل العارضة، التي لا تحمل طابع التعمد والعدوان الدنيء!

قال لي صاحبي: إن غبارًا لحق بسمعة الشريعة في هذه القضية، أما كان ينبغي على المفتي أن يرى رأي مالك في هذا الحدث؟

قلت: إنه حنفي المذهب، وله وجهة نظره، ولكن أبا حنيفة في بعض قضايا القتل رجح ظاهر القرآن على نصوص السنة، وقضى بقتل المسلم بالكافر إعمالًا لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾(المائدة: ٤٥) وحمل الحديث الذي يفيد عدم قتل المسلم بالكافر بأنه يعني كافرًا لا عهد له ولا ذمة ولا أمان! أما من عاش في ذمة المسلمين فلا يهدر دمه ويجب الاقتصاص له!

وقد كان المفتي قادرًا على تقليد مالك أو التمشي مع منطق الأحناف إلى

نهاية الطريق وهو منطق يرجح القصاص من الأصل في عدوانه على الفرع، لأن وجهة نظرهم تقديم ظاهر القرآن على حديث الآحاد..

والطريف أن الأحناف والمالكية اتفقوا في قضية مسترق النظر، ورأوا أن ما جاء بها من سنن هو للإرهاب والتغليظ وحسب!

إن بعض الناس قد يضع عينه في ثقب باب مثلًا ليطلع على عورات البيت ويستكشف محارمه، وهذا بلا ريب سلوك دنيء، وقد حذر النبي ﷺ منه، وبين أن رب البيت لو فقأ عين هذا المتلصص ما كان عليه من بأس!

وفي ذلك روى أحمد والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص".

وبظاهر الحديث أخذ الحنابلة والشافعية، أما أبوحنيفة ومالك فحملوا الحديث على الترهيب وإشعار سارق النظرات أنه يفعل ما يهدر حقه وكرامته، قالوا: لأن الأخذ بالظاهر يخالف الأصول العامة، إذ إن هذا المرء لو اقتحم البيت، وارتكب جريمة الزنى- وهو بكر- أو ارتكب من المنكر ما دون الزنى وهو متزوج، ما فقئت عينه شرعا. بل يجلد أو يعزر حسب حالته فكيف يكون المراد فقء عينه على الحقيقة، وممَّ يقتص منه؟ يمكن تأديبه بعقاب مناسب، وإذا حدث أن فقأ عينه رب البيت لزمه تعويض عن العاهة التي أحدثها.

والمفهوم من كلام الأحناف والمالكية أن صاحب البيت الذي دافع عن محارمه يعذر فلا يقتص منه! ولكنه يؤاخذ فيحكم عليه بغرم مالي!

قال لي محدثي: وماذا تقول أنت في هذا الخلاف؟ قلت: لم أكوّن رأيا مكتملًا فيه! ولا أستطيع الآن ترجيح رأي على آخر! أنا قصدت فقط استعراض وجهات النظر في فقهنا الإسلامي.. وكان بجانبنا شاب يكاد يتميز من الغيظ، فعندما وصل الكلام إلى هذه المرحلة صاح يقول: تفاضلون بين أقوال الرجال وسنة رسول الله، وتتناولون الأحاديث الصحيحة بهذا

الأسلوب السيئ، إن هذا عمل يكاد ينتهي بأصحابه إلى الكفر! هذا تقديم بين يدي الله ورسوله! هذا... قلت للشاب الهائج: على رسلك.. إنك قبل أن تخوض في هذه الأمور باسم السلف يجب أن تستجمع خصلتين مهمتين، أدب النفس وحسن الفقه.. ولن نقبل ممن فقد الأدب والفقه كلامًا في هذه القضايا.

أما الأدب فأساسه ألا نلتمس للبرآء العيب، وألا نتشهى إلصاق التهم بالناس، وإذا غلبنا سوء الظن بالآخرين استغفرنا الله للمخطئ كما نستغفر لأنفسنا.. عندما اختلف الصحابة السائرون إلى بني قريظة أيصلون العصر في بني قريظة كما أمرهم الرسول بذلك صراحة، أم يرعون حق الوقت ويصلون في الطريق كما فهم غيرهم، لم يقل الأولون للآخرين: خالفتم أمر رسول الله وكرهتم تنفيذه لأنكم أصحاب أهواء ولأنكم... لم يقولوا لإخوانهم كلمة سوء، ولما بلغ الأمر الرسول ﷺ لم يلم أحدا أو يخطئه، ووقف الكل جبهة واحدة ضد اليهود!

إن أدب الإسلام كان صبغة عامة، ولو كنت- والخطاب للشاب الهائج - أنت وأمثالك في هذ الميدان لصنعتم مأساة في الطريق، وربما سفكتم الدم الحرام.. ولندع الكلام عن أدب النفس واللسان لنرى فقه الموضوع الذي يفوت القاصرين.

قال الإمام ابن تيمية: في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه عام الخندق «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدركتهم صلاة العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصلي إلا في بني قريظة، وقال بعضهم: لم يرد منا هذا.. وصلوا في الطريق.. فلم يعب الرسول- لما بلغه الخلاف- واحدة من الطائفتين.

قال ابن تيمية يشرح فقه القضية: الأولون تمسكوا بعموم الخطاب فجعلوا صورة الفوات داخلة في العموم- يعني أنهم رأوا إضاعة وقت العصر من مفهوم النص النبوي،- والآخرون كان معهم من الدليل ما يوجب خروج هذه

الصورة عن العموم إذ المقصود المبادرة إلى اللحاق باليهود قبل أن يتهيئوا للقتال.

وهي مسألة اختلف فيها الفقهاء اختلافًا مشهورًا: هل يخص العموم بالقياس أم لا؟ قال ابن تيمية: ومع هذا فالذين صلوا في الطريق كانوا أصوب فعلا! هكذا يقول كبير العلماء السلفيين في العصور الأخيرة.

ولست هنا أرجح رأيا على رأي، وإنما يعنيني أن يتأدب ويتفقه من يخوضون في هذه القضايا وأشباهها ثم ليختلفوا نظريًا ما شاءوا.

أما أن يتهجم نفر من الطلاب، أو بعض البوابين والبقالين، على الأئمة الكبار، وينالوا من قيمهم الدينية والعلمية فهذا سفه منكور..

إن جعل أمتنا بلا تاريخ ولا قادة عمل أخرق.. وتقدير الرجال الذين خدموا الثقافة الإسلامية لا يعني نسبة العصمة لأحدهم كما أن نقدهم ليس كلأ مباحا لكل من فك الخط، أو حفظ جملًا من الأحاديث أو حتى حفظ ألوفًا من السنن.. إن نقد الأئمة لا يتصدى له إلا من قارب مستواهم على الأقل.. وكان نقده بيانًا للحق كما وقر في نفسه دون أن يجعل الحق حكرًا على فهمه هو، ودون أن يحرم عباد الله الصالحين أجورهم على ما اجتهدوا، أخطأوا أم أصابوا.

قال محدثي: قد يكون الحق معك بيد أننا ينبغي أن نرفق بمن يرفضون تقليد الأئمة، ويعتمدون على أنفسهم في فقه الكتاب والسنة..

قلت: إنني لا أتعصب لمذهب معين! ولكني أحترم القيمة العلمية للفقه المذهبي، وأقدر الرجال الكبار الذين تناقلوه في تاريخنا الثقافي، وأرد الزعم الغريب بأنه قسيم لفقه السنة وأن كلا الطرفين بعيد عن الآخر.

كأن المحدثين ألصق برسول الله وأغير على سنته وكأن الأئمة الأعلام بعداء عن السنة، يشقون لهم في ميدان المعرفة الدينية مجرى آخر.

هذا غير صحيح، وربما غاب عن أحدهم أو عن بعضهم حديث ما، فذاك لا يغض من جملة الحقائق التي قررها..

ثم إن إنشاء فقه جديد يستمد مباشرة من الكتاب والسنة- كما يقال- جهد لا نعترضه عند من تكتمل ثقافتهم وتنضج ملكاتهم، وليس لهؤلاء أن يعدوا أفهامهم هي مراد الله ورسوله فإنهم قد يوافقون أحكامًا سبق أن قررها غيرهم من العلماء، وقد يقررون أحكامًا جديدة لا عصمة لها بداهة كما أنه لا عصمة لأقوال غيرهم..

وقد رأيت الحصيلة الأخيرة لجهود هؤلاء فوجدت تشكيلة من فقه المذاهب القديمة أساسها التلفيق، ورأيت أحكامًا جديدة يدعي من بلغوها أنها الدين وهي لا تزيد عن أنها آراء لأصحابها يؤجرون عليها إن شاء الله أصابوا أم أخطأوا!

مشكلة هؤلاء أنهم يفهمون في الأثر المروي فهمًا ما، فإذا خالفهم غيرهم قالوا: خالف الرسول ﷺ. لا، يا قوم إنه خالف فهمكم لمروياته وقد يكون فهمكم شرا مستطيرا على السنة وصاحبها، والدين ومستقبله، فمن حق أولي الألباب أن يأخذوا على أيديكم ويحذروا الناس منكم!

قال لي صاحبي: أوضح لنا ما تقول: قلت: ألف بعضهم رسالة يزعم فيها أن شن الحرب على الأعداء يتم دون دعوة إلى الإسلام، واستند إلى فهمه المنكور لحديث البخاري أن الرسول ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، أي اجتاح أرضهم على غرة، وأن الدعوة إلى الإسلام كانت في صدر الإسلام.. ثم أصبح المسلمون قطاع طريق عند هذا الأحمق الذي يدعي أنه يقرر فقه السلف.. أصبحوا يغيرون على أعدائهم هكذا دون نذير.

والحقيقة أنه ﷺ دعا وتريث وأمل الخير في الناس، فلما وجدهم جمعوا الجموع لقتاله لم ينتظر حتى يستكملوا عدتهم فأخذهم على غرة!

وأخذ بعضهم ينشر أن الزكاة لا تؤخذ إلا من الحبوب التي تدخر، قلت له: إن أبا حنيفة يوجبها في الفواكه والموالح والأزهار والشاي والبن، وكل ما تنتج الأرض من قطن ومطاط وقصب... الخ.

قال: السنة ما نقول: وأبوحنيفة في ميدان السنة ليس بشيء!

قلت: السنة أن نترك زارع الشاي يكسب من فدانه ألف جنيه لا زكاة فيها، ونأخذ من زارع الشعير الذي لا يكسب من فدانه خمسين جنيهًا زكاة؟

قال: نعم هذه السنة.. قلت ساخرًا: بدعة أبي حنيفة خير من سنتكم، إنكم وبال على الإسلام بهذا الأسلوب.. إن أبا حنيفة اعتمد في مذهبه على قرآن محكم.. وربما ترك رسول الله ﷺ أخذ الزكاة من الفواكه لأنها في عهده أو في أرضه لا تمثل ثروة محترمة أما اليوم والحصائل الزراعية مال خطير فما يمكن تركها.. وأبوحنيفة أرعى للسنة منكم، وأدرى بملابسات الأحكام.

إنكم تحفظون مئات الأحاديث دون وعي، والقليل الذي حفظه أبوحنيفة أحسن الاستفادة منه.. هناك رجل يملك مائة بندقية ولا يحسن إصابة الهدف بواحدة منها، وربما أراد الضرب فقتل بريئًا، أو قتل نفسه.. خير منه من يملك بندقية واحدة يحسن استخدامها، ذاك مثلكم ومثل أبي حنيفة الذي تتطاولون عليه!

عندما كنت مديرًا للمساجد وصيت الخطباء فقلت: إذا رأيتم من دخل المسجد أثناء الخطبة يصلي ركعتي التحية فلا تجلسوه.. وإذا رأيتموه جلس دون صلاة فلا تنهضوه للصلاة.. قال لي أحدهم: السنة أن يقوم ليصلي ويلفته الإمام إلى ذلك!

قلت: ذاك ما رآه الإمام الشافعي وأحمد في الحديث المروي في هذه القضية.. أما الإمام مالك وأبوحنيفة فيقولان يجلس ليسمع الخطبة ولا ينشغل عنها بشيء!

يقول مالك هكذا وجدنا الناس يفعلون في المسجد النبوي! متوارثين ذلك عن الصحابة والتابعين، فعملهم أدل على السنة من حديث البدوي الذي صح أن الرسول أمره بالصلاة، لعل هذا الأمر كان ثم نسخ!

وقال أبوحنيفة تلك وقعة حال، كان الرجل فقيرًا يرتدي أسمالا بالية فاستوقفه الرسول وحث على الصدقة ليستدر العطف عليه، والأصل أن الخطيب يتحدث ليستمع الجميع إليه لا ليشتغل الداخلون عنه بالصلاة.

قال لي محدثي: إن ظاهر الحديث مع أحمد والشافعي، قلت: نعم وظاهر الحديث مع السائرين إلى قريظة ألا يصلوا في الطريق! ومع ذلك فإن ابن تيمية رجح الصلاة في الطريق..

ونحن في توصيتنا لعلماء المساجد نرفض التعصب المذهبي ونمنع فتنا سخيفة، من تابع أبا حنيفة ومالكا فليتبعهما، ومن تابع الشافعي وأحمد فليتبعهما!

وما زلت أوصي الخطباء بذلك وأرفض الزعم بأن نصف الأئمة خالف السنة الواردة، قد يكون خالف فهمنا للسنة الواردة وله حقه غير منكور، وللجميع أجرهم إن شاء الله وأخيرًا قلت لمحدثي: إن دقة الفقه لا تتاح لكل مسلم صالح، إنها هبة يؤتيها الله من شاء، أرأيت الخلاف الذي نشب بين عمر وبعض الصحابة حول الأقطار المفتوحة؟ كان هذا البعض يريد تخميسها وفق آية الأنفال، ولو استجاب عمر له لوقف الفتح الإسلامي وتحول الفاتحون إلى إقطاعيين وانهار بناء الإسلام.

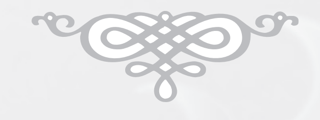
لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعل التخميس الذي نصت عليه الآية في الأمتعة والأسلحة والأغذية وشتى المنقولات المغنومة، أما الأرض المفتوحة فبقيت لأصحابها، ووضعت عليها ضرائب معقولة لمصلحة الدولة..

هذا هو الفقه وإن خالف ظاهر النص.. إننا لا نسمح أن يجيء نفر من الدهماء ليرفع خسيسته على حساب كبار الأئمة وعندما تختفي القمم

الفقهية من تاريخنا خلال أربعة عشر قرنًا فمن يبرز بعد ذلك؟

أين الأدب الذي علمنا رسول الله ﷺ الأخذ به في قوله: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه"؟

إن المجتهد- أخطأ أم أصاب - معذور ومأجور، فلم التطاول والإيذاء؟ ثم من ألزم الجماهير برأي معين لواحد من هؤلاء الأكابر؟ ليكن أفقنا واسعًا وخلقنا أوسع؟



الفهرس

إصـــدارات

مجلة الوعي الإسلامي

١- القدس في القلب والذاكرة.

٢- حقوق الإنسان في الإسلام.

٣- النقد الذاتي.. رؤية نقدية إسلامية.

٤- الحوار مع الآخر.. المنطلقات والضوابط.

٥- المجموعة القصصية الأولى للأطفال.

٦- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.

٧- الحج ولادة جديدة.

٨- الفنون الإسلامية تنوع حضاري فريد.

٩- لا إنكار في مسائل الاجتهاد.

١٠- المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.

١١- التجديد في التفسير... نظرة في المفهوم والضوابط.

١٢- مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي.

١٣- رياض الأفهم شرح عمدة الأحكام.


تم بحمد الله


تأسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة